إبداعات التفرغ

أحزان الشماس

رواية

فر عصفور قلبه
إلى حيث يجلس
الحاج رمضان



لتكن عيون
قلبك
مبصرة

من الرب إلهك
في قلبك
فينير لك بصيرتك

ليسعد الرب
روح سيدي
وينير قلبي

سعيد نوح

المجلس الأعلى للثقافة





المشرف العام : عماد أبو غازي

المشرف على السلسلة : أمينة زيدان

سكرتيرا التحرير الفنى: هشام نوار
مها عصام

أحزان الشماس
رواية

سعيد نوح

الطبعة الأولى - ٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدى: ١١٢١١

تليفون: ٢٧٣٥٢٣٩٦

فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

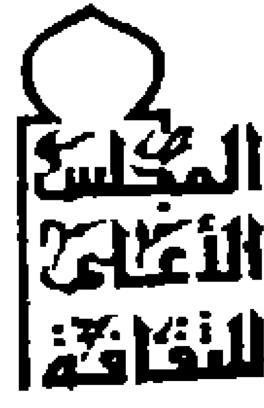
www.scc.gov.eg

تصميم الغلاف للفنان:

عـدلى رزق اللــه



إهداء ٢٠١٠
الأستاذ الدكتور/ خالد عزب
جمهورية مصر العربية



إبداعات التفرغ

[٥١]

أحزان الشماس

رواية

سعيد نوح

المجلس الأعلى للثقافة
إبداعات التفرغ

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نوح، سعيد

أحزان الشماس (رواية) / سعيد نوح

القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، إبداعات التفرغ، ط١، ٢٠١٠

٢٦٤ص، ٢٤ سم.

١- القصص العربية.

(أ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٤١٩٩/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.B.N 978-977-479-887-2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تُعبر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

www.scc.gov.eg

القسم الأول

(١)

كان الشماس العجوز ينظر للشمس التى لم تشكل روعة شروقها أكثر من مجرد الإحساس الجميل بالدفء من خلال فتحة فى أعلى ، الحائط والجسد الصغير، ينام على حافة السرير. بين الحين والحين يضع يديه الضامرتين فى صفيحة الماء الموضوعة فوق الموقد ؛ ليعرف مساحة الدفء فى الماء ثم يقول :

هذا المحطوط فوق السرير كان يحبك ، فلم أخذته؟! ولن تترك يدىّ حين تُسيرنى فى الظلام. لقد كان لى دبٌّ ، أسد كامن فى مخابىء ، كل بهاء عينى حين يزهر الكرم ، وينوّر الرمان ، وتُغلق الأبواب فى السوق ، وتبطل الطواحين ، وتُظلم النواظر من الشبابيك ، ويطوف النادبون على الأبواب ، وتظلم الشمس والنور والقمر والنجوم ، وترجع السحب بعد المطر ، ويتزعزع حفظة البيت وتتلوى رجال القوة . لم تُصيّرنى رجسا ، وتخرب أبوابى ، وتُشمّت بى بنى أمى؟! لم تجعلنى كناطور الكروم ، وتجرش بالحصى أسنانى ، وتكبسنى بالرماد ، وتُشبعنى عارا . وتجعلنى وسخا وكريها وتثقل سلسلتى فى آخر أيامى؟!

ارتعش الواقفون جوار الجسد عند خروج الكلمات من بين أسنان الشماس الصدئة محملة بماء العين. لم يكن يعرف أن قداسة الأب هو الذى سيُغسّل ابنه النائم فوق السرير ، ويرمى بأسرار الموت فى أذنه. استعد قداسته منذ الصباح على غير عادته. أمسك بكتاب الأسرار المقدسة خوفا من أن ينسى سرا ، فتضيع تلك الروح التى أحبها بين خراف الله الضالة . ثمانية عشر عاما مضت منذ أن عمده بالماء المقدس ، ولم يبك كالأطفال . يومها قال للشماس هذا الغلام الجميل لك. أنت أب ذلك الذى أوصى به خيرا ذلك الذى تحمل خطيئة ابن الإنسان.

انتفض جسد الشماس الضامر حين وضع يديه فى الصفيحة فقال لساعده الصغير:

ـ يا إبراهيم الماء فار. فهل يكبه الأعمى ويضع غيره على الموقد السريع أم تحمل ذلك عنه يابنى؟

كان إبراهيم ذلك الغلام الجميل يُمسك بوجه النائم فوق السرير ، ويتأكد من خلوه من الشعيرات النابتة. ارتعش الرأس بين يدى إبراهيم حين أكمل العجوز كلماته . فى الطريق لإحضار الماء كان إبراهيم يقول بصوت يسمعه الماشى جواره:

ـ كيف فار الماء بين يدى العجوز وهل يعترف بذلك يوم الأحد القادم؟

حين عاد كان الشماس العجوز قد أشعل الموقد السريع ، ولم يضع الآخر مكانه. ليكن هذا دليلك ياإبراهيم على خطيئة ذلك العجوز.سوف تكون أصغر شماس ، وتفرح أمك ، وتغيظ بك زوجة عمك التى تأخذ مرتب أبنائها الثلاثة ، وتشترى به قططا ، لتأكل فراخ أمك الحزينة. انتبه الجميع على صوت قداسة الأب يأمره بإحضار الجسد إلى المذبح.

وضع الشماس يديه فى صفيحة الماء ، وأطفأ الموقد ، قال للغلام : ارفع الموقدين يا يهوذا. ارتعش بدن الصغير حين سمع الاسم الذى كان يسمعه فى درس الجمعة ، وعند ذلك يرى الواعظ يتفُل على الأرض ، ويرسم علامة الصليب .هو يعرف حكاية الحوارى الذى أنكر الأب قبل صياح الديك ثلاث مرات. يومها جرى إلى أمه ، فوجدها تبكى لفقد أربع دجاجات ، فقال لها لاتبتئسى يا أمُّ ، سأدعو الأب أن يُنسى قطط امرأة عمى فراخك . أخذته فى حضنها ومن بين دموعها سمع صوتها يقول كيف أيها الشماس الصغير؟ فحكى لها كيف قال الرب لتلميذه ستنكرنى قبل صياح الديك الأخير ثلاث مرات.

وراح يحكى لها كيف أنكره الرسول فنظر إليه الرب ، فخرج بطرس وبكى بكاء حارا وهام على وجهه فى البرية ضحكت الأم البكاءة دائما.

كيف عرف ذلك الشماس بأفكارك الصغيرة؟! من أخبره بك يا إبراهيم؟! ارتعش بدن إبراهيم حين سمع الشماس يقول له : أنا عارف بكل أفكارك يا إبراهيم ، فلا تستعجل ؛ فالشماس الذى بعد قليل سيُغسّل ابنه ، يعرف ما دار بينك وبين الشيطان ، حين خرجت تملأ الماء ، فأمهله قليلا حتى يُغسّل ابنه كما يليق به .

حين وضع الجسد على المذبح ، كان الشماس العجوز يرمى يمام عينه الذى استكان من يوم مولده على مكان المذبح . يمسك بيديه الصليب المُدلّى من رقبته ، ويهمس .حين نظر إليه قداسة الأب ، لم يكن يعلم أن الشماس يقول للصليب المصنوع من بلاستيك أسود وفى وسطه صلُب الابن المقدس بطريقة كادت تخلع قلب إبراهيم حين رآه :

ـ هذا الذى وُضع على المذبح ، وبعد قليل أضع الماء الدافىء على صدره دون أن يقول لى خفف الماء بالماء ياأبى ، فأنا أحبه فاترا .أم تراك نسيت أيها العجوز ؟ فارحمنى يا رب وأطلق يمام عينى لمرة وحيدة أرى فيها وجهه الذى كنت ألمسه بيدى. مرة واحدة يارب. عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى هناك ،

فمد يدك نحو عينى ، ليكون نورا . زمجرة الأسد وصوت الزئير غابا عن أذنى. أنياب الشبل تكسرت. الليث هالك إذا لم ير شبل اللبؤة الذى تبدد لمرة وحيدة .

أو أقول لك ياأبى أطلق يدك ، وقطعنى . اسحقنى. فما هى قوتى بدون هذا النائم؟ وما هى نهايتى حتى أُصبّر نفسى؟ هل قوتى قوة الحجارة؟! هل لحمى نحاس؟! أم أن المساعدة مطرودة عنى؟! أليس جهادا للإنسان على الأرض؟ وكأيام الأجير أيامى ، فلم قسمت لى شقائى؟! ولم تلبس روحى الدود؟!

إن حياتى إنما هى ريح دون النائم ، وعينى إذا لم تره لمرة أخيرة فلم تر خيرا ،

ولا تغضب منى ، فأنا أشكو بمرارة نفسى وضيق روحى.

لست ببحر ، حتى تجعل عينى علىّ حارسا. أطلقها وأرخها حتى أبلع ريقى فقط أو تملأ فاك ضحكة يا رب.

جربني يارب وامتحني .هل تذكر يوما قال لي القس "متّى" كيف يكون ابنك وعيونه زرقاء وأنت أعمى تماما وامرأتك دميمة.؟! هل تذكر هذا المساء رفعت صليبك وقلت لك:

- عليك بمتّى. ليكن هذا المساء ظلاما . لا تعتنِ به يارب من فوق ، ولا تُشرق عليه نهارا. لأنه لم يغلق أبواب فمه عني. وفي الصباح قال الواعظ:

- من له قلب ، فليخشع ، وتلا على المصلين ما فعلته بمتّى.

المحبة جميلة ، فطيرٌ يمامي ، لأغسله فقط.!

(٢)

على غير عادته كان قداسته يرتدي زيا أبيض ، وعلى صدره حمالة بلاستيكية ، تحميه من الماء. حين رأى الشماس يترك الصليب ينام على صدره نادى عليه ، فحرك قدميه العاريتين ، ووقف أمامه. وضع قداسته يديه على ظهره ، وقال هل نبدأ الغُسل ياصديق؟ حرّك الشماس رأسه دون أن ينطق بكلمة.

أمسك إبراهيم بصفيحة الماء الساخن ، فقال له الشماس دعنا وحدنا يا إبراهيم. وضع ابراهيم الصفيحة ، ونظر في عين قداسة الأب الذي انشغل عنه بالنظر إلى عين النائم فوق المذبح ، فخرج.

أمسك قداسة الأب بيد الشماس ، وأخذ منه الكوب وهمس له:

- أيها العجوز لم ينزلق الماء هكذا دون أن يعلق بالجسد ولو قطرة.

ما خطيئة ابنك؟!

دمعت عينا الشماس ، وحكى له عن فوران الماء. انزعج الأب كثيرا وهو يستمع لجرجس الذي كثيرا ما حضر ماء الغسل ويعلم جيدا سر الماء وابدا لم يدع الماء يفور ،

كيف حدث معه ذلك ، أمسك الاب بيد جرجس الظاهر عليها الاحمرار أثر الماء الساخن ثم تركه لحظات ودخل إلى حجرة الأسرار وأمسك بالحق الذى ظل يحتفظ به طيلة اربعين عاما منذ صنعه له بعد أن وقع على باب الكنيسة ثم خرج وهو يتذكر شكل جرجس الصغير .وضع المرهم على يد الشماس وحاول أن يقول له عن الذكرى لكن دموع الشماس المتساقطة لم تمنحه فرصة التذكير. نادى قداسته على إبراهيم ، فدخل مُسرعا. أمره أن يُمسك بساقىّ النائم ، والعجوز يُمسك برأسه. أدار الجسد على المذبح ، وبعد أن اطمأن على وضع الجسد بالطريقة المثلى دخل مُسرعا إلى حجرة الأسرار ليأتى ببعض الخل المعتق . انسحب جرجس إلى الركن ، ورمى يمامه عينه إلى الكوة مرة أخرى لعل الله يمنحه طلبه. أمسك إبراهيم بالكوب ووضعه فى الصفيحة بعد أن خفف الماء بالماء البارد ، ثم رمى الماء على جسد النائم ، فانزلق كله. لم يبق على الجسد ولو نقطة وحيدة .

أتى الأب بزجاجة الخل وأمر إبراهيم بالخروج ، فقال له الشماس:

- لا داعى ، فلقد تأكد بنفسه من خطيتى ، ووضع الماء على جسد مينا ولم يستقر ولو قطرة على جسده.

فتح إبراهيم فمه وتأكد له أن الشماس يرى كما قالت له أمه حين عاد إليها ذات مساء ، وأخبرها بما فعله مع البنت الجميلة عند إقامة العرس ، وكيف أن الشماس لكزه فى جنبه حين أشار لها بالخروج بعد أن لمسها ، ولمسته ، وتأجج شئ ما تحت سرواله ، وعندما هم بالخروج أمسكته يد الشماس وقال له بصوت هامس: لا تخرج الآن.

وضع الأب بعض قطرات الخل فى فم مينا وقال للعجوز ، لتسترح قليلا حتى يتخلل الخل الفم كله ، ودخل إلى حجرة الأسرار مرة أخرى.

بعد أن تمَّ الغسل لف الأب الجسد جيدا و أمر بإحضار الصندوق. الواقفون خارج المذبح دخلوا به ، ورفعوا الغطاء ، فرمى الأب بعض الزهور فى الصندوق ، ثم

خلع حذاءه ، ونزل فيه ، وقال لهم أنزلوا الغطاء عليّ ، ثم قال لإبراهيم آتنى بمطرقة ، خرج إبراهيم سريعا مع المعلم رياض خال مينا . أمسك الشماس بغطاء الصندوق وقاس بيده ارتفاع المسمار وأحس أنه القدر المناسب تماما حسب خبرته

عند ذلك قال الشماس لقداسة الأب:

خلا شرب. خطيئة لم يعمل ، فلم المسمار يا أبى؟

هل هو نسر ينقض إلى قنصه؟!

هو مستذنب ، فلم يتعب عبثا ، وتبقر بطنه دونى؟!

الماء فار منى ، وليس منه. لا تجعلنى أكره نفسى ، ولاتخسرنى بطن ابن امرأتى. لا أبالى بنفسى. رذلت حياتى. إنى شبعان هوانا ، وناظر مذلتى فلا تجدد شهودك تجاهى ، وتزيد غضبك علىّ. لا داعى للمسمار أيها الأب المقدس.

عند ذلك دمعت عينا إبراهيم الذى عاد فى نصف كلام الشماس وبيده المطرقة التى تركها وأمسك بغطاء الصندوق الثقيل ورفعه عاليا ، وتركه يسقط فى هدوء جوار المذبح وخرج ...

(٣)

تسعة عشر يوما مرت ، والشماس العجوز الذى تساقطت أسنانه تماما من لحظة أن أمسك بالمسمار المدبب وقال: ليت كربى وزنك ، ومصيبتى رفعت فى الموازين جميعها لأنها الآن أثقل من رمل البحر.

لم المسمار أيها الرب؟ ولماذا تغرس كل سهامك فىّ؟!

فهمنى فى أى شىء ضللت؟! وإلى متى تُشبع روحى قلقا؟!

ألك عين بشر؟ أم كنظر الإنسان تنظر؟

المطمئنون مهيئون لمن زلت قدماه ، وخيام المخربين مستريحة؟

افتح حنكك معى.

ويّخنى يارب .سمعا سمعت ، فلماذا تحجب وجهك ، وتحسبنى عدوا لك؟!

عند ذلك قال له الأب من أجل النائم وليس من أجلك أنت دعْ المسمار .

تسعة عشر يوما والشماس الذى لم يغب عن الخدمة من يوم أن حضر مع أبيه فى صباح يوم أحد ، وسمع الصغار يغنون بصوت جميل فقال لأبيه: دعنى هنا مع الأطفال ، فأدخله فى الخدمة ، ومن يومها لم يغب يوما واحدا ، يوما واحداً لم يغب على الإطلاق.

تسعة عشر يوما مرت وإبراهيم ذلك الشماس الجديد يحاول أن يكفر عن أخطائه فى حق الشماس القديم ، ولكن الشيطان يقف له ، فما إن يشرع فى عمل شيء صالح ، ويرهق نفسه كأنه كلب يصارع أرنبا بريا حتى تذهب جهوده هباء ، بدخول الشيطان الذى لا يقتضى منه ذلك إلا انتفاضة من ذيله.

تسعة عشر يوما مرت ومازالت امرأة الشماس تحاول أن تضع الخبز فى فمه ، فلا تستطيع ، فترطب جبينه بالماء فينتفض.

تسعة عشر يوما مرت ، وفراخ أم إبراهيم ذلك الشماس الجديد لا ينقص منها شيء ولو مجرد بيضة.

تسعة عشر يوما مرت ، والشماس القديم الذى اعتزل الخدمة ، وقلّد إبراهيم الصليب البلاستيكى يرى وجه ابنه فى الثانية عشرة تماما ، فيقول له:

أنا شبعان تعبا ، ونفدت مياه عينى ، وقلبى نشف وجف. ما الذى تعرفه ولا أعرفه؟

وماذا عندك وليس عندنا؟

هل من نهاية لروحى التى أفلتت وأيامي المنطفئة؟ أعضائى كالظل . إرث قلبى قد انتزع ، فلمن القبور إذن؟

تسعة عشر يوما ، والشماس ينتفض وينهنهه كلما لمس الماء جسده.

تسعة عشر يوما وامرأة الشماس تسأل المعزين المتعبين لمن تسيب شكواها؟

(٤)

حين دخل عليه الحجرة وجده فى غفوة على الكرسى الهزاز المصنوع من شجر البامبو فلم يشأ أن يوقظه واستدار عائداً ، وقبل أن يغلق الباب سمع صوت الأب بشاى يقول له:

- ماذا تريد يا جرجس؟

رد جرجس بصوت ضاحك

- هل أفاق سيدى؟

فابتسم الأب دون أن يرد عليه ، فأحس جرجس بغصة فى حلقه وقال له :

- هناك امرأة فى حجرة الاعتراف فهل أقول لها إن الأب يُقيِّل ؟

- من هى أيها الشماس ؟

- ليست من أبنائك لأن إبراهيم الصغير قال إنها ترتدى تنورة سوداء وغريبة عن البلدة.

- ليدخل عليها إبراهيم بعصير الليمون ريثما أُصلى ، وعليك أنت أن تخبر أن اللقاء تعارف وليس اعترافاً .

أغلق جرجس الباب بعد خروجه ، فوقف بشاى ليصلى ، وقبل أن ينتهى من صلاته ، سمع الباب يُفتح. حاول أن يُتم صلاته ، ولكن عين جرجس التى لم تر

الشمس من عامه الخامس أخرجته من صلاته بتلك التحركات المنتظمة والدقيقة ، فأنهى الصلاة وقال لجرجس :

- ألا تعرف أنى أصلى أيها الحَمَل الضّال ؟!

ارتعش جسد جرجس الضعيف وقال :

- السيدة تريد الاعتراف لا التعارف .

انتفض الأب بشاى وهو يقول :

- اذهب إليها ، وقل لها أن تذهب إلى أبيها ، لتعترف له. وإذا لم تجده ، فلتذهب إلى الشيطان أما أنا فلن أتلقّى منها أى اعتراف ولا تدخل على فى هذا اليوم مرة أخرى أيها المُخرِّف الأبله. وقبل أن يكمل جملته الشهيرة اذهب للجحيم وجد قدمى جرجس تهتزان ، ولا تستطيعان حمله ، فجرى إليه ، وأخذه فى حضنه وقال له :

- لا تغضب منى أيها الصديق أنت تعرف أننى كنت أصلى. ولا أحب أن أخرج من صلاتى حتى لو جاء نيافة الأنبا ذاته . ثلاثة وعشرون عامًا وأنت معى هل أغضبتك يومًا ؟ سامحنى أرجوك أيها العزيز. هل أبكى على كتفك أم أمُرّغ رأسى فى حضنك الدافئ حتى تغفر لى ؟

اختلطت دموع جرجس وابتسامته الطازجة وهو يقول :

- لقد نسينا تلك المرأة ذات التنورة السوداء والابتسامة العذبة ، كما يدعى إبراهيم الصغير فماذا أقول لها أيها السيد الكريم ؟

كان بشاى يعلم أنه بمجرد أن يقول أيها السيد الكريم ، فلقد غفر له خطيئته ، وفى الوقت نفسه يطلب منه شيئًا ، فضحك بشاى حتى ظهرت نواجذه وقال له:

- سوف أتقبل اعتراف تلك السيدة ، ولكن على أن يكون من وراء ستار.

فضحك جرجس وقال:

- ولكن أيها السيد الكريم .

ضربه بشاى على كتفه وقال :

ـ هذا شرطى أيها الشماس من وراء ستار. وليكن فى الغرفة الغربية حتى أستطيع أن أسمع صوتها جيداً.

خرج جرجس ، وهو يكاد يطير من الفرحة رغم أنه لا يعرف لتلك الفرحة التى سوف تؤرقه على مدار خمسة عشر عاماً سببا واضحا إلا حين يقابلها مرة أخرى حين تأتى مع القسيس مَتّى ، لكى تعترف لصديقه الطبيب "صموئيل" قبل موت ابنه الوحيد مينا بأسبوع واحد.

ما الذى فعلته تلك السيدة ، لتجعل جرجس يجرى كطائر البطريق ، ولماذا غضب هكذا من أجلها ؟ ظل ذلك السؤال يؤرق بشاى هو وأربعة أسئلة أخرى على مدار واحد وعشرين عاماً . منهم ستة أعوام كان ينام على سريره وحيداً بعد موت جرجس. أكمل ارتداء ملابسه وهو يفكر فى تلك السيدة . حين خرج وجد الراهب مَتّى يمشى فى الممر الضيق بين حجرة الدرس وصحن الكنيسة فنادى عليه وقال :

ـ عليك أن تأخذ اعتراف تلك السيدة التى فى الحجرة الغربية ، وإذا سألك الشماس ، من أمرك ؟ فقل له : إن الأب أصيب بذلك الربو المزمن الذى يقعده فى الفراش.

عاد إلى حجرته وهو يقول لنفسه عليك أن تعترف بذلك أمام المذبح أيها الأب الفاسد ، ثم ضرب الجرس فدخل إليه إبراهيم مسرعًا. أمره أن يحضر ذلك المزيج الذى يُحضَّر من النعناع وبذرة الكتان مع حبة البركة وأوراق الخروع لكى يستطيع أن يتخلص من نوبة الربو.

حين دخل متّى الحجرة الغربية ورأى "جرجس" بُعدُ الستارة قال له :

ـ إن الأب أمره أن يأخذ اعتراف تلك السيدة .

فتغير لون الشماس وانطلق مسرعًا إلى حجرة الأب. كيف يسمح لذلك الراهب الخبيث أن يتلقى اعتراف تلك السيدة التى لم تتجاوز الرابعة والعشرين كما صرحت له وهى التى تحملت تلك المسافة الطويلة لكى تعترف بين يديه .

قال"متّى" :

ـ أين السيدة التى تريد الاعتراف ؟

جاء صوت من وراء الستار مغلف بنبرة حزن وشوق للاعتراف. قالت المرأة :

ـ هنا يا أبتِ.

لم يتمالك نفسه ، وراح قلبه يرقص طرباً وهو يسمع هذا الصوت الجميل يقول يا أبتِ .

كان ما يزال فى الخامسة والثلاثين من عمره ومن يوم أن عمده عمه لم يسمع كلمة واحدة أسعدته . كان أبوه المعلم شكرى تاجر الغلال المعروف فى مدينة الباجور رجلاً كل همه النساء وسكران دائمًا ، ورفض أن يعمده ، فأخذه عمه إلى دير العريان ذلك الدير الوحيد الموجود فى محافظة المنوفية فى يوم ممطر وحاول مع القس أن يتمّ تعميده ولكن القس رفض . لا خوفًا على صحة الطفل ولكن رغبة فى الاحتفاظ بذلك الدفء المتولد من المدفأة الجالس أمامها. وبالكاد غمس يديه فى المذبح ومشى بها على رأس الطفل وأمر عمه أن يأتى به بعد شهر ، ولكن العم شُغل عنه ومن يومها إلى تلك اللحظة التى سمع فيها هذا الصوت الجميل يدعوه يا أبتِ لم يُعمّد. أفاق على حركات التململ التى يحدثها الكرسى الذى تجلس عليه صاحبة الصوت الذى أدخل إلى قلبه فرحة لم يرها قبل الآن .

كانت ماجدة التى تجلس على الكرسى وراء تلك الستارة السوداء قد قطعت ما يقرب من أربعمائة كيلو مترا من القاهرة إلى تلك البلدة النائمة فى حضن الجبل بمحافظة أسيوط من أجل أن ترى حبيبها الذى اختفى منذ ما يقرب من سبع سنوات وادّعى أحد الأصدقاء أنه رآه فى ذلك الدير.

هل السيدة جاهزة الآن للاعتراف ؟

ـ نعم أيها الأب .

ـ هيا الآن أيتها السيدة الجليلة قولى ما يؤرق صدرك وينام متحداً. مع ذلك الشيطان القذر .

وراحت تحكى عن ذلك الاعتراف الوهمى الذى تستشف به عطف الذى يسمعها ، ولكن"متّى" الذى كان يتلقى الاعتراف الأول له بعد ما يزيد عن أربع سنوات لم يتلق فيها اعترافًا واحداً وقف قائلا : لن أتلقى اعترافا وهميا ياسيدتى.

بعيدًا عن الحجرة الغربية

بعد دخول الراهب " متّى " الدير بسنة وثمانية أشهر أمره الأب بشاى أن يأخذ اعتراف بعض التائبين ، وحضر معه اللقاء الأول ، وراح يشرح له كيف يأخذ الاعتراف ، ومتى يتكلم ، ومتى يسكت . أفهمه كيف يعرف أن الاعتراف حقيقى أو مجرد اعتراف وهمى ، وتركه يبدأ فى تلقى الاعتراف دون مساعدة إلا من الشماس جرجس لكن"متّى" كان يتعجل دائمًا فى ترقى الكرسى ويحلم به ليل نهار وكان جرجس يعرفه جيداً ويعرف أحلامه . حدث ما جعل " متّى " يبعد وقتًا عن تلقى الاعترافات ، فلقد اعترف أحد المترددين على الدير بالسرقة . كان"متّى" لا يرى المعترف ؛ لأنه يعترف من وراء ستار طلب من جرجس الذى كان يجلس بجواره أن يأتى له بكوب عصير ، فخرج جرجس ، وعند ذلك وقف"متّى" وسحب الستارة قليلاً ليرى ذلك المعترف ، ولسوء حظه كانت عيون المعترف تنظر فى اتجاه " مَتّى " ، فتلاقت العينان. وعند ذلك جرى المعترف من وراء الستارة خارجًا من الحجرة ، واصطدم بـ جرجس الذى كان يحمل صينية عليها ثلاثة أكواب من عصير الليمون ؛ فسقطت على الأرض ، وهو لا يدرى سببًا لذلك. وبعدها بيومين سُرِق شيء من الدير ، وعند ذلك قال الراهب"متّى" فى أثناء إقامة صلاة الغفران :

ـ يوجد بيننا لص أيها الأب ، وأشار على ذلك الرجل الذى هرب من الحجرة الغربية ، ولسوء حظ"متّى"إن اللص الحقيقى اعترف بالسرقة ، فلم يجد الأب بشاى أمامه إلا أن أخذ القس"متّى" إلى الحجرة الغربية واستمع إليه ، ثم أمره أن لا يدخل

تلك الحجرة مرة أخرى طالما لم يحافظ على تعاليم الرب ، وفضح أمر من يعترف إليه . وهكذا ظل الراهب"متّى" بعيداً عن حجرة الاعتراف أكثر من أربع سنوات .

تحرك "متّى" وخبط بيديه على الترابيزة وقال لها:

- يجب عليك أن تعترفى أمام الرب جيداً. ثم راح يحدثها عن الرب الذى يعمل بكد وعرق من أجلنا نحن اللاهين بوقته الثمين.

ارتعش جسد ماجدة ولم تجد أمامها إلا الحقيقة. راحت تحكى له كل شيء. استمع لها حتى انتهت ، ثم سألها عن اسم مدينتها ، فأعطته عنوانها بالقاهرة . نادى على إبراهيم وأمره بإحضار البخور المقدس من حجرة الأب بشاى .

كان جرجس مازال يفكر فى انسحاب الأب"بشاى" من ذلك الاعتراف ، وإعطائه صلاحية تلقى الاعتراف مرة أخرى لذلك القس رغم أنه يعلم جيداً أن"متّى" هذا لا يصلح منظم عمال فكيف يأتمنه مرة أخرى على اعتراف تلك البنت التى قال عنها " إبراهيم " إنها تشبه أكثر ما تكون السيدة العذراء. بتلك العيون الجميلة ، لم ينتبه إلى دخول " إبراهيم " عليه ، وراح يحدث نفسه بتلك الأفكار بصوت سمعه إبراهيم ، فوقف ، وهو لا يدرى من الأمر شيئًا ولم يجد أمامه إلا أن قال للشماس:

- الأب"متّى" يسأل عن المَبخرة. انتفض جرجس حين سمع صوت إبراهيم يسأله عن المبخرة قال له إنها هناك حيث يجلس ذلك القس جوار الكرسى التى تجلس عليه تلك السيدة أو البنت التى تعترف إنها ، وعما قريب سيعرف كل الرهبان اعترافها من فم "متّى" ذاته مثل المرة السابقة . انسحب إبراهيم وهو لا يعرف من تلك الكلمات التى خرجت من فم الشماس غير اسم القس "متّى".

لا تلوم إلا نفسك أنت السبب فيما يحدث لك ياجرجس . دائمًا تضيع الفرصة ثم تقضم أصابعك ندمًا بعد ذلك. ألم يكن باستطاعتك أن تكون أنت القس الذى يتلقى ذلك الصوت الجميل. ألم يعهد إليك الأب بشاى بالدير فى غيابه. ألم يحاول أن يجعلك قساً جيداً منذ خمس سنوات حين تزوجت تريزة ؟ كيف أضعت تلك الفرصة ؟ ليلعنك الله يا تريزة أنت التى جعلتنى أرفض الطلوع إلى الجبل .

ـ يكفى هذا يا جرجس. هل تريد أن تصبح قسيساً ؟ ماذا تترك لصموئيل الطيب ؟ انظر إلى حالك. كيف تستطيع أن تجلس فى الشمس ستين يومًا فى تلك الأيام الحارة ؟ ولمن تترك ذلك الدير بعد أن أصبحت الشماس الوحيد ؟

ولمن تتركنى الآن وأنا حامل فى شهرى الثانى. حين سمع كلمات زوجته أطاح بما فى يديه وحاول الإمساك بها ، ولكنها كانت تحركت قليلاً عن مكانها ، وهو يطيح بعود السعف فى الهواء ، فأمسك بجسدها كله ، فأحس بالعمى للمرة الثالثة فى حياته الحافلة بخمس من تلك الحالات .

لمن تترك يدى حين تسيرنى فى الظلام

المرة الأولى التى أحس بها جرجس بالعمى كانت يوم دخوله إلى الدير ، يوم عيد السعف .لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة. جاء مع أبيه لكى يتلقى البركة على يد الأب بشاى أب دير الأنبا صموئيل المعترف ، فسمع الأطفال ينشدون أغانى الأم الحنون. طلب من أبيه أن يتركه فى ذلك الدير لكى يتعلم .

لحظتها تذكر الرجل ذلك الحلم الذى كان يراوده طيلة عمره ، أن يرى أحد أبنائه قسا فى الدير أو الكنيسة. لم يتمالك نفسه وهو يرى حلمه على وشك التحقيق دون مقدمات سابقة ، فبكى كما يجب لمسيحى مخلص أن يبكى. فى تلك اللحظة سحب جرجس يده من يد أبيه الممسكة به بغير ضمير. واتجه إلى داخل الدير ، وهو لا يعلم أن أمامه سلمًا يتكون من سبع درجات ، فوقع عليه. أصيب فى أنفه إصابة جعلته طول عمره الذى تجاوز الثلاثة والخمسين بتسعة أشهر وتسعة عشر يومًا لا يستطيع الجلوس فى الشمس أكثر من ساعتين دون أن يتساقط الدم من أنفه. المرة الثانية حين طلب منه الراهب "متىّ" بعد دخوله الدير ببضعة أشهر أن يأتى له بتعاليم الرسل ، لأنه يريد أن يكمله بعد أن تركه أمس فى مكانه حين أمرهما الأب بشاى أن يذهبا لكى يناما. فدخل جرجس إلى المكتبة ، وأمسك بالكتاب الخامس من جهة اليمين على الرف

التاسع أحس أنه ليس تعاليم الرسل ، ولكن صوت "متّى" الذى كان ينادى عليه أخرس تلك الوساوس التى عملت فى رأسه فأمسك بالكتاب وخرج إلى الراهب " متّى " الذى ما إن أمسك بالكتاب حتى قال لـ صموئيل ذلك الراهب الذى أتى قبل"متّى" بأحد عشر شهراً

- هذا هو تعاليم الرسل كما ترى . هل هذا الذى تحكى عنه أنه يعرف الكتاب من وزنه ورائحته. إنه أعمى ياصموئيل الطيب ويجب أن يعلم ذلك جيداً حتى لا يتدخل فيما لا يعنيه .

لحظة ذاك أحس جرجس أن الشيطان استمال "متّى" حتى امتطى ظهره.

المرة الثالثة تلك التى تحركت فيها تريزة للأمام ، وهو يرمى بعود السعف فى الهواء ، ليعلن لها فرحته بذلك القادم ، ولم يسمع وقع خطواتها الصغيرة على الأرض . أراد أن يمسك بيديها فقط ، لكن خطواتها خانت مقدار سمعه ، فأمسك بها كأنه يريد أن يحتضنها. ولم يكن هذا فى باله على الإطلاق . ارتعش جسد تريزة وأحست بالنار تتقد داخلها وتمنت أن يرتميا على الأرض معًا ، ويمارسا الحب أمام الأطفال الذين ما إن رأوا هذا الوضع الغريب ، حتى جروا إلى الباب ، ولكن جرجس أزاحها بيديه المبصرتين لما تريده تريزة. وفى المساء قال للأب بشاى لا داعى أن أطلع الجبل ، فانهزم قلب الأب ، وهو يسمع جرجس الذى أخذه من يد أبيه وهو ابن الثالثة عشرة حين دخل عليه فى الهيكل ، وهو يصلى ، فقطع صلاته على صرخات الأب التى تستغيث به وممسكة بذلك الغلام الذى تسيل الدماء من وجهه ولم يكن بالدورق الخاص بالماء قطرة فلم يجد أمامه إلا المغطس الذى يُعمِّد فيه الأطفال ، فأمسك برأس الغلام وحاول أن يرفعه بحركة واحدة ولكن جرجس الذى كان منشغلاً بالآلام الناتجة عن الجرح ، خشب قدميه فلم يجد الأب مفراً من أن يرفعه دفعة واحدة ، فوجد الغلام كاملاً داخل المغطس ، فضحك الأب وقال له : إن مناطق الحس لدى الغلام فى أذنيه فرد عليه الأب وقال له

- إنه أعمى يا سيدى. فبُهتت الضحكة على فم بشاى وقال:

- ليغفر لى يسوع ، وليمنحه قوته متى يحيا كواحد صحيح تماماً بلا خيبات .

وأخرجه من المذبح وهو يردد صلاة التعميد ، ولما وجده يرتعش سأل الأب عن ملابس لابنه ، فحكى له الأب أنه فى زيارة ، وسوف يعود فى المساء ، ولم يكن فى باله أن يحدث هذا وبكى.

دخل بشاى إلى حجرة جانبية وجاء بقميص وملاءة وخلع للغلام ملابسه وألبسه ذلك القميص الذى ما إن استقر على جسده الضئيل حتى انتاب الأب والقسيس بشاى" نوبة من الضحك لم يغفرها لهم جرجس . حتى إنه رفض أن يشارك فى حمل أبيه بعد تسعة عشر عاماً على هذه الواقعة ظناً منه أنه ضحك على هيئته الضعيفة رغم أن أباه شرح له كل شىء عن تلك الواقعة بعد مضى تسعة عشر عاماً حين زاره فى بيت الحاج رمضان ، وهو على فراش الموت فى يومه الأخير ، ونفى الأب أن يكون ضحكه فى هذا اليوم على هيئته ولكن على طول القميص الذى كان يوازى ستة أضعاف طوله ورغم ذلك رفض أن يشارك فى حمل أبيه ومشى فى هذا اليوم عائداً إلى الدير رغم إلحاح رمضان ودموع أمه التى تسبقه ريثما يأخذ بعزاء أبيه وحينما ركب العربة التويوتا متوجهاً إلى الدير فى الجانب الآخر ، أحس أن قلبه يكاد يتوقف من الحزن والألم ، فبكى بكاء عوضه عن تسع عشرة سنة من العذاب استمر فيها على اعتقاده أن أباه ضحك عليه وسخر منه .

حين وضع الشماس العجوز ساعتها صينية الأكل لجرجس وأبيه لم يستطع جرجس أن يأكل أى شىء لأن أنفه كانت تؤلمه كثيراً من أثر السقوط على الدرجات السبع ، فألبسه أبوه جلبابه بعد أن جففته الشمس التى لم ير شروقها قط . أمسكه من يديه لكى يرحلا إلى بينهما . رفض جرجس أن يمضى مع أبيه ، وبكى بكاء كثيراً من أجل أن يتركه هنا فى الدير لكى يتعلم. هدأ أبوه من بكائه وأخذ الأب بشاى فى جانب وراح يحدثه عن حلمه البعيد أن يرى أحد أبنائه قساً ، ولقد حان الوقت لتحقيق ذلك الحلم على يد ذلك الغلام الأعمى .

وافق الأب بشاى على تقبله فى الدير لكى يستطيع أن يحقق لذلك الأب حلمه ، ولكى يكفر عن خطئه حين لم يعرف أن عين ذلك الغلام عاطلة عن العمل بقلبه على الأقل .

سلم الأب على جرجس وطلب منه أن يستمع إلى كلام أبيه الجديد حتى يصبح ابن الله بحق ، ثم تركه عائداً إلى البلدة النائمة على الجانب الآخر من النيل ، وما كاد يدخل بيته ، حتى لطمت زوجته على فقد جرجس الابن الطيب بين أبنائها جميعًا ، الذى يساعدها فى البيت. لم تسكت عن النواح إلا بعد أن وعدها أبو جرجس بالذهاب إلى الدير يوم الأحد الأول من الشهر القادم.

المرة الرابعة التى أحس فيها بالعمى حين أكمل ابنه "مينا" الرابعة عشرة وأصبح إبراهيم الصغير مساعداً له. فأمر جرجس إبراهيم أن يأتى له بجرعة ماء وكان مينا يقف جوار يده اليمنى ، وهو يلقى بعظة الأحد ، فاتجه "مينا " إلى الجهة الأخرى جوار يده اليسرى حين رأى أن إبراهيم غاب كثيراً . وحين أحس جرجس أن أحداً جاء إلى جانبه الأيسر لكزه فى جنبه وقال له أين الماء يا إبراهيم ؟

فرد عليه مينا قائلاً :

ـ لم تأمرنى يا أبتِ ، فلم يستطع أن يكمل العظة ، وانسحب فى هدوء ، والمصلون يسألون فيما بينهم ماذا أصاب المقدس جرجس ؟

دخل إلى حجرته فى الدير التى ظل يحتفظ بها على مدار أربعين عامًا وتسعة أشهر رغم أنه بمجرد أن فكر فى الزواج من تريزة أسس له الأب بشاى بيتًا جوار الدير فى أرض المعلم رياض أخى تريزة .

وأخذ يبكى فى هدوء دون أن يعرف مينا أو صموئيل أو حتى تريزة التى جاءت له حين تأخر عن الرجوع لم تعلم أى شىء. غير أنه صرح للأب بشاى حين دخل عليه أن سبب بكائه هو مرضه الجديد ، فلما استفسر منه بشاى عن ذلك المرض. حكى له أن يسوع عوض بصره بأنفه ، ولكنه حين كان يتلو العظة ، لم يتعرف إلى رائحة ابنه ، ولكزه فى جانبه ظنًا منه أنه إبراهيم مساعده الصغير .

المرة الأخيرة حين أكمل الثلاثة والخمسين عامًا وتسعة أشهر ويومًا. ذلك اليوم الذى غسل فيه ابنه "مينا" الذى مات دون أن يدرى لذلك سببًا ، وجلس يبكى لأبيه الذى فى السموات من أجل أن يمنحه لحظة واحدة أن يرى فيها وجه ابنه النائم فوق الهيكل ، ولكنه لم ير شيئًا فأحس بالعمى نهائيًا.

حين ودع جرجس أباه أمسك بشاى يد الغلام ودخل إلى حجرته وقال له :

ـ عليك أن تتعرف بيديك على حجرتك أيها الابن الصالح.

وتركه فى الحجرة الواسعة وخرج. كانت الحجرة عبارة عن بهو كبير به أسرة بأعمدة نحاسية ، وناموسية وبجوار كل سرير صحارة مصنوعة من خشب الأشجار وعليها قفل صغير وفى ركن الحجرة امتدت مصطبة للجلوس ومنضدة للطعام ، تُستعمل كمذبح ومغسل فى الوقت نفسه . وفوق الطاولة عُلِّق صليب وحيد على الجدار ، وجواره صورة للعذراء. لم يجد أى تعب فى التعرف إلى بيته الجديد ، مشى كثيراً فى الحجرة ، ليقيس المسافات بين الأشياء حتى لا يقع مثلما حدث له فى الصباح.

دخل الأب بشاى يحمل صينية موضوع عليها طبق حساء العدس ورغيفان مقددان وبرتقالتان وقال له :

ـ ما بال الشماس الصغير لا يستقر فى مكان أم أن البيت لا يعجبك ؟

فقال جرجس :

ـ انتظر يومين فقط يا أبتِ ، وسوف ترى أننى أحفظ المكان فى يدى ، ضحك بشاى وهو يقول :

ـ أعرف يا بنى أنك جد جميل ، ثم أجلسه على حافة المصطبة المعدة لذلك. بعد أن وضع صينية الأكل على المنضدة . كانت حافة المصطبة مفروشة بحرام من صوف الأغنام الخشن ، فوقف جرجس مذعوراً وهو يقول:

ـ لماذا تختبرنى من الآن يا أبتِ ؟ انتظر وسوف ترى أننى سأكون عند حسن ظنك فقال له الأب:

- إن هذا الوبر الذى اشتكيت منه هو قميصى الداخلى منذ ما يقرب من أحد عشر عامًا.

فأمسك جرجس بالحرام الصوف ، فأحس بقشعريرة فى يده ، فلم يتركه ، وضغط عليه . حين ذلك أمسك بشاى بيد جرجس وقال له :

- ليس اليوم أيها الابن ، ليكن فى الصباح ، فهناك متسع لنا أما الآن فلتضع فى حنك الشيطان حذاءك ، ولتبدأ الصلاة المسائية ، ثم راح يتلو الصلاة بصوت عال حتى يستطيع جرجس أن يردد وراءه ، ولكنه بُهت حين سمع صوت جرجس الضعيف ، وهو يتلو الصلاة دون أن ينتظر أن يسمعها من فمه ، ففتح فمه وهو ينظر فى عين جرجس الساكنة ثم نظر إلى الصليب المعلق على الحائط وجواره صورة العذراء ، وراح يدعو لجرجس بصوت عال ناسيًا الصلاة ، ثم قرب الطعام ، وأمسك بيد جرجس وأشار له على طبق العدس والخبز وتركه يقوم بالمحاولة الأولى التى كانت تُمارس فى تردد واضح .

المحاولة الأولى

عندما جاء ذلك المشهد فى الرواية وقفت قليلاً استرجع كل الصور التى مرت علىّ ، وأنا أشاهد بعض العميان فى أثناء الطعام. كانت هناك ظاهرة شبه موجودة بينهم جميعًا وهى التعرف إلى وضع الطعام بمجرد لمسة خفيفة لكل الأطباق.قياس المسافة بين الأطباق بفرد كف اليد. إمساك الخبز بطريقة جعلتنى أرتاب فيهم جميعًا ، واسمحوا لى أن أشرحها بالتفصيل . يُمسك اللقمة ويزيحها بأطراف أصابعه حتى تبدو غائبة تمامًا من الصورة ، ثم ينزل بأصابعه على الطبق وحين يتأكد أن إصبعه لامس الطعام يزيح اللقمة بإصبعه الصغير ، لتلامس الطعام ، ثم يأخذ طريقه إلى فمه ، وعندما اقتربت جدًا من أحدهم كاتمًا أنفاسى حتى لا يحس أننى أتلصص عليهم ورغم أنه أحس بى بمجرد القرب ، لأنه نظر فى اتجاهى ، لكنه لم يتكلم ، ثم راح يُكمل الأكل عندما قربت عيناى فاجأنى ذلك الشىء العبقرى أن طرف أصابعه لم يكن عالقًا

به أى طعام وعندما تأكد لى ذلك رحت أضرب كفًا بكف. حاولت أن أعرف تلك اللعبة الجهنمية كما أسميها فى نفسى وعرفت تلك الطريقة السحرية . حين يلمس بيده وجه الطعام يكون عالقًا بالأصبع بعضًا منه ، لكنه حين يزيح اللقمة من كفه ، لتسقط فى الطعام دون الغوص يمسح ذلك الإصبع فى اللقمة. هكذا اكتشفت أن هناك طقسًا وبروتوكولاً للطعام عندهم. تكون المحاولة الأولى مع الطبق الواحد متأنيةً جداً ، ثم تكون الحركة شبه آلية فى المحاولات الأُخر. الشىء اللافت لنظرى أننى حين حاولت مع "جرجس" إظهار ذلك كان الأمر يبدو لى ثرثرة كتابة ومن أجل ذلك أرحت نفسى من ذلك الطقس العبقرى واكتفيت بالإشارة فقط.

ثم أصبح جرجس يعمل كآلة مبرمجة تماماً. بعد أن شبع ، وقف ومشى بخطوات منتظمة إلى المذبح . رفع الغطاء بيد وأدخل الأخرى. بلل يده ومسح بها فمه ووجهه ، ثم عاد ، فأعطاه الأب برتقالة . أمسك بها ، وتشممها جيداً ثم وضعها على الصينية. أراد بشاى أن يسأله عن سر تلك الفعلة ، لكنه استكان تماما ، ولم يعد تنفسه يُسمع حتى ظن الأب بشاى أنه نائم ، فوقف ، وانسحب بجسده إلى قلايته. ابتدأ القراءة فى الإنجيل. كانت الحجرة كالفرن من أثر حر اليوم والهواء الساخن يشخب تياراً من اللهب تكاد عينا جرجس أن تراه من إحساسه به ، والحشرات الصغيرة والهوام تحاول ممارسة عملها بكد وتعب ودأب ، لتمر من جلبابه المصنوع من الكتان ، ويغطى كل أنحاء جسده الضئيل ذى الوجه الضيق الأجرد الذى برزت عظامه. تململ جرجس فى جلسته التى طالت ، ورأسه الذى يكاد أن ينفجر من الألم والأفكار ، فلم يجد أمامه إلا الذهاب بأفكاره إلى البلد الذى كان به بالأمس. تلك البلدة التى لن يذهب إليها طيلة حياته فى الدير والتى تجاوزت الأربعين عاماً بتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً غير ثلاث مرات ، ولكنها سوف تظل تؤرقه فى أحلامه حتى سن التاسعة والعشرين. تلك البلدة التى تنام على الجانب الأخر للنيل ولا يفصلها عن الدير إلا ساعة ونصف فى العربة التويوتا ونصفها فى المركب. تذكر تلك الساعات الآن هناك حيث يجلس الحاج رمضان وحوله أصدقاؤه الأستاذ محمد مدرس الحساب وشيخ الخفر ذلك الرجل الجهم الذى لم يعرف اسمه طيلة ثلاثة عشر عاماً وأبو جرجس عامل مزرعة الحاج

رمضـان وبدوى أفندى خولى الأنفار والمقدس عـوض دكـتور الناحية ، وسـبب ضيـا ع الأمل الأخـيـر لأن يرى جرجس الشـمس ولو مـرة واحـدة فى حـيـاته . كانوا كلهم الآن ملتفون حول شـجرة الكافور. يتـحدثون فى كل شىء بداية من الزراعة وانتـهاء بحـال حكومـة الوفد وابن ستـوته العـايقـة يمـر بينهـم بأكواب الشـاى الحـبـر ويداعب مـحـمد أفندى مدرس الحساب بالمدرسة الوحيدة التى تنام جوار النيل تماماً ويقول له :

- مرحب بيك فى الدور الأول يا أستاذ.

فيضـج الجالسون بالضـحك ، ويأتى صـوت الحـاج رمضـان رائقًا وحنونًا ، وهو يقول لـه :

- طلع الأستاذ من دماغك يا ابن الكلب .

فـيمـسك ابن سـتـوته بالكوب المرسـوم عليـه أبو زيـد الهلالى ، ويهـرول فى اتجـاه الحاج رمضان الذى ما إن يقول تلك الجملة حتى يبدأ فى لمِّ جلبابه الأبيض ، حتى لا يقع كـوب الشـاى عليـه مـثل أيامـا كـثيـرة يسـهـو للحظة ، فيحس حرارة الشـاى على أفخـاذه الممتلئـة باللحم ويجـد ابن ستوته فى حضنه للحظة وحيدة قبل أن تكون يد شيخ الخـفـر العـريضـة قـد أمـسكت بطوق جلبابه الذى لم يعد له لون ، فـيبدو كـفـأر صـغير يُمسك به عمـلاق. حين ذاك ينسى الحـاج رمضـان ألم الأفخـاذ ، ويأمـر شـيخ الخـفر أن يتـركه. يسـقط من يد شيخ الخفر على أقدام الحاج ويمسك بهـا و يقبلهـا ، فيسحبـه بدوى أفندى من قدمـيه ، وهو متـشبث بأقـدام الحـاج ، وفمـه لا يكف عن الدعاء له ، وفضح بدوى أفندى خولى الأنفار الذى يسافر فى الأسبوع مرتين ، ليأتى بالبنـات ثم يمسك بمؤخرتهن فى العربة ، ويكون حين ذلك قـد وضـع العطر الرخـيص الذى أخذه من ستوته العايقة على الحساب أو بالدفع من المال الذى خصمه من البنات أولاد الأصل اللواتى يرفضن طباعه السيئـة ، ويفضـحنه أمـام ابن سـتـوته وعند ذلك يكيل له بدوى أفندى الصفعات على قدميه بكل غل . يضحك الحاج رمضان وهو يردد :

- سيبه يا بدوى قوم فز يا ابن الكلب داير تلسن على كل الناس اقعد جنب الراكية".

يتجه إلى الزاوية البعيدة عن الجلسة ، فيبدو ككلب أصابه الجرب ، ويحاول بدوى القيام من الجلسة ، فيأتى صوت الدكتورعوض مذكرًا إياه أن البنت العمشة لن تأتى له اليوم ، فتضج الجلسة بالضحك ويرد عليه بدوى بكلمات مهشمة تزيد الضحك أكثر ما تدل على شىء ، فينهى كلامه بجملة معروفة لدى هذه الجلسة " حتى أنت يا دكتور الغبرة " وما إن يقولها حتى يكون أبو جرجس قد نط من مكانه قائلاً له :

- ما تسكت يا زفت أفندى أحسن أضربك بالجزمة.

تطرق الرءوس جميعًا إلا رأس الحاج رمضان الذى يأخذ نفسًا عميقًا ويقول بمودة:

- اقعد يا مقدس واخزِ الشيطان بدوى أفندى بيضحك ، وبعدين إحنا عارفين كلنا إن دى إشاعات علشان الراجل لغاية دلوقتى ماسك نفسه ومتحناش لِمَرَة .

ترفع الرءوس الممتلئة بالمحبة والود لهذا العراك شبه الدورى وحين ذلك ينظرون إلى الاتجاه الآخر حيث راكية النار و ابن ستوتة الذى بدأ يتسحب ممسكًا بيده اليمنى براد الشاى أبو نعناع حسب طبيعة الدور الثانى ، فيمسك بدوى أفندى فردة حذاء ويرميها بقسوة فى اتجاه وجه ابن ستوته الذى يتفاداها دائمًا ، فيهللون ويكبرون لله جميعًا ويدعى محمد أفندى مدرس الحساب أن ابن ستوته برئ براءة الديب من دم ابن ... ثم يكتم ضحكته بالعافية ، وهو يتجه بوجهه إلى بدوى أفندى ويقول له إلا قولى يا بدوى أفندى أمك أسمها إيه؟ فيجرى ابن ستوتة وهو يمسك ببراد الشاى أبو نعناع ويقف فى وسط الجلسة أمام سجادة الحاج رمضان ذات الشراشيب الذهبية ورسم الكعبة الشريفة وحجر إسماعيل ويرقص مقلدًا زنوبة الغازية التى تزور القرية فى كل مولد والصحاب يصفقون بأيديهم فى حرارة وتتلألأ مسبحة الحاج رمضان وهى نائمة على كوعه عند ذلك يقف بدوى أفندى مذعورًا وعلى فمه رغاوى

ويقول قعده كبيرها يصفق لأبن ستوته العايقة والله ما أقعد فيها، ويمضى دون أن يسمع صوت الحاج رمضان وهو ينادى عليه ولا يعود محمد أفندى الذى يأمره الحاج أن يعود به ، ويظل بعيداً عن الجلسة حتى يذهب إليه الحاج رمضان فى بيته وعند تلك اللحظة يكون الكلوب المعلق فى أعلى الشجرة قد بدا يتراقص من أثر الهواء فينادى الحاج رمضان على أبن ستوتة ويأمره أن يعلق الكلوب الآخر ولكنهم يبدءون فى الأستئذان لانشغالهم فى الصباح فيعزم عليهم الحاج رمضان دون ضمير ولكنهم من لهجة صوته يصممون على الرحيل ويكون آخر الواقفين أبو جرجس الذى يجلس جواره دائمًا دون أى حركة يستمع إلى تعليقات أبيه التى تصف كل شىء بصوت هامس ؛ فيربت الحاج على رأس جرجس الذى يحاول أن يقبل يديه ؛ فيسحبها الحاج داعيًا له بالصحة والسعادة فى الأيام القلائل التى يستمر فيها مجلس السمر كما تسميه أم جرجس إلى ما قبل الفجر يقف الحاج رمضان ، ويرفع أبن ستوته ، على كتفه ليغير الكلوب ويحاول كل الجالسين أن يرفعوا هم أبن ستوتة ، ولكنه يرفض وعندما يهم أن يقف ليغير الكلوب للمرة الثالثة يقسم بدوى أفندى على حمل ابن ستوتة الذى ما أن يسمع القسم حتى ينشرح صدره ويقف على كتف بدوى أفندى الذى يؤنب نفسه على انسحاب لسانه من حنكه وسرعة ضرب اليمين الذى كثيراً ما أوقعه فى أزمات مع البنات اللواتى يأتى بهن من القرى المجاورة ويغريهن تحت أشجار النخيل ويظل يراوغ فيهن وحين ذلك يرتفع صوت الحاج وهو يأمر أبن ستوتة الكلب أن يبطل طول لسان على أسياده فيجثوا أبن ستوته على قدمى الحاج ويرح يقبلهما فيمشى الحاج بيده على رأس أبن ستوته وهو يقول له:

- يا ابن الكلب أنت مش عاوز تعقل شوية . والله إن ما بطلت اللى بتعمله لا أنا مجوز البت زينب لواحد غيرك . كانوا كلهم مشاركين فى تلك الخدعة التى تجعل ابن ستوتة ذلك الولد أبو لسان زالف وديع ومسكين . كل منهم يعلم أن إسماعيل الجبرى لن يزوج أبنته الجميلة التى سترث منه أكثر من سبعة فدادين وبيتا تنام فيه جاموسة وبقرتين وحصان يعزم على حسه إسماعيل الجبرى لكل النجوع لكى يرقص فى الأفراح بخلاف جميع أنواع الطيور. فكيف يمنح إسماعيل الجبرى كل هذه الأشياء

لابن ستوته ذلك الغريب ابن المرأة العايقة التى حضرت فى الصباح وعلى ذراعها طفل ينام على وجهه أكثر من مائتى نبابة وأخذها إبراهيم البغدادى فى بيته وأتى لها ببعض الأثواب الحريمى والعطور والكحل لتتاجر بهم واستطاعت بعد شهرين فقط أن تفوز بثقة كل نساء النجع وفوق ذلك فازت بإبراهيم ذاته ، وراحت تشارك فى كل كبيرة وصغيرة تخص النساء وأصبح الرجال يألفون وجودها فى بيوتهم ، ويضحكن معها وكانت تصلح كثيراً من المشاكل وتعيد علاقات تم بترها منذ زمن بين الأزواج ، أصبح الولد يعرف كل نساء النجع وعرف بابن ستوته وتعلم معرفة الأسرار ، ولكنه لم يكن مثل أمه فى كتمان تلك الأسرار حتى أسراره هو عرفها كل الناس ومن هنا عرف هيامه بـ زينب وعشقه لها ، وكانت النساء تضحك عليه بذلك الاسم .

أفاق جرجس على صوت أذان الفجر من الجامع القريب من الدير ؛ فأحس بيده المخنولة فأراحها جواره ، ونزل بجسده من على الحائط ، واستراح فى نومه. لم يحس بالأب "بشاى" حين دخل عليه . أفاق على صوت الأب بشاى وهو يقول:

"يوم جميل فى انتظارك أيها الابن ، انسحب للوراء وهو يجلس:

- لماذا لم تنم على أحد السريرين ؟ "

- يسعد الرب سيدى ويتم نور قلبه .

كان جرجس يسمع هذا الدعاء من أمه حين يستيقظ أبوه . ضحك بشاى وهو يحاول التغلب على مشاعره الفياضة لذلك الدعاء الجميل الذى يسمعه لأول مرة .

- هل نمت جيداً أم أن أحلام البلدة أرقتك ؟

للوهلة الأولى ظن جرجس أن الأب بشاى دخل عليه فى الليل ، ولكنه على مدار أربعين عاماً وتسعة شهور ويوما أيقن تماماً أن الأب بشاى ابن الله المخلص ، وأنه ليس بحاجة ليدخل عليه ، وهو نائم حتى يشعر أنه ظل أسيرا لأحلام وهواجس البلدة فى تلك الليلة . حين حضر الراهب عادل الذى تم تسميته بـ صموئيل قال لـ جرجس

في المساء:

ـ ليكن قلبك على استعداد لتلقى ذلك الراهب .

وبعدها بخمس شهور جاء منير الذى طلب من الأب أن يسمي بيشوى فرفض الأب وقال له:

ـ لتكن"متّى" وبعد أن خرج قال لجرجس :

ـ احذر هذا الراهب ؛ فلقد أطعمه الشيطان دهن الأفاعى ، ولتعرف مكان قدميك معه ، فإنه لن يساندك من تحت إبطك ولن ينتشلك إن نزلت قدماك فى الوحل.

ولم يكن جرجس يعلم حين ذلك أن مصير"متى" مرتبط بوجود صموئيل فى الدير ووجوده فى الحياة .

آه .. يا جرجس هل نمت مرة أخرى أم رجعت إلى بيتك هناك حيث الجانب الآخر للنيل ؟ أمامك عمل طويل يجب عليك أن تتعرف على كل طوبة فى الدير ذلك لازم يا جرجس ، حتى لا تزل قدماك مرة أخرى ، ولتعلم يابنى إننا نعيش وكأننا فى الحكايات الخرافية ، وفى انتظار الأحداث الدامية التى تملأ جميع الأساطير ، لكن مهما بلغتْ فوضى تعاقب الأحداث ، ثَمّة ـ دائمًا ـ فترات فاصلة ، تُوجدُ من تلقاء ذاتها ، لنتحدث فيها مع أنفسنا.

مازال هناك دائما أمامك وقتٌ ، ليس فقط للتأمل ، بل للتعلّم والكشف عما هو منسيٌ ومدفونٌ داخلنا ، وعندئذ بمقدورنا أنْ نتخيل المستقبل ، والآن هيا بنا إلى الهيكل. يجب علينا أن نحضر قداس الصباح بعد نصف ساعة من الآن. وأمسك بيده وخرج إلى الممر . ثم قال له بصوت ملأ قلب جرجس بفرح وأمل وأشياء كثيرة لم يعلمها بعد ، :

هذا الممر طويل جداً بطول مائة وثلاثة وخمسين خطوة من خطواتى. ثم نزل على ركبه حتى يستطيع أن يمنح جرجس الخطوة الصحيحة وعدل جلبابه عليه وشد من

الأسفل ثم رفعه حتى ركبته وأمره بالمشى طول اتساع الجلباب ، فعل جرجس ما أمره به ثم وقف.ابتسم الأب وهو يرى سمك ساق جرجس الذى يشبه إلى حد بعيد ساق حمل ضال ترك القطيع ولم يعد له ما يعطيه طعام.وقف ونفض جلبابه وأكمل المسير حتى انتهيا من الممر ، وكان يتابع فم جرجس الذى يتحرك وكأنه يحسب المسافة .وقف أمام ثلاث درجات وقال له :

ـ أمامك ثلاث درجات ، عرض الدرجة الواحدة بمقدار ما تستطيع أن تفرد قدميك على ذيل هذا الجلباب الضيق الذى ترتديه ، أو لنقل أقل قليلاً أى بمقدار أن ترفع هذا الثوب حتى قصبة القدم مثلما فعلنا بالداخل.

هز جرجس رأسه علامة الفهم ، وترك يد الأب ، ونزل الدرجات بهدوء ويسر مما جعل الأب يبتسم على ذلك الابن الذى حلم به قبل حضوره بخمسة عشر عاما .كان يعرف أن الأب الإله يُعوِّض الأعمى بالحدس أو البديهية ، ويسميها رجال الله أداة الغوص ، إنها البلورة التى يمنحها الله للأعمى كى يستطيع الغوص فى الليل الدائم.

ـ آه . نسيت لقد حضرّت لك مرهمًا لكى تعالج ذلك الورم الذى يؤلمك.أخرج الحُقَّ الصغير الذى سوف يظل محتفظا به فى حجرة الأسرار دون أن ينتبه إليه إلا يوم دفن ابنه ميتا حين يرى حروق يديه من أثر فوران ماء غسل ابنه ، ومشى بيده على أنف جرجس الذى راحت عيونه تغلق وتفتح بطريقة جعلت الأب يتابعها بشغف ، وكأنه يتابع بندول ساعة مضبوطة ، ثم قال له:

ـ أقول لكَ ياجرجس ، إنْ تلف المحصول ، فعليك أن تنثر البذور من جديدٍ وفى الحال ، لأننا حينما لا نقدر على النموِّ علينا أنْ نُواصل الحياة ، حتى نقدر على النموِّ مرةً أخرى ، بل أقول لكَ : علينا أنْ نرسم الأبواب إذا لم تكنْ موجودةً ، على جسورنا السرية التى نصنعها داخل الروح ، لتكون معابرنا حتى تستقيم وتظهر تحت خطونا ، ونمرُّ من خلالها إلى طرقٍ جديدةٍ وحيواتٍ فى الانتظار.

كانت الكلمات تخرج من فم الأب ، لتدخل إلى قلب جرجس ، وتستقر فيه دون أن

يعرف لها معنى واضحا إلا أنه فى مساءات قادمة كثيرة عرف معنى كل كلمة . وقف الأب بعد أن وضع الحُقَّ الصغير فى جيبه ، ثم أشار بيده للبعيد ، وقال لجرجس الذى أحس بملمس فراشات حارقة فى أنفه :

ـ هذا هو حوش الدير ، ليُنير الرب قلبك فتراه كما لم أره ، أعلم أن بيديك سيصبح أفضل كثيرا. مساحته مقدار ما تمشى ذلك المر ثلاث مرات وعرضه مثل طوله. لا داعى لأن تضع يديك على أنفك . دع الهواء ينفذ داخلها واعلم أن الجراح تستمر إذا استمرت فى رأسك . اتركه يؤلك ساعة ، فيضيع ثلاثة وعشرين ساعة . أمامك على بعد ثلاث خطوات سلم ، طوله سبع درجات. هلا منحتنى يديك . تذكر ، سبع درجات اعرض قليلاً من تلك الدرجات الثلاث ، هناك أشجار للصفصاف والجزورين والسرو. رائحتها لا شك جاءتك. فى هذا المر ستة أبواب ، ثلاثة على اليمين ومثلها على اليسار ، ما بين الباب والآخر ثلاث عشرة خطوة . سوف أفتحها لك جميعًا أما الأولى ، فهى للزيارة ، والثانية حجرة أب الدير ، والثالثة للمكتبة أما جهة الشمال فالأولى للرهبان والثانية لتناول الأسرار ، والأخيرة للاعتراف وتذكر جيداً أن الشاه تعجف الجلد الواحد مائة مرة. فما بالك بالإنسان الذى يمشى فى أوحال كثيرة. ينتهى هذا المر بباب له ضلفتان ومنه ندخل إلى صحن الكنيسة.

أمسك بشاى بيد جرجس ودخل الهيكل ، بدا جرجس فى عيون المصليين بوضعه الغريب وجلبابه المكرمش والمبروم من عند ذيله ابنًا للخطيئة أو شحاذًا تمَّ العثور عليه، وسوف تكون عظة الصباح ـ لا ريب ـ عنه وعن حاله ، وسوف يأمر الأب المصلين بالتبرع له.

حين ذلك انسحب المعلم رياض إلى الصف الثانى ، وأدار ظهره للهيكل ، ثم أخفى الجنيهات الورقية ، وترك الفضة ثم عاد إلى مكانه . رفع الأب بشاى يده للشماس الذى أمسك الحبل المتدلى من سقف الكنيسة وأرخاه بضع مرات معلنًا من خلال صوت الجرس بدء الصلاة حين ذلك نطَّ جرجس من على الأرض بمجرد أن سمع وقع صوت الجرس ، فأمسك بيده الأب بشاى ، ومشى على رأسه حتى يطمئنه.

كانت هذه أول مرة يسمع فيها صوت الجرس عن قرب وظل يؤرقه ذلك الصوت على مدار سبع سنوات حتى استطاع أن يقنع الأب بشاى أن يكون صوت الجرس لصلاة الصبح هادئًا وضعيفًا ، ثم يعلو فى المساء .

أعاد المعلم رياض تلك الجنيهات التى دسها فى جيب صديريته إلى جيبه الأمامى حين خرج من صحن الكنيسة ، لم يكن الأب قد فكر فى إقامة صلاة قربان ، ولكنه حين وجد بين يديه بعض الخبز استأذن المصلين أن يقيم صلاة قربان ، فحمل الشماس العجوز الخبز من يد الأب وتركه على الهيكل وعند ذلك غادر باقى المصلين صحن الكنيسة. ولم يبق إلا الرهبان الخمسة الذين طلعوا إلى جوار الهيكل بمجرد أن أشار الأب لهم ، وابتدأ الأب فى الصلاة ، ثم قطع الذبيحة إلى أقسام صغيرة ودفنها فى أفواه الرهبان ، ثم دس الجزء الكبير فى فم "جرجس" دون أن يتناول منه شيئا ، والرهبان ينظرون باتجاهه ، ثم نكّسوا رءوسهم .

أمر الأب بشاى الشماس أن يدخل حجرته ، ويأتى بحافظة نقوده من المكتب ريثما يتعرف الشماس الصغير على المكان ، ثم اتجه بنظره إلى الرهبان وقال :

- عليكم أنتم أيها الإخوان الأحباب أن تجهزوا إفطاراً جيداً من أجل ذلك الشماس الصغير الذى نشف قفصه الصدرى ، واستحال اللحم أن ينبت عليه قبل أن يأكل من أيديكم على الأقل مائة وثلاثة وأربعين يوما بالتمام والكمال. شريطة أن تبتعدوا عن حياة الرهبنة فى هذا الطعام ، ضحكوا جميعاً. كان كل ركن فى الفناء المربع الشكل الذى يزيد مساحته عن الفدان الواحد يحتاج إلى أيام كى يمشى فيه جرجس دون أن تزل قدماه .

دخل الشماس وهو يلهث وأعطى للأب حافظة نقوده ، أمسك بها الأب ، ثم فتحها ، ومنحه بعض المال ، وقال له فى أذنه أشياء لم يتبينها جرجس . خرج مسرعًا والأب يردد عليه :

- على أن يكون اثنى عشر شبرا ، أو على الأقل عشرة أشبار ذلك لازم أيها الشماس ، ثم أمسك بيد جرجس الذى كان يستمع إلى صوت الأب بشاى ، وهو يتساءل ماذا وراء العشرة أشبار وقال له :

ـ هذا هو صحن الكنيسة كما يُسمى ، به تِسْعُ عشرة دكة ، تَسَعُ الدكة الواحدة عشرين فرداً ، ثم سياج من الحديد ملئ بالصلبان الصغيرة ، ثم خمس دكك فقط للنساء ، وبينهم ممر ضيق ، غير مسموح أن يمر به أحد أثناء الصلاة . هذا الممر مخصص للكاهن الذى يمسك الصلاة فقط حين يمر بين الصفوف ، وهو يحمل المبخرة لكى يصيب الدخان كل الحاضرين. فى أعلى الحائط صورة كبيرة للمسيح ، ويجلس جواره الحواريون الاثنا عشر والسيدة العذراء ، ويوسف النجار على يمينه. رسم هذه اللوحة الأنبا " حزقيال " الذى استمر تسعة وعشرين عاماً داخل الدير لم يستطع خلالها أن يكمل جملة واحدة باللغة العربية ، وعندما أتمَّ الرسم خرج فى اليوم نفسه إلى بلاده ، ولكن أب الدير فى ذلك الوقت طلب منه أن ينام هذا اليوم فى قلايته كنوع من رد الجميل ، فنام وعند الفجر رأى فى المنام المسيح يعطى له فرشاة ، ليرسم بها كنيسة العذراء فى محافظة المنيا ، فأمسك بها من يديه ، وخرج من باب القلاية ووجد أب الدير يقف أمامه وفى يده فرشاة أخرى وقال له:

ـ عليك أن ترسم كنيسة مارى جرجس فى الملك الصالح بعد أن ترسم كنيسة العذراء ، وعندما أراد أن يسأله كيف عرف كان الأب يرتفع عن الأرض حتى اختفى تماماً. حين ذلك تأكد لـ " حزقيال " أن المسيح هو الذى أعطاه الفرشاة ، فأغمض عينيه قليلاً ، وعندما فتحهما وجد أب الدير يخرج من قلاية الرهبان ، فأراد أن يحكى له ، ولكنه حين فتح فمه وجد الأب يحكى له كل شىء ، فسلَّم عليه ، ومضى إلى حيث كنيسة العذراء فى المنيا.

أمسك الأب بشاى بيد جرجس وهو يقول له:

ـ إن مكان الهيكل يرتفع عن الصالة بمقدار أربع سلمات ، مفروش عليها شريط من السجاد لم يعد له لون من أثر الأقدام التى مشت عليه وهذا هو الهيكل الذى كنت أقف أمامه ، حين أُقيمت الصلاة وهو عبارة عن صالة مبطنة أرضيتها بالخشب الأرو ولها قبة ذات تاج كروى الشكل يلقى ظلاً ليس فيه بقعة شمس وحيدة ، وفى الوسط حوض كبير ، عرضه متران وطوله ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات ، وفوقه طاولة

خشبية لصلاة الجنازة. وهذا الهيكل هو ثانى هيكل من حيث التبارك . أسفله دُفن ثلاثة من الرهبان السواح الذى جاء أمر ربنا بدفنهم تحته. وخمسة من الأساقفة العظام ، وبنت عذراء ماتت دون الثالثة عشرة ، كانت جدائل شعرها تضفر فى يومين بليلتهما ، نذرها أبوها للدير ، وهى دون الخامسة ، وكانت تُكلم المسيح كل يوم على مدار سبع سنوات ، وأصبحت على مدار الأيام تسمى" مارية القبطية" وراحت تشفى أمراضًا كثيرة ، وهى صاحبة عين الماء - التى سوف أسقيك منها - تحت شجرة الجزورين التى تقف جوار حائط الدير الخارجى ، وهى التى ذهبت إلى النيل حين جف ماؤه وانتشرت الأمراض والطاعون بين الحيوانات ، وأصبح يهدد كل النائمين على جانبى النيل ، فخرجت مارية بعد أن جاءها رجل يحمل فوق جلبابه تسعة صلبان خشبية ، وهى التى رفضت الخروج لـ "محمد على الكبير" بذاته وخرجت مع ذلك الرجل الذى كان يبدو متسولاً ووقفت أمام النيل ، وأمرته أن يأتى بمائه الأصيل حتى يشفى الإنسان والحيوان ، فانبجس الماء من النيل ، وكان لونه أصفر بعض الشيء ، فغمست يديها فيه ، ورمت ما حملته يداها مرة أخرى ، وقالت له أين ماؤك يا نيل ؟ لتكن عذبا وفراتًا وتسر الناظرين إليك. وأمسكت بالحجر الذى أمسكته من الدير وقذفت به فى النيل ، فتغير لون الماء ، حين ذلك اغترفت غرفة بيديها وقالت ، ليشرب الحيوان قبل الإنسان ، فنزل الطير وغطى السماء بجناحيه . فانكب الناس على وجوههم وتنصّر مائتان وعشرون رجلاً وامرأة. وأعادهم "محمد على" إلى ملتهم الأصلية بأمر منه. وشعر هذه البنت مبارك وأى إنسان يلمسه لا تستطيع تلك الديدان الشرهة أن تتلفه أو تتخلله.

على الجانب يقف إيوان خشبى صغير له باب موشّى بالأرابيسك ورافعة للكتاب المقدس ، وصحن ينام فى وسطه شمعة ، وهذا الإيوان يقف فيه الواعظ لكى يتلو عظته وجوارها مباشرة المذبح. وسوف تستمع اليوم إلى عظة "بطرس" الرسول.

دخل الرهبان الثلاثة وقالوا:

- غـذاء الابن الكريم فى انتظار أسنانه التى لابد تعـمل بكد وتعب مـن أجل أن يبعث أبونا ببعض اللحم من قربان هابيل .

فضحك الأب بشاى وأمسك بيد جرجس وقال له :

- هيا إلى الإفطار أيها الشماس الصغير. كان الرهبان الثلاثة قد دخلوا إلى حجرة الخزين وأخرجوا علبة السمن الكبيرة المدخرة لأيام الإفطار ، ووضعوا طبق الفول بالزيت لأنفسهم ، وطبقًا لجرجس بالسمن البلدى وثلاث بيضات ، وقطعوا الخيار والطماطم وصنعوا طبق عجة.

حين رأى الأب بشاى صينية الطعام الموضوعة على المذبح الذى يستعمل كمنضدة فى حجرة النوم قال :

- بسبب هذا أحنى ركبتى لدى أبى ربنا يسوع المسيح الذى منه تسمى كل عشيرة السماء وعلى الأرض ، ليقم واحد فيكم ويرطب الخبز بالماء ريثما أدعو لـ"جرجس" ، ثم قال :

- إله واحد وأب واحد للكل الذى على الكل وبالكل .كل مَن يُؤمن به لا يهلكُ.لأنه لم يُرسِلْ اللهُ ابنَه الوحيد إلى العالمِ ليُدين العالم ، بل ليخلص به العالم. ضع طبق الفول المدمس بالسمن أمام ضيفنا الصغير ، وليغفر لنا أبونا وربنا يسوع أننا نضع فى الفم الصغير لهذا الابن الصالح محرم فى عيون الرب ، ولكن ليعلم الملكان اللذان يحرسان ذلك الغلام أنه مريض ويجب أن يسمن ويكتسى شحمًا حتى يشتد عوده ، وليكن على هذين الملكين أن يغمضا عيونهما بعض الوقت ، لأن هذا الفم لا بد له من زبده بقر ولبن غنم ، مع شحم خراف وكباش وعسل من حجر ، وزيت من صوان الصخر ، ودم العنب ، كل هذا سوف يكون أيها الملكان ، وسوف يسمعه الرب حين تكتبانه فى القرطاس. لابد يسمعه الرب فلا تكونا مغتمين من أجل جرجس الصغير ، ولا تنحجزا عن أعمالكما من أجله فقط ، ثم وضع بشاى يده على رأس الغلام دون أن يفتح عينيه ، فوجد الرأس ترتعش تحت يديه. أتمَّ دعاءه بسرعة . حاول أن تظل عيونه

مغلقة ، ولكن رعشة الصغير أخرجته من حالة الدعاء ، ورأى رموش جرجس التى تتحرك بدون انتظام. شفتاه تهدلت تمامًا. أنهى الدعاء ، وأخذه فى حضنه ، وربت على ظهره حتى استكان. انتظمت حركات عينيه ، وزالت الرعشة ، ثم قرأ عليه دعاء "يوحنا" حين قال الرب يسوع : ليحسن الرب إنشاءك ، ويكثرك أكثر من آبائك ويفتح الرب إلهك قلبك وقلب نسلك ، لكى تحب الرب إلهك من كل قلبك وقلب نفسك ، ويجعل الرب إلهك كل اللعنات على أعدائك ، وعلى مبغضيك ، ولتعمل بجميع وصاياه التى سوف أوصيك بها عما قريب ، وليزد الرب إلهك الخبز من كد عمل يديك ، لأنه لابد يفرح بالخير بين يديك كما فرح بالخير بين يدى آبائك ، أمين تقبل يا يسوع ورسم علامة الصليب .

التفت إلى الغلام وقال: لابد أن الخبز الآن قد يبس مرة أخرى ، فهيا أيها الولد الصالح لتعمل أضراسك الصغيرة بكد وتعب . ولتملأ بطنك بما لايصلح لنا الآن ؛ لأن الشيطان سوف يحمل ما سوف يتبقى منك ؛ فلا تترك له شيئًا. كانت المرة الأولى التى استطاع جرجس على مدار ثلاثة وخمسين عامًا وتسعة أشهر وتسعة عشر يومًا أن يأكل ثلاثة أرغفة مرة واحدة من أجل المقدس بشاى . الذى قال له بعد أن أنهى طعامه :

- تذكر جيداً إن هذا الطعام معطل علينا ، وأن الشيطان سوف يفرح به .

جرجس يمسك بالخبز من جديد ويعاود الأكل . شرب بعدها سطلا من المياه يستطيع راهب سواح أن يحيا به مدة لا تقل عن أسبوعين ، أو خمسين كيلو متراً من المضى تحت شمس تكون حرارتها خمسة وأربعين درجة مئوية . رفع الرهبان صينية الأكل. أمسك الأب بقطعة من القماش وبللها وأعطاها لجرجس الذى بدا النوم عليه. تطوحت رأسه كثيراً. أمره الأب أن يستريح اليوم حتى يستطيع أن يسمع عظة بطرس فى المساء بقلب مُتقد ، ولبّ يعمل ، ثم انسحب فى هدوء من الحجرة و جرجس يفكر فى كل هذا الحب الذى منحه له ذلك الأب . راح يسأل نفسه هل يستطيع قلبه أن يتحمل كل هذا الحب وهو المحب لأبيه و ابن ستوتة العايقة والحاج رمضان وأمه ، ولم يكن يعلم أنه حين يكمل الخامسة والثلاثين ستعود إلى ذاكرته تلك الأسماء قد تبخرت

تماماً ، ولم يعد فى القلب متسع. بعد أن ملأه "مينا" و بشاى و تريزة و صموئيل الذى جاء إلى الدير فى بداية عامه التاسع والعشرين ، ولم يتذكر تلك اللحظة إلا عندما مرت تسعة عشر يوماً على وفاة ابنه مينا ، وهو اليوم الأخير له مع ذلك الدير الذى عشق ترابه.

عندما خرج الأب "بشاى" قال للرهبان الثلاثة اتركوه يستريح ، ولا يدخل عليه أحد ثم ذهب إلى قلايته وخلع الجلباب وجلس بالسروال والفانلة التى ينام تحتها ذلك القميص المصنوع من الوبر المضفر بخيش النخيل الذى أخذه من الأنبا حزقيال أسقف دير " صموئيل المعترف " بعد موته كما طلب منه ، ومن يومها لم يخلعه إلا الساعة الرابعة والنصف من عصر يوم الأحد .

حين يدخل عليه الشماس العجوز ويقول له: الحمام معدّ أيها الأب ، فيمسك بالفوطة فى يديه ، ويخلع الخف المصنوع من جلد الماعز ، ويلبس القبقاب الخشبى الذى ما إن يسمعه الرهبان حتى يضحكوا فى سرهم على ذلك الوقع الذى استمع إليه ملك إحدى البلاد. ذات يوم حين دخل الشماس العجوز إلى حجرة الأب ، الذى كان يستعد للحمام فقال له الشماس:

- إن هناك رحلة حضرت الآن من بلد أوربى ومعهم ابن الملكة وكبير أساقفة الكنيسة الكاثوليكية فى مصر ، فقال لهم ليدخل عليهم الرهبان ريثما أخذ حمامى الأسبوعى ، فبهت الشماس وقال بعد برهة. إنه أمير يا سيدى ونيافة الأنبا ، ولم يكمل جملته بعد أن رأى الأب يشيح بيده وهو يقول:

- حتى لو كان الملك ، أعد الحمام أيها الرجل ، واذهب بالملك هذا وكبير المهرجين هذا إلى الجحيم. جرى الشماس من أمامه ودخل على الرهبان الذين لم يجدوا أمامهم غير الخروج إلى حوش الدير لاستقبال الأمير بملابس النوم والعمل . ودخلوا بالأمير إلى الممر الضيق وتشاء الصدف أن يمر الأب من ذلك الممر ، حتى لا يصطدم بالزائرين وهو فى الطريق إلى الحمام . وحين ذلك رأى الأمير الأب "بشاى" وهو يمسك بيديه الفوطة ولا يلبس فوق رأسه شيئاً ويرتدى قبقاباً ، فتوقفت الدماء فى عروق الرهبان والشماس. ووقف الأمير يستمع إلى وقع أقدام الأب بذلك الصوت الذى

لم يتغير ولم يختل إيقاعه لتلك النظرة السريعة من عين الأب لعين الأمير. ثم مر جواره ولمس كتفه دون أن يلقى عليه السلام ودخل الحمام. وبمجرد أن جلس الأمير وكبير الأساقفة ، انتفض طفل كان ينام على صدر أمه على ذلك الصوت الذى خرج من الأب ، وهو يدعو الشماس للإتيان بأوراق النعناع والخروع لكى يستطيع أن يستقبل هؤلاء الهمج الذين لا يراعون الوقت فى الحضور. تكهرب الجو لمدة نصف ساعة حتى دخل الأب "بشاى" بهيئته الجميلة ، واعتذر عن التأخير والصوت العالى الذى استمعوا إليه ، وعلل ذلك أنه حين دخل إلى الحمام ووجد الماء الساخن فقط دون أن تكون فيه أوراق النعناع والخروع انتظر قليلاً ليأتى الشماس بهما ، ولما يئس خرج وجاء إلى الباب ودس الشيطان فى فمه تلك الأقوال التى استمعوا إليها تخرج من حنجرته التى صارت بفضل ذلك الحمام والزيارة ملعبًا لألاعيب ذلك القذر .

حين ذلك ضحك الأمير والزائرون على تلك الروح المحبة والخفيفة. ومن يومها أصبح معروفًا لدى التابعين للديانة الكاثوليكية باسم "الأب قبقاب" وعرف الرهبان فى الدير ذلك الاسم حين دخل أحد الكاثوليك إلى الأرثوذوكسية.

حين دخل عليه الشماس العجوز وجده مستلقيا على الكرسى ، وهو مغمض العين ، فوقف أمامه لا يدرى ماذا يفعل مع ذلك الأب متقلب المزاج . لا ينسى ذلك اليوم الذى دخل عليه ووجده مسترخيًا على الكرسى وتنفسه منتظم ، فظنه نائمًا فغير اتجاه قدميه ليخرج ، للحظة واحدة وجد قلبه يسقط فى قدميه حين هبطت يد ذلك الأب على كتفه ممسكه به وصوت بشاى يسأل ماذا يصنع حين يجد لصًا أمامه أيها الشماس ؟ ولم يستطيع التنفس لدقيقة على الأقل حتى ضحك الأب بشاى ، وهو يديره ليرى وجهه الأصفر والماء الذى هطل منه فى لحظات ، ثم قال له :

- ماذا هناك أيها الشماس الجميل ؟

فاسترد قلبه من قدميه ثم قال :

- لا شىء. لا شىء أيها الأب ، وانسحب فى هدوء.

تنحنح الشماس قبل أن يدير رأسه ويخرج من القلاية. ففتح الأب بشاى عيونه بصعوبة بالغة وعدل جسده على الكرسى ، ثم وقف ، واتجه إلى المنضدة الموضوع عليها إناء ماء ، أمسك الإناء بيده وجلس على حافة السرير المصنوع من خشب الجزورين والمفروش عليه ملاءة تملأها بطش تبدو كعصافير ملونة ورفع الإناء إلى فمه ، ثم قام ووضعه على المنضدة وقال للشماس :

- لم لا تجلس أيها العجوز. هل تحملك قدماك تمامًا ، أم أنك تريد أن تضع لعزرائيل الطيب فرصته الأخيرة فوق الترابيزة ؟

ضحك الشماس العجوز وجلس على حافة السرير ، وأفرغ ما فى الكيس على الملاءة وقال للأب:

- أرجو أن يخش قلبك السرور لهذه الألوان .

أمسك "بشاى" بالجلاليب ، وراح يقيس عرض الذيل عندما أتم العد إلى الثانية عشرة سكت قليلاً ، ثم دعا للشماس أن يلبسه الرب الاستبرق ، ودعا لـ"جرجس" أن تحمل خيوط تلك الجلاليب بركة يسوع الرب ، فلا تمسك بها النار ، ولا تعلق الأوساخ بها. ثم فردهم جميعًا على السرير وقال للشماس:

- دعنى أريح جسدى بعض الوقت ولا تدخل على جرجس الآن ، اتركه لى سوف أوقظه أنا حين أرى أن ذلك لازم ، فخرج الشماس ، وهو يدعو للأب بطول العمر وصواب الرأى ، ثم أغلق الباب. نظر بشاى إلى الأثواب الخمسة وراح يمر عليها دون أن يقف على أحد منها ، ثم رفع الثوب الأبيض ذا الخيوط الطويلة الزرقاء ، ونظر إليه فى اتجاه الكوة التى ترمى بشمس قبل القيلولة ، وقبل أن يعيده إلى جوار الأثواب الأخرى سمع طرقات على الباب ، ثم فتح على وجه الشماس الذى تردد كثيراً قبل الدخول فقال بشاى :

- ماذا هناك ألم أقل لك دعنى الآن ؟!

جاء صوت الشماس متلجلجًا وهو يرفع يديه ، فلم يميز بشاى أقوال الشماس

فدعاه للدخول وهو ما زال يرفع الثوب الأبيض ذا الخطوط الزرقاء فى اتجاه الكوة التى ترمى بشمس تجعل الثوب مضيئًا فقال الشماس :

ـ هذا أول ثوب اشتريته. هو جميل أليس كذلك أيها الأب ؟

رمى بشاى الثوب على الملاءة التى لم تعد تظهر منها إلا بعض البطش القليلة التى استطاعت أن تأخذ لها مكانًا جوار الأثواب ؛ فبدت كغربان وليست عصافير ، وقال للشماس:

ـ هل جئت إلى هنا مرة أخرى ، لتقول لى هذا الثوب جميل ؟! أم ترى عيونى قد ملأهم القذى.؟!

رفع الشماس يده فى اتجاه الأب وهو يقول :

ـ لقد نسيت أن أعطيك ما تبقى من الأموال.

فقال الأب وهو يخفف من وقع كلامه الجارح :

ـ ليت يدك كانت يدى امرأة لوط التى باعت رسالة زوجها بثمن بخس ، فضحك الشماس ، وخرج. كانت بعض العصافير التى استكانت تحت الأثواب قد بدأت فى الظهور حين أفاق بشاى من غفوته التى طالت وجعلت الشمس تغيب عن كبد السماء قليلاً ؛ فدخلت من الكوة ، لتجلس على بعض الأثواب بقوة وتظهر من تحتها العصافير. ارتدى ملابسه على عجل وأمسك بالأثواب فى يديه كأنه يريد أن يمسك برقبة لص يحاول الهروب ودخل حجرة الرهبان ، وسأل عن الساعة. ولم يكن يجهل الوقت قبل العصر ، وأن الساعة لابد الثالثة أو الثالثة والربع على أكثر تقدير ، أطمأن على أحوال الغذاء وعلى جميع الأشغال بداية من جمع العنبة الشرقية التى دنت من الأرض ، وأصبحت ملعبًا للأطفال أولاد المصلين ، وانتهاء بصحن الدير الملئ بالأورا ثم خرج إلى صحن الدير ، ونظر إلى الأرضية . نادى على أحد الرهبان وأمره أن يلم تلك الأوراق التى تؤذى عين الناظر. والتى أقل ما يقال عنه : إن أسقف ذلك الدير رجل

قذر كل همه جمع التبرعات ، ثم اتجه إلى عين الماء التى جوار السور ووضع الأثواب على جذع الشجرة ، واغترف غرفة بيديه وقبل أن يدخلها إلى فمه وجد ورقة شجرة فيها فتركها تنساب من بين يديه على سرواله ، ثم ضرب الماء ضربة واحدة بيديه ، واغترف غرفة أخرى ، ورفعها إلى فمه دون أن ينظر فيها ؛ ومسح ذقنه ووجهه بما تبقى من طراوة الماء العالقة بيديه ، ثم أمسك بالأثواب ودخل إلى الممر الذى يساوى أكثر مائة وثلاث وخمسين خطوة من خطواته المتزنة ، ثم دخل إلى الحجرة التى عرفت بعد ذلك على مدار أربعين عاماً وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً باسم " حجرة جرجس أو أبو مينا " ، فوجده يسند ظهره على الحائط ويداه جواره ساكنتان تماماً ، فوقف بشاى الذى دخل على الشماس طوال أربعين عاماً وتسعة أشهر ويوم مئات المرات. لم يستطع خلالها أن يعرف ما إن كان جرجس نائماً أم مستيقظاً إلا ثلاث مرات. كانت جميعها تبشر بموت.

المرة الأولى. حين دخل عليه بعد دخوله الدير بتسع عشرة سنة وأمره أن يذهب إلى أبيه فى تلك البلدة النائمة بجوار النيل ليراه قبل الموت.

المرة الثانية. حين دخل عليه لكى يسخن مياها لكى يستطيع أن يُغسل أحد الرهبان.

المرة الثالثة. حين وقع مينا بين يديه واستكانت عيونه تماماً ودخل عليه ، وهو جوار الحائط مرفوع الرأس إلى الفتحة الصغيرة الموجودة بأعلى السقف ، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يدخل فيها الأب تلك الحجرة. بل المرة الأخيرة التى يرى فيها جرجس الذى رفض الدخول على الأب "بشاى" بعد وفاة ابنه مينا عندما سقط على الأرض ، ورفعه الرهبان وأدخلوه قلايته. ومن لحظتها لم يستطع بشاى أن يقوم من السرير حتى حين دخلت عليه تريزة لتخبره أن جرجس مات فكلف الأب "متى" أب الدير الجديد بإقامة صلاة الجنازة. وكانت آخر فرحتين يعرفهما قلب ذلك الأب الذى ظل نائما على هذا السرير بعد موت جرجس ست سنوات وبعد موت تريزة بثلاث

سنوات وأحد عشر شهراً حين علم أن صموئيل عاد فقط ليحضر جنازة صديقه جرجس. لما علم بوفاة ابنه مينا . ووصل خطاب من صموئيل بعد سنة من رحيله من الدير يخبره أنه رُزق بابن أسماه "بشاى"

وقف الأب بشاى أمام جرجس لمدة تزيد عن خمس دقائق دون أن تصدر عنه أية حركة ، ثم جلس جوار جرجس الذى لمَّ ساقيه ورفع يديه النائمتين جواره من أثر التعب ، ثم قال للأب:

- هل بيد سيدى شيء جديد أم أن أنفى قد أصابته وقعة الأمس ؛ فلم يعد يعرف الروائح ؟

- بعض الأثواب الجديدة لك أيها الشماس أم أقول أيها القس إن شاء يسوع المسيح؟

- لا. ليكن الشماس فقط يا أبت لن أستطيع أن أكون قساً وعيونى وقلبى تملأهما ضحكتك العذبة هذه .

- هل تستطيع أن تميز رائحة كل ثوب على حدة يا جرجس ؟

أومأ جرجس برأسه دون أن يفتح فمه بأى شىء ، فقال بشاى :

- هذا هو الثوب الأول تشممه جيداً وامش بيديك عليه حتى تتعرف على نعومته.

أخذه من يديه ، وأعطاه الثانى والثالث والرابع والخامس ، و"جرجس" يقربهم من أنفه ، ويمضى عليهم بيديه فى تُؤدة ورفق.

- هذه الأثواب الخمسة لك يا جرجس ، ثم سحبهم من يديه وأمسك بأحد الأثواب وقال له:

- أى الأثواب هذا ؟

فقال جرجس :

ـ الثالث يا أبت. وأعطاه آخر فقال الأول ، فربَّت بشاى على رأسه وهو يقول :

ـ لتكن عيون قلبك مبصرة دائمًا يا ولدى.

وأمسك بالأثواب مرة أخرى وقال له :

ـ هذا هو الثوب الأول أليس كذلك ؟

ـ نعم يا أبت .

فقال "بشاى" :

ـ هذا الثوب لونه أبيض وبه خطوط طويلة زرقاء. وأمسك بيد جرجس وجعلها تمر على الخطوط الزرقاء ببطء ، ثم الخطوط البيضاء ، ثم منحه الثوب الثانى وقال

ـ هذا لونه. لونه أبيض بخطوط حمراء ، ثم تركه يمر بيديه دون أن يمسك بهما فمشى جرجس على الخطوط الحمراء والبيضاء معًا ، فنبهه بشاى وقال له :

ـ دع قلبك فى يديك ، وأخرج من رأسك كل الأفكار الآن .

وأعطاه الثوب الثالث دون أن يقول له على الألوان فمشى جرجس بيده على الثوب الثالث وفتح فمه وبشاى يحدق فيه دون أن يصدر عنه تنفس. ضحك الأب وهو يرى حركات حواجب جرجس وفمه الذى استمر رغم تلك الحركات لا يتزحزح قيد أنملة ثم قال:

ـ لا تنزعج أيها الصغير فبقلبك وبيدك إيمان لو وزع على مائة من خراف الله الضالة لعادوا إلى حظيرته. هذا الثوب سادة ليس به خطوط ومصنوع من التيل وليس دكرون كما الآخرين ولونه ، ثم هرش لحيته التى لم يضع عليها مسكًا منذ تسع سنوات بعد أن كان يضمخها بالمسك كل مساء وصبح . كيف يستطيع أن يقول عن لونه هل يقول أصفر أم مصفر بعض الشيء على بنى فهو لم يحدد له لونًا حتى الآن. وخرجت من فمه زفرة مصحوبة بنفس طويل بعض الشيء. أمسك جرجس بالثوب ومشى به على أنفه ثم قال:

ـ هذا الثوب لونه قريب الشبه من اللون الأصفر.

رسم الأب علامة الصليب على رأس جرجس ثم قال له :

ـ تأخرنا كثيراً على الغداء. الوقت يمضى معك جميلاً يا جرجس ، ولكن لدينا مشاغل كثيرة اليوم. فاليوم عظة "بطرس" الرسول ، ويجب على أن أقرأ الإنجيل كاملاً كما تعودت كل عام .

أحس جرجس أن الأب بشاى يهرب من ألوان الثوبين الباقيين ، فقال له :

ـ ما رأى سيدى الأب أن ألبس الثوب الرابع اليوم .

خطى بشاى خطوتين إلى الأمام ، ثم التفت إلى جرجس الذى ارتسمت على فمه شبه ابتسامة ، فوقع قلب بشاى حين رآها وقال لجرجس :

ـ كلما تحدثت مع نفسك ياجرجس ، كلما تضاءل الأمل فى وجود فرصة للنجاة. من المنطقى تماماً ياولدى أنْ يتساءل المرء عن المبرر وراء تلك الأحداث القاسية المروعة التى يمرُّ بها. لماذا هذا الظلام الدامس بالتحديد بالنسبة لك؟ أعلم يابنى إنك تعيش وكأنك فى الحكايات الخرافية ، وفى انتظار الأحداث الدامية التى تملأ جميع الأساطير ، لكن مهما بلغتْ فوضى تعاقب الأحداث ، ثَمَّة ـ دائمًا ـ فتراتٌ فاصلةٌ ، تُوجدُ من تلقاء ذاتها لنتحدث فيها مع أنفسنا .مازال هناك وقتٌ ، ليس فقط للتأمل ، بل للتعلّم والكشف عما هو منسيّ ومدفونٌ داخلنا ، وعندئذ بمقدورنا أنْ نتخيل المستقبل.

فبهت ظل الابتسامة التى على فم جرجس ، وأحس أنه خسر قلب الأب ؛ فأحنى رأسه فى الأرض وهو يلوم نفسه على فعلته. كانت هذه المرة هى الأولى التى يرى فيها وجه بشاى الثانى. الذى سوف يراه على مدار أربعين عامًا وتسعة أشهر ويوم ، سبع مرات.

المرة الخامسة حين يأتى منير الذى أصبح اسمه بعد دخوله الدير "متى" ويكون واقفًا جوار "بشاى" حين يطلب منير من الأب أن يسمى بيشوى ، فيرفض الأب ويقول

له اختر اسمًا آخر أيها الابن. فيتدخل جرجس ويقول للأب بشاى:

ـ ليكن اسمه "بيشوى" يا أبت ، فربما كان هذا الاسم يعنى عنده شيئًا .

ولم يكمل باقى الجملة حتى خرج صوت الأب بشاى وهو يقول:

ـ اجلس أنت أيها الشماس على الكرسى بدلاً منى ، وامنحه ما شئت من الأسماء.

فبهت جرجس لذلك وعندما خرج الراهب"متى "قال له الأب. احذر هذا الراهب واحتفظ لقدميك بمنعزل عنه .

المرة السادسة. كانت بعد دخول "متى" الدير بخمسة أشهر وطلب من جرجس أن يحضر له كتاب فجاء "متى" بكتاب خطأ. فقال "متى" لصموئيل :

ـ هذا ما تحكى عنه أيها القس الطيب ؟ ، هل هذا ؟ هل هذا الذى يعرف الكتاب من ملمسه ورائحته؟! إنه أعمى يا صموئيل ويجب عليه أن يعلم ذلك جيداً حتى لا يتدخل فيما لا يعنيه. وحين ذلك دخل بشاى عليهم ، وعرف من صموئيل ما حدث ، فرفع بشاى صوته وأمر "متى" أن يذهب إلى حجرة الاعتراف وقال لـ"جرجس":

ـ ألم أحذرك أيها الحمل الضال؟ ألم أقل لك تحسس موقع قدميك جيداً وأنت تتعامل مع ذلك الـ"متى" منذ اليوم الأول لدخوله الدير؟. أنت هكذا دائمًا تمضى بقلبك لا بعقلك فى اتجاه الشيطان. اذهب إلى الجحيم بقلبك هذا.

المرة الأخيرة. حين دخل عليه يوم موت ابنه "مينا" ورفض إبراهيم أن يأتى بمطرقة لينزل ذلك المسمار المدبب الذى فى غطاء الصندوق بعد أن نزل فى الصندوق ، وعرف أن المسمار مرتفع قليلاً فقال جرجس لبشاى لم المسمار أيها الأب المقدس؟ لا داعى له. لا تخثرنى بطن ابن امرأتى ولا تشمت فى أعدائى ، فحاول الأب أن يشرح له أن المسمار بالكاد سوف يفقأ بطن مينا فى اليوم الثالث عشر ، وهو لا يريد أن يتعذب ذلك الشاب كثيراً . ومن أجل ذلك عليه أن ينزل بالمسمار خمسة سنتيمترات

حتى يستطيع المسمار أن يبقر بطن الشاب بعد ثلاثة أيام فقط . ولكن جرجس الملهوف على رؤية وجه ابنه لم يستجب لكل مبررات الأب ورفض ذلك وقال له الأب:

- لا داعى للعناد أيها الحمل الضال ، ولتخرج الآن من هنا ريثما أعد كل الأشياء. فرفض جرجس ، فنادى على"متّى" الذى استلم مقاليد الدير بعد تلك الواقعة بأسبوعين وقال له أذهب به إلى الجحيم عند الباب.

وقف بشاى مرة أخرى وقال لجرجس :

- ارتد الجلباب الخامس ، ولتعلم أيها الابن أن لونه رصاصى فاتح ، أما الرابع فهو بنى غامق. ولا تتأخر كثيراً فموعد الغداء قد حان منذ ما يقرب من نصف ساعة .

وقف جرجس يتحسس الثوب الرابع والخامس ، ليتعرف على الألوان من خلال يديه وأنفه. حين دخل الشماس العجوز إلى الحجرة ووجد جرجس يرتدى الجلباب الرصاصى ، هبطت على وجهه بسمة ، وقال :

- لينفعك المسيح أيها الولد ، وليخفِ عيوبك تمامًا ، الأب فى انتظارك ولكن لى عندك طلب ولم ينتظر الرد ، وأخرج من جيب الصديرى الذى يرتديه على فانلة بنصف كم وسروال طويل ينزل منه شريط ملفوف مصنوع من ليف النخيل والكتان ، أخرج طاقية صغيرة مشغول عليها قبة كنيسة باللون الأحمر والجانب الآخر موشى بالصلبان الصغيرة وصليب كبير باللون الأبيض ووضعه على رأس جرجس الذى طفرت الدموع من عينيه دون أن يدرى لذلك سببًا غير وجع أحس به فى مكان بالقلب بعد خمس عشرة عامًا ، حين مات هذا الشماس فى يوم ممطر ولم يصل عليه ، ويحضر الجنازة غير ستة من الرهبان والأب و جرجس الذى أخذ من يد ذلك الشماس ليلة الوفاة صليبًا نحاسيًا كبيراً ينام فى وسطه المسيح وهو مصلوب إلى جذع نخل وعلى رأسه وُضع أكليل مضفر من الشوك . ما إن مشى عليه جرجس بيديه ، وكان حين ذلك قد بلغ الثامنة والعشرين حتى أحس بتلك الدموع ، وأحس بذلك الوجع الذى أحس به يوم أن

وضع ذلك الشماس بالطاقية التى ظل جرجس يحتفظ بها حتى منحها لإبراهيم مساعده الصغير.

رفع جرجس الطاقية من على رأسه ، ومشى بيده عليها ثم قبل الصليب ووضعها مرة أخرى على رأسه ، وأمسك بيد الشماس العجوز الذى كانت يداه فى تلك اللحظة ترتعشان .

ـ احك لى شيئًا عن أيامك السابقة يا جرجس هل ارتكبت معصية ؟ فاليوم هو يوم بطرس الرسول. ويجب عليك أن تعترف بكل الأخطاء حتى تستطيع أن تبدأ عامك الجديد فى ذلك الدير وأنت مرفوع القلب ، وفوق الرأس إكليل عدل .

نكس جرجس رأسه وهو ما يزال ممسكًا بيد الشماس ، وراح يفكر فى حياته السابقة . ولم يرد على الشماس الذى أجلسه جوار الأب بشاى بإشارة من يده أصابت عين الشماس وتركت قلبه يرقص على ذلك المكان الذى لم يجلس به أحد فى المرات القليلة التى شارك فيها الأب الطعام مع الرهبان والشماس. كان الرهبان قد أعدوا طعامًا خاصًا لجرجس مكونًا من لحم مطبوخ فى برام وخبز مخلوط بالحلبة وأرز ، رفع المقدس الفوطة الموضوعة على فخذه ووضعها فى طوق الجلباب الجديد الذى أصبح فيه جرجس مختلفًا كثيرًا عن الصباح . ابتسم الرهبان حين رأوا أن جرجس الذى كان فى الصباح يبدو متسولاً صغيراً ، أصبح فى ذلك الرداء ابنًا جميلاً ، تلا الجالسون صلاة الطعام ، وأمسك الأب بشاى بيد جرجس ومر بها على الصحون الخاصة به وهو يقول له:

ـ ذلك البرام خاص بك وحدك ، ولا تنس أن الشيطان فى انتظار ما سيتبقى ، وألق على الرب هم قفصك الصدرى وبطنك الملساء .

ارتعشت يد جرجس وهى فى الطريق إلى فمه فوقعت الملعقة على جلبابه ، ولم تستطع تلك الفوطة الموضوعة على طوق الجلباب أن تحميه. أمسك بشاى بذيل الجلباب ونفضه ، وأزاح بيده ما تعلق بالثوب ؛ فزاد المكان الذى اتسخ ؛ فشد الفوطة

الموضوعة على طوق الجلباب ومسح يديه ولم يعدها إلى مكانها ومشى بيده على رأس جرجس الذى كانت دموعه فى انتظار تلك اللمسة ، لتتساقط ببطء ، ثم يسيل الماء الملح المختلط مع مخاط أنفه . ولم تستطع يد الأب أن تمنع تلك الدموع فى اليوم الثانى لوجود جرجس فى الدير كما أنها لم تستطع تلك اليد ذاتها وهى مرتعشة بعد مضى أربعين عامًا وتسعة أشهر ويوم ، مرة أخرى أن تمنع تلك الدموع حين كانت تتساقط على موت ابنه "مينا ".

ووقفت اليد المرتعشة على رأس جرجس مدة تزيد عن نصف الساعة يومها ، ثم نامت جوار الجسد الذى لم يزد فى مدة أربعين عامًا وتسعة أشهر إلا بمقدار ثمانية وثلاثين كيلو جرامًا ، رغم أن الأيام المائة والاثنين وأربعين يومًا الأولى لـ"جرجس" داخل الدير كان مقدار ما تناوله من الأطعمة يزيد عن تلك الكيلوات الثمانية والثلاثين بتسعة كيلو على الأقل من اللحوم فقط. فلقد اتضح للشماس العجوز بعد مضى تلك الأيام أن ما صرفه على اللحوم رغم صيام الكنيسة يوازى ما تم صرفه على اللحوم فى عام كامل. وعندما صرح للأب بذلك قال له :

- يبدو أن أموال المتبرعين ليست خالصة لوجه الرب لأن "جرجس" لم يزد أكثر من خمسة عشر رطلاً. ذلك بالكاد أيها الشماس.

ماذا هناك أيها الابن ؟ هل وقعت الواقعة فليذهب هذا الثوب إلى الجحيم مد يدك وامسح تلك الدموع ، لا ينبغى لكَ أنْ تُقاسى بعد الآن أيها الملاك. فقط عليك أنْ تُحاول تشكيل حياتك لتتلاءم مع الفعل الخطأ . إنَّ لغزا لماذا فعل بى أبى ذلك ؟ وكيف فعله؟! قد انقضى إلى غيرِ رجعةٍ ، أما أنْ تندب حظَّكَ وتعيش مُرَّ القسوة وكأنَّك ضحية التلقيح الخاطئ ، فذلك ما لا يلزمُك الآن ، وأنت أيها الشماس اذهب إلى حجرتى وسوف تجد على المكتب حقًا صغيراً به مرهم لونه ، ثم اتجه بوجهه إلى جرجس الذى مازالت الدموع تنهمر من عيونه وقال له:

- ترى أيها الغلام ماذا يكون لون ذلك المرهم ؟

ظهرت ابتسامة جرجس رغم عدم انقطاع الدموع التى استمرت على مدار ساعة تتواصل.

مضى الشماس وجرجس ما زال يحاول أن يمسح دموعه ولكنها لا تتوقف. وضع الأب المرهم على أنف "جرجس" ثم أعطاه الشماس المنشفة المبلولة بالماء فوقف وقال :

- يجب أن أغسل يدىّ بالصابون . وتركهم وتحرك فى اتجاه ، ثم وقف قليلاً ، وأدار وجهه إلى الرهبان وقال :

- لابد لذلك الغلام أن ينهى تلك المحنة ذلك لازم أيها الغلام قبل أن أعود ، ثم خرج ، فغسل يديه بالصابون. خرج بعدها إلى حوش الدير ، فرأى من بعيد المعلم رياض يدخل من باب الدير ويتجه إلى عين الماء دون أن ينظر إليه ، وأخذ يرفع الماء بيديه ويرميه على وجهه ورأسه ثم راح يعب الماء عبًا ، اتجه إليه الأب ، وعلى بعد أكثر من ثلاثين خطوة قال لـ"رياض" :

- ألن تعود أيها الخروف الضال؟ ألم تقسم بالأمس القريب ألا تعود إلى الخمر مرة أخرى ؟ سوف تضيع نفسك ، لمن تترك أولادك الصغار بعد موت أمهم؟ يبدو أنك لن تعود إلا إذا جرّستك فى عظة الأحد القادم.

وقف المعلم رياض وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا ، ولكن الكلمات التى خرجت من حنكه كانت تؤكد على تلك الحاسة التى أصابها الأب بشاى من مجرد رؤيته من بعيد. انسحب رياض وهو يقسم للأب أن الشيطان لعب برأسه وأنه لن يعود إلى ذلك ، وأنه سوف يربى ابنه رياض وابنته تريزة على الصليب ، وسوف يأتى بهم اليوم إلى عظة بطرس الرسول. ولكن الأب قال له:

- لن يبقى أكثر من ساعتين ونصف الساعة على بداية العظة فكيف سيأتيان . وتلك الرائحة النتنة تخرج من فمك ؟!

لم يرد رياض عليه ومضى .

تحرك الأب ومد يديه فى الحوض الصغير المصنوع من الأسمنت وراح يرش الماء الراكد فيه ، ثم وضع يديه وأمسك بحفنة مياه ووضعها فى فمه ، ثم عاد يمشى بتلك الخطوات البطيئة التى عرف بها إلى داخل الممر. من بعيد أصاخ السمع ، لكى يعرف هل انتهى جرجس من البكاء. كان جرجس ما يزال ينتحب فقال الأب :

ـ لِمَ لم ترفعوا الغداء بعد ؟ ألم تعلموا أن أطفال الأب ـ هؤلاء النورانيين الذين يولدون لآباء مسيحيين بحق يحبون ذلك الرب ـ يحملون الغذاء من لحظة وضعه إلى أن ترفعوه أنتم؟!

فأمسك الشماس العجوز بصحن الأرز ، فضحك بشاى وقال للشماس :

ـ دائمًا لا تنتظر أيها الشماس تخطف الطبق بمجرد أن تسمع. ليخطفك ملاك الرحمة ، ويقلعك من مسكنك ، ويستأصلك من أرض الأحياء ، لتعرف أن الرب إلهك راضٍ عنك .

ضحك كل الحاضرين عدا جرجس الذى ما زالت دموعه تنزل ببطء.

ـ هل انتهيت أيها الطفل الصغير. ماذا تريد ؟ هل أوحشك صدر أمك ؟ رفع جرجس يديه ومسح دموعه ، فهبطت يد الأب على يديه ، وهو يمسح تلك الدموع القليلة ؛ فلم يجد جرجس الصغير فى رأسه أى شىء سوى أن يقبل تلك اليد للمرة الأولى فى حياته والتى سوف يقبلها كثيراً .

ـ يجب أن يعاد تسخين ذلك الطعام ريثما أعطى لذلك الغلام عظته وأتلقى منه اعترافًا يزيح ذلك الهم عن قلبه ، وأمسك بيد جرجس ودخلا سويًا إلى حجرة الاعتراف للمرة الأولى فى حياته ، وأجلسه فوق الكرسى ، وراح يصف له الحجرة التى كانت بها ثلاثة كراسٍ تتحرك أينما شاء ، فهى ليست كتلك التى وصفها له فى الصباح فى صحن الكنيسة. وبالحجرة ستارة سوداء تستطيع أن تقسم الحجرة حجرتين ويمكن للأب أن يتلقى الاعتراف من خلف الستارة أو يتلقاه مباشرة دون ساتر ، وما الاعتراف إلا مصارحة للرب بأفعال الشيطان وذلك فى عين الرب. ويكتبه الملاك فى قرطاس ويفقأ

به عين الشيطان الأجرب أما ما يكتبه ذلك الملاك الجميل فهو الذى يخرج من فمك مباشرة ، وأنا أيها الابن مجرد وسيط ، شاهد على اعترافك حين تقول مثلاً : أنا أستمعت إلى الشيطان ذلك القذر وسوس لى أن أرى عورة ابنة الجيران أو ما شابه ذلك. ولتبدأ الآن فى أن تعطى أذنك مع قلبك استبق لقلبك الكلام يا جرجس حتى لا تحزن على عمرك الذى سوف يكون على أقل تقدير فوق الخمسين بشهور على أكثر تقدير ثلاثة وخمسين وتسعة أشهر وأيام . إن هذه الوصية التى سوف أوصيك بها ليست عسيرة عليك ولا بعيدة عنك فهى ليست فى السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ، ويأخذها لنا ، ويسمعنا إياها لنعمل بها ، ولا هى فى عمق البحر ، حتى تقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها ؛ بل الكلمة قريبة منك جداً فى فمك وفى قلبك ، لتعمل بها. ضع يدك فى يدى . وأمسك بيده وقال :

- قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر. ضع الرب إلهك فى قلبك فينير لك بصيرتك لتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه؛ فتحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك فى الأرض التى أنت داخل إليها لكى تملكها ، وسوف تدخلها بعد ذلك ، لتملكك أنت . فاعمل من أجل أن يكون بيتك هناك فى تلك الأرض التى أنت عابرها لكى تدخلها وتتملكها جميل .

أشهد عليك اليوم ذلك الملاك الذى دخل معنا لكى يتلقى اعترافك. وأنا أعرفه جيداً فهو جد شهيد. إنى قد جعلت قدامك الحياة والموت والبركة واللعنة ، فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك الذى سوف ينقطع ويلقاك فى الحياة الأخرى هناك ، ذلك إذا أنت أحببت الرب إلهك واستمعت لصوته والتصقت به. لا شىء إلا لأنه هو حياتك . وأشهد أيها الملاك الطيب على ذلك.

هل تشهد يا جرجس ؟

أومأ جرجس برأسه فقال بشاى:

- ارفع صوتك ليسمع ذلك الملاك ، وليحفظ عهدك معه.

فقال جرجس بصوت يملؤه الخوف :

ـ هذا عهدى يا أبت.

فوقف " بشاى وقال :

ـ قل هذا عهدى يا ربى وهذا الحمل الكبير شاهد على مع ذلك الملاك الجميل ، فقال جرجس ما قاله الأب الذى ربت على يديه ، وقال لنؤجل الاعتراف إلى يوم آخر لأن الرهبان لابد جائعون والشماس العجوز مشى جوار الحجرة أربع مرات.

استغرب جرجس لما قاله الأب بشاى ، فقد أحس لحظات أن هناك أرجلاً تمر جوار الحجرة. ولكن ذلك الإحساس قد نفاه قلبه حين استشار نفسه وأذنيه.

أخرجه الأب بشاى من تلك الأفكار وقال له :

ـ لا تستعجل الأيام يا جرجس غداً إن شاء الرب يمنحك قلبًا يرى مالا يراه الناظرون ، فتعرف ما لا يخطر على أفكارك.

ثم أمسك بيده ودخلا إلى حجرة الطعام وقال للرهبان :

ـ تأخرنا كثيراً عليكم. لتغفروا لنا أيها الأصدقاء. هيا أيها الشماس ضع يديك وابدأ لا تنتظر حتى نجلس هيا يا جرجس ، وأمسك بيده وقال له:

ـ عليك أن تقيس المسافة جيداً أيها الابن حتى نستطيع أن نتناول غداءنا فى هذا اليوم.

خرج صوت جرجس الذى أمسك قلبه بيده وعصره من أجل أن تخرج تلك الكلمات وهو يسأل الشماس عن الفوطة.

فقال بشاى:

ـ لا داعى لها فقد اتسخ الجلباب تماماً ويجب على شماسنا العجوز أن يأمر أحد الرهبان فى المساء أن يقوم بتنظيفه ، والآن هيا بنا نعمل بكد لكى نستطيع أن نأتى على الأكل.

أمسك جرجس بالملعقة للمرة الثانية كانت المسافة بين طبق الأرز وفمه طويلة جداً استطاع أن يجتازها فى المرة الأولى فى مدة تزيد عن الدقيقة والنصف ، ثم عمل بكد وتعب على طبق الأرز واللحم وحمد الله .

- أين شايك الجميل أيها الشماس لابد أن يكون كشرى ولا تنس أن تسأل ضيفنا الكريم ، كيف يحب أن يشرب شايه ، وذلك لمدة أسبوع فقط يا "جرجس" حتى تتعرف على المكان وبعد ذلك عليك ما علينا ولك ما لنا.

بعد أن شربوا الشاى ، سأل الأب جرجس :

- إيه يا جرجس أعجبك الشاى ؟

- سلم الرب يد صانعه وفم من أمر به.

ضحك بشاى ووقف ، عند ذلك رمى جرجس بكل محتويات الكوب فى فمه ، ووضعه على الصينية مرة واحدة دون أن يخطئ المكان المضبوط ووقف جوار الأب الذى أمسك بيده فى الممر الذى يفصل بين بعض حجرات الضيوف ، ضغط على يده ، وأحس فى تلك اللحظة أن الأب يعامله كابن له ، وما أن داخله ذلك الشعور حتى فر عصفور قلبه إلى حيث يجلس الحاج رمضان وحاشيته ونام فوق صدره تماماً .

القسم الثانى

" فقط أطلق يمامى "

– لم تشرب بعد أيها الغلام من عين "مارية القبطية". ما رأيك أن تمشى إلى هناك ، لتشرب من تلك العين التى حكيت لك عنها فى الصباح ؟

لم ينتظر الأب إجابة "جرجس"وغير مسارهما إلى حوش الدير ، فنزل جرجس الدرجات السبع فى تؤدة ، وهو يمسك بيد الأب وعقله سارح فى رائحة الأشجار التى تخللت أنفه المسدود بذلك المرهم ذى الرائحة التى تشبه رائحة الكبريت.

– ما رأيك يا جرجس أن تكون تلميذاً لى. وسوف أسميك "جرجس الصغير" كما سمى المسيح ابن مريم "أم يوشى يعقوب الصغير" ، ولكنك لن تكون مثل مريم هذا أم يوشى ويعقوب فلن تشهد موتى يا "جرجس" ولن يبشرك الملاك بشىء على الإطلاق.

رفع جرجس رأسه وأراد أن يقول للأب أنه لا يفهم شيئًا من هذه الأسماء. ولكن يد الأب بشاى كانت أسرع من فمه وزادت من ضغطها فى تلك اللحظة ، فأخرست لسان جرجس الذى راح يفكر فى معنى تلك الأسماء. فقال له الأب بشاى:

– أنا عارف بكل أفكارك ! فلا تستعجل وغداً يتضح لك كل شىء . كل شىء سيتضح لك إذا استمر نقاء قلبك وعلاقتك الطيبة مع الرب وتمتعت بالبركة التى سيضعها الرب فى يديك ، هذه هى عين الماء. ضع يدك ولتكن اليمنى ، وقل :

– "يا أخت أبينا الذى حمل عن أولاد آدم الدماء التى أسالها قابيل. دعينى أقبل قدميك ودعى شعرك الذى فاض على النيل يفيض على جسدى الضعيف ، وامنحينى بعض مائك فى الصباح وعندما تقف الشمس فى كبد السماء ، وعندما تغيب ، وسوف أصوم لك يوم تنيحك ، ولن أكلم إنسانًا هذا اليوم إلا بالإشارة ، هذا وعد منى يا مارية يا أخت أبى" .

كان جرجس يردد وراءه وقلبه يلهج من تلك الكلمات العذبة التى يحاول أن لا تسقط منه دون أن تنام داخل ذلك القلب أبد الحياة .

عندما أتم الأب دعاءه أمسك بيد جرجس اليمنى وأراه طريق العين التى تصب فى حوض رخامى له ماسورة طولها ثلاثة أمتار ، ثم تنتهى بمنحدر لتنزل إلى قناة صغيرة تسقى أشجار الجزورين والصفصاف والسرو الموجودة جوار سور الدير. وضع جرجس يديه على تلك العين وحاول أن يأخذ بيده اليمنى بعض الماء ، ولكن الماء أنزلق منها ولم يبق منها حين وضعها على فمه غير طراوة ذلك الماء

كان بشاى يقف جواره وهو مفتوح الفم لتلك المحاولات البائسة لجرجس لكى يستطيع أن يروى عطشه الذى زاد مرة واحدة. أمسك الأب بيديه غرفة الماء ، ثم وضعها أمام فم جرجس الذى استكانت يداه جواره وراح يعب من يد الأب الماء مرات ومرات حتى أتم المرات السبع . وقبل أن يمد الأب يده ليغرف له الغرفة الثامنة ، حين ذلك رفع جرجس يديه ومشى على فمه واتجه بوجهه إلى الناحية الأخرى. ، أمسكه الأب ونزل على ركبته ووضعه فى حضنه وهو يدعو لتلك المعجزة أو لحظة الاكتشاف كما سماها الأب بشاى .

لحظة اكتشاف

فى البداية أرّقنى ذلك المُسمّى ، كيف تأتى لحظة الاكتشاف ؟ وما الأمور المساعدة لها؟ ولمن تأتى؟ هل لابد أن تأتى العلامات لرجل الدين فقط. أم لكل الأشخاص؟

هناك فى الأسطورة القديمة؛ يُقال أن الروح تخرج من الإنسان قبل أربعين يومًا ، وعند لحظات التشوف هذه ، يعلم أنه سوف يموت ، ومن أجل ذلك تخرج من فمه أقوال بها حكمته ، وتهيم به تلك اللحظات التى نسميها الاكتشاف أو التشوف .

مثلاً . قبل أن يموت أبى بأسبوع قال جملة مازلت أبحث عن حل شفرتها حتى الآن وما الذى جعل أبى يقول تلك الجملة ؟ !

حتى أثناء الكتابة جاءت لحظة مماثلة. مثل تلك اللحظة التى وقفت فيها منال أخت ماجدة وقالت لها :

– سوف تلدين خمسة أطفال ، وحددت جنس الأطفال. تلك اللحظة لا أعرف كيف جاءت.

وبالمثل كانت هناك داخل الرواية لحظات اكتشاف من الآخرين . مثل الأب بشاى الذى يشى بأشياء كثيرة لجرجس وتريزة. أنا هنا أحلل تلك الأشياء لكنى أؤكد أن هناك أمورا أكثر من المعجزات تحدث كل يوم دون أن نلتفت إليها . ولقد حدثت لى أشياء أراها من قلب الله فقط . فيوم ماتت " سعاد " ولدت " سعاد " الصغيرة ، ومات أبى. كلهم فى هذه الساعة ، ولكن بعد مضى عام ، وعندما أفكر فى تلك اللحظة لا أجد إلا أن الله منحنى أشياء أعجز عن رد أى جزء منها .

كيف فعل جرجس ذلك ؟ ولماذا لم يمد فمه فى المرة الثامنة؟ ومن أخبره بذلك السر؟ الذى يمنح من خلال الأب بشاى فقط . ولبعض الرهبان . وليس لكل الرهبان.

كان بشاى قد فكر أن يناول جرجس بعض الأسرار الخاصة بذلك الدير ولكنه عدل عن ذلك. فكيف عرف جرجس السر ؟ كان هذا السؤال يدق فى عقل الأب بشاى ، وظل ذلك السؤال ، هو وأربعة أسئلة أخرى تؤرقه على مدار ستة وأربعين عامًا منها ستة أعوام لم ير فيها وجه جرجس لموته ، حتى أنه كلّم الملاك الحارس لذلك الدير ، والذى يتلقى الاعتراف ويحرس تلك الأرواح الجميلة التى تدخل الدير. لكنه لم يتلق جوابًا حتى فى حلمه الذى ظل على مدار عشر سنوات منها أربعة قبل موت جرجس ينام تحت قدم المسيح الذى يمسك فى يديه صحنًا مليئًا بالمراهم المختلفة ألوانها ويدهن لجرجس أنفه ، وجوارهم"مينا" يأكل من عنقود عنب ما إن ينتهى ، حتى يعود من جديد ممتلئًا وجرجس كلما مرت يد المسيح على أنفه أمسك بها وراح ، يلعق أصابعها ، ثم يقبلها ويقول للمسيح:

– أين أبى بشاى ؟ لم تتركه هناك حيث ذلك المسمى بـ "متى" ؟ ولكن ما أرق بشاى فى ذلك الحلم هو صموئيل ، ذلك القس الذى ترك الكنيسة قبل وفاة "مينا" بثلاثة أيام ، وحضر ليقيم صلاة الجنازة على جرجس ولم يره بعد ذلك. موقف

صموئيل فى هذا الحلم قد طرأ عليه تغير. اعتبره الأب بشاى تغيّر تماما. ظل صموئيل أربع سنوات خلال الحلم يأتى بكوب ماء يضع فيه المسيح يديه ، بعد أن يلعقهما جرجس. ثم يشرب هو الماء الذى يتحول إلى دم بمجرد أن يرفع "صموئيل" الكوب إلى فمه ، ولكن خلال الستة أعوام الأخيرة تحول صموئيل إلى طائر بوجه ملائكى ، ليرف فوق رأس المسيح وفى يده فراشة جميلة بوجه أنثى مكتملة الجمال ، كلما امتدت يد المسيح لتدهن أنف جرجس سقطت على مينا لتعيد إليه عنقود العنب الذى يكون على وشك الانتهاء. ثم تطير مرة أخرى لتمسك بيد صموئيل وتعطيه قبلة طويلة تساقط خلالها خمس وردات صغيرة كل منهن على هيئة سؤال من تلك الأسئلة التى أرقت الأب بشاى على مدار ستة وأربعين عامًا .

مسح جرجس الماء العالق بفمه ورفع الطاقية ومشى بيده على شعره الطويل بعض الشىء ووقف فى انتظار أن يعود الأب بشاى من سفره الطويل مع أفكاره التى لا يعرف عنها شيئًا.

أفاق الأب وأمسك بيد جرجس دون أن يتكلم معه ، واتجه إلى الحجرة التى ظلت على مدار أربعين عامًا تسمى بحجرة الشماس وتركه على الباب ومضى حيث تذكر أنه يجب عليه أن يكون الآن على الكرسى الهزاز ، وفى يده رسالة بطرس كما تعود منذ أن أخذ العهد على نفسه من ثلاثين عامًا. وقف جرجس لا يدرى شيئًا. تمنى فى الطريق أن يسأل الأب ماذا يصنع ولكنه أدرك ما فى رأس الأب من أفكار فلم يشأ أن يخرجه من تلك الأفكار.

دخل الشماس العجوز على جرجس فى الحجرة مع أفكاره وتصرف الأب ذلك التصرف الغريب معه .

– ماذا هناك أيها الابن ؟ هل أصاب بطنك مكروه ؟ أم أن أنفك تؤلمك ؟

– لا شىء يا سيدى . فقط ماذا أصنع يا سيدى الآن. بربك ماذا أصنع ؟ وامتلأت عيونه بالدموع.

– عليك أن تغسل وجهك ، وترتدى جلباباً جديدا ، حتى تحضر عظة بطرس الرسول.

هكذا قال الأب بشاى ، وتركه وخرج.

اتجه جرجس بخطوات منتظمة إلى المنضدة التى تستعمل كمذبح ، ومشى بيده على الغطاء ، وأمسك بالكتاب الموضوع عليها ، وأزاحه جانباً ، ورفع الغطاء. غمس يديه بالماء ، ومشى على وجهه ، ثم أعاد الغطاء مرة أخرى ، وأمسك بالكتاب بضربة واحدة. ، و مشى فى اتجاه الباب رغم علمه أنه لا أحد هنا. إلا أنه أغلقه تماماً ، ورفع الجلباب المتسخ. وضعه على المصطبة المصنوعة من الأسمنت والطوب والموضوع عليها حرام مصنع من وبر الأغنام ، ثم أمسك بالأثواب الأربعة ومشى بيده عليهم جميعاً ، ثم أمسك بالجلباب الأبيض ذى الخطوط الزرقاء ، وقربه من أنفه ، ثم رسم عليه علامة الصليب وارتداه. ثم ارتدى الطاقية التى ركنها وأفسح المجال لقدميه وأمسك بالأثواب الثلاثة وطبقها جيداً ووضعها فى الصحارة ، ثم أمسك بالثوب المتسخ بيده وفتح باب الحجرة ، ومضى فى الممر الذى يساوى مائة وثلاثاً وخمسين خطوة ، ونزل السلالم الثلاثة ، واتجه إلى سور الدير وأمام عين الماء وقف. كان يريد أن يشرب منها ، ولكنه فى لحظة واحدة غمس الثوب المتسخ فى الحوض ، وتركه ، ورفع الجلباب إلى وسطه ، ثم أمسك بالثوب المتسخ ، وراح يدعكه بيده بشدة دون رحمة ، ثم أمسكه بين يديه التى ظهرت عروقها وعصره أنزل الجلباب على ركبتيه النحيفتين ، واتجه إلى الحبال الموضوعة فى ركن من حوش الدير ، جوار العنبة التى يلعب تحتها الأطفال الذين ما إن رأوه حتى وقفوا ، ثم اتجه أحدهم إليه وسأله عن اسمه فقال :

– جرجس إبراهيم .

– منين يا جرجس ؟ .

– من الجانب الآخر للنيل .

– هل دخلت الدير ؟ .

- إن شاء الرب .

- أنت حاطط رأسك فى الأرض ليه ؟ أنت مكسوف ؟!

- أبدًا أنا أعمى .

انسحب الغلام إلى الأمام خطوتين ، فرفع جرجس رأسه ، وأمسك بالحبل ، ومشى بيده عليه ، حتى اصطدمت يداه بالمشبك الأول ، فأمسكه ، وخلعه من الحبل ، ووضعه فى فمه ، ومشى بيده مرة أخرى ، فأمسك بالثانى ثم وضعه جوار الآخر فى فمه ، وأمسك بالجلباب المغسول بين يديه ، وغيّر اتجاه وجهه بعيداً عن الأطفال ، ونفضه فى الهواء.

كانت الأطفال قد راحوا يتهامسون فيما بينهم ، حتى علموا جميعًا أن جرجس إبراهيم دخل الدير بالأمس ، وأنه أعمى ، وأنه من الجانب الآخر للنيل ، وضع جرجس الجلباب على الحبل بعد أن قلبه على وجهه ثم وضع المشبكين عليه . نظر إلى الأطفال وأستأذن منهم فلم يردوا عليه ، فغير اتجاه وجهه ومشى . وما إن تحرك خطوتين حتى اتجه إليه الولد الذى كلمه وقال له :

- هل ستشترك فى مجموعة الأطفال الذين يتلون الأناشيد ؟

أومأ برأسه دون أن يجيب عليه ، وهو يخطو فى الحوش. مشى الطفل بجواره وقال له :

- أنا مشترك مع الشماس بطرس ، وسأقول اليوم نصف رسالة كاملة وحدى حسب كلام " أبونا" الشماس .. هل تسمعنى ؟

- ما اسمك ؟

- اسمى منير ، وأنا أقول نصف رسالة بطرس الرسول ؟

- نعم وسوف أكون جوار الأب.

حين ذلك فتح منير عينيه وفمه وهو يقول :

– جوار الأب بشاي عند الهيكل ؟!

– نعم يا منير .

– أنت تكذب . لم أر قط أطفالاً تقف جوار الأب بشاي عند الهيكل طوال المدة التي دخلت فيها الكنيسة .هل أنت في مدرسة يا جرجس ؟

– لا .

– أنا في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة الشهيد . أنت تعرف رسالة بطرس دي صعبة قوي ، إحنا بقالنا شهرين كل يوم تلات بقراها مع أحد الرهبان أو أبونا الشماس ، وهو بيكون ماسك الصاجات .أنت عارف أنا كنت بنشد عادي. لغاية الواد عماد ما أبتدا يلعب ومايحفظشي. فجه أبونا الشماس وقال لي . أنت هتقرا الرسالة بدلاً منه .أنا بيني وبينك فرحت ، بس قلت بلاش علشان عماد ما يزعلش. لكن الواد عماد قال أنا مش هدخل تاني الكنيسة دي. والأسبوع اللي فات الواد ابن الكلب قاللي . المسلمين أحسن منا ، أنا أما أكبر ها روح الجامع . أنا قلت لعمي شكري أبوه النجار بتاع النجع ، جري وراه بالمنشار وكان هيموته. لكن أنا عرفت هو عاوز يخش الجامع ليه. علشان البت بطة بنت الجيران اللي ماشي معاها وشفته بيبوسها على السطح لكن أنا خايف أقول لأبوه لحسن يخبطه بالمنشار يموته.

خطى "جرجس"خطوات منتظمة في اتجاه السلالم فوقف منير ثم نادى عليه وقال له:

– متنساش يا جرجس أنا هاقول نص رسالة بطرس الرسول .

عاد إلى أصحابه الذين أنزلوا الثوب المنشور على الحبل ، وأخذوا يضربون به بعضهم . أمسك منير الثوب ، فوجده قد اتسخ ، فشتم العيال ، واتجه إلى حوض مارية ، وأخذ يدعكه مرة أخرى ، وعاد ، ونشره على الحبل. أقسم لهم بالروح القدس أن من يمسك بها سيضربه على قفاه .

دخل جرجس إلى حجرة الأب الذى كان ممسكًا برسالة بطرس الرسول. قام الأب ، وأجلسه على الكرسى الهزاز ، وجلس هو على الكرسى الآخر ، وراح يقرأ بصوت عالٍ الرسالة ، كان جرجس يستمع قليلاً ، وهو يفكر فى تلك الكذبة التى أوقعه فيها ذلك الشيطان وكيف سيبدو فى عين منير ، وأصدقائه حين لن يجده منير جوار الأب بشاى عند الهيكل.وضع الأب بشاى الكتاب جواره ، ثم أمسك بيد جرجس وقال له :

– سوف أدعو ، فارفع يديك هكذا .

ودُعى و جرجس يرد عليه ، ثم وقف وقال له :

– اسمع يا جرجس. حين أكون أصلى لا يدخل على أحد . حين يكون يومًا كهذا فيه نذر لا يدخل على أحد .

احمرت أذن جرجس ، وهو يستمع إلى تعليمات الأب بشاى ، وكاد أن يغرق من الماء الذى هطل من تحت إبطيه إلى صدره وبطنه .

نظر بشاى إلى وجه جرجس الذى تغضن من تلك التعليمات ، فلم يشأ أن يخالفها . وقف ، ورفع الجلباب الأسود ، ولبس الجلباب الأبيض ، ووضع الطاقية على رأسه وربط الحزام على وسطه ، ثم لبس الخف المصنوع من جلد الماعز ، وأخذ نفسًا عميقًا سمعه جرجس الذى كانت الدماء فى عروقه تحترق كقصب السكر ثم قال الأب :

– هيا بنا أيها الشماس الصغير يجب أن نكون الآن عند الهيكل.

ثم أمسك بيده ، وقال له :

– هذه التعليمات ليست من عندى ، ولكنها من عند المسيح . فلا تغضب هكذا .

ومشى بيده على الطاقية الموضوعة فوق رأسه ثم قال :

– وكى لا تغضب مرة أخرى ، سوف تكون جوارى عند إقامة الصلاة . سوف أقدمك اليوم كابن جديد للمسيح دخل الدير .

وقف الأب أمام الهيكل وأعطى للشماس الإذن بإقامة الصلاة . أمسك الشماس بالحبل المُدلى من أعلى السقف ، وجذبه بضربة واحدة من يديه ، ولم يرفعها كما فعل فى الصباح. لم ينتفض جرجس كأول مرة ، ولكنه أحس أن قلبه نزل فى قدميه ، وابتدأت الصلاة ثم وقف المنشدون الصغار يتلون أجزاء من رسالة بطرس ، ثم وقف الأب بشاى فى الإيوان ، ليعطى عظة بطرس. كانت العظة بسيطة ولكن روح الله والملاك المكلف بالأب بشاى كانا يصحبان كلماته. أدخلوها فى قلوب السامعين ، وسأل المعلم رياض الذى كان يبدو فى جلبابه الجديد ووجهه المتورد من الخمرة كديك شركسى .

الأب بشاى. ماذا يصنع فى هذا اليوم ؟ !

هرش الأب بشاى فى لحيته ، وأراد أن يقول لرياض دع الخمر ، ولكنه لمح فى عينيه ذلك التوسل فقال :

– توبوا ، وليعتمد كل واحد فيكم على اسم يسوع المسيح ، ليغفر لنا الخطايا ، ولا تنسوا أن فى يوم مثل ذلك منذ ما يقرب من ألف وتسعمائة وثلاثة عشر عامًا. انضم أكثر من ثلاثة آلاف نفس ، حين استمعوا إلى رسالة بطرس. ولتلك الرسالة هدف وحيد هو إثبات أن ربنا يسوع الناصرى الذى صلبه اليهود ظلمًا ، وقام من الأموات ، هو عين المحيا الذى تنبأ به داوود . جاء من نسله حسب الجسد . توبوا جميعًا وادخلوا إلى قلب يسوع الذى يسع الكون ، ومن كان فيكم حكيم أو عالم ، فلير أعماله بالتصرف الحسن فى وداعة الحكمة ، وليعلم الزانية والزانى أن محبة العالم عداوة لله ، فمن أراد منكم محبة العالم ، فليخرج الآن ، فقد صار عدوًا لله .أم تظنون أن الكتاب يقول باطلاً . فنقوا أيديكم جميعًا وطهروا قلوبكم ، وقاوموا إبليس ، فيهرب منكم ، واقتربوا من الله يقترب إليكم.

ثم جلس على الكرسى ، ليستريح قليلاً ، فأمسك الشماس العجوز بالكوب الموضوع جوار الهيكل وصب به عصير الليمون الذى كان قد حضره قبل بدء الصلاة

حتى فاض ، ووقعت بعض قطرات على الهيكل ، ومشى بيده المرتعشة يحاول المحافظة على الكوب المملوء أمام تلك العيون التى تفترسه ، ولكنه لم يستطع المحافظة عليه كاملاً. ضحك بشاى ، وهو ممسك من يد الشماس الكوب ضحكة الشاكر له والممتن ، لتلك المحاولات الجميلة ، لكى يحافظ على طراوة صوته . كان العصير مصنوعًا من الليمون المخلوط بالنعناع ، وبه كمية من السكر تكفى لعمل عشرة أكواب كاملة. رشف الأب رشفتين ، ثم وقف ، وأمسك بالكوب ، واتجه إلى حيث يقف جرجس من بداية الصلاة جوار الهيكل . اندهش المصلون لتلك الفعلة من الأب ، وراح الهمس يدور بين الصفوف. انتبه الأب لذلك ، فعاد إلى مكانه بعد أن كان يسقى جرجس العصير بيده تاركًا له الكوب حتى يكمله ، ثم طرق بيده على الإيوان إيذانا بأن يبدأ المنشدون فى تلاوة رسالة بطرس الرسول الثانية.

كانت يد الشماس العجوز المدربة على الإمساك بالصاجات الكبيرة هى الشىء الجديد الذى أدخل الفرح على قلب جرجس ، ثم وقف منير يتلو جزءًا كبيراً من رسالة بطرس.

ثم وقف الأب ، وقال للحضور : يُحكى أنَّ رسولاً بُعِث فى قومه ، وكان من عادته ألا يأكل الطعام دون ضيفٍ ، دون ونيسٍ ، مشاركٍ للحديث ، مستمعٍ له.

يبحث عن مستمتعٍ ، مستلذٍ بنارٍ ، تبعث دفئًا ورائحة جميلة لشاهٍ تُعَدُّ على مهلٍ ، شارح كيف أنَّ العلى القدير يسير معنا أينما كان اتّجاهنا .يُعين عثراتنا. إن العلى القدير يا ذاك – هكذا صرح وهو يُشير بأصابع السبابة متممًا للكلام – هو كل ما نحتاج إليه فى تلك الحياة ، وفى الحياة الأخرى. ولما كان الظهر قد مضى منذ ما يزيد عن ساعتين ولم يُشاهدْ زائرًا على الحدود .

راح يلفُّ حول المدينة. كلُّ الوجوه دُعيت قبلاً للمأدبة الإيمانية.هذا يومٌ محبطٌ . هكذا أسرَّ النبى لنفسه ، وهو يبدأ الخُطوة فى الجبل ، للبحث عن ضيفٍ يُؤنس طعامه .كان كلما مَرَّ الوقت ، كلما خفَّتْ حرارة الشمس ، وظهرتْ العصافير الملونة ، التى كانت تتبعه أينما ذهب مذ صرّهن ، ووضع أجزاءهن على الأركان ، ومن يومها تتبعه

حيثما يكون .الوقت يَمُرُّ دون ظهور شيءٍ فى الآفاق. أخيرًا ياربُّ !. شكرًا لك لأنَّك لم تكسرْ بخاطرى.ياربُّ بالغداة تسمع صوتى وبالغداة أيضًا أوجّه صلاتى نحوكَ .لأنك لستَ إلهًا يُسَرُّ بالشرِّ. لا يسكنُك الشرير. لا يقف المفتخرون أمام عينيك. وها أنتَ تُسَهِّل قُدّامى طريقى ، وتبعث هذا الجائع.دخل البيت هو وضيفه قبل زوال الشمس بلحظات.أمر بتجهيز الطعام ريثما يغسل الضيف يديه.دخل ، ليغسل يديه ، فخرَّب الماءَ.عند العودة تعمَّد أنْ يدخل من بابٍ آخر ، فانكشفتْ نساء البيت عليه.عند وضعِ الطعام كان قد مضى على الزائر فى البيت ما يقرب من الساعات الخمسِ.تدمرتْ خلالها كل أركانه.لم يتركْ أثرًا بعد عينٍ .حين عرض عليه بعض حظائره وأغنامه ، نظر نظرة الحاقد ، فخرّتْ الحملان سائغةً قبل أنْ يُدركها القدر. لقد فرَّت من البيت الفئران . حين جرى أصغر أبنائه أمام نواظره ، تَكَعْبلتْ قدمه فى السجادة ، فوقع على الأرض فاقدًا للحياة. لم تكنْ الدماء حاضرةً فى المشهد . لكنَّ دموع نساء البيت على مَن يموت تحولتْ دماءً.كان الصغير وكل ما أملك ابن موتٍ.قضاؤك وقدرك ياربُّ.لكننى فقط تشاءمتُ منه ، أَحْسَبه شوكةً زرعتها بقدمى يا الله! .أحْسَبُه حصى جَرَّشتَ به أسنانى فى ذلك المساء ، إن لم تسمعْنى يا الله!

فلمَن أُسيِّب شكواى وأحزانى ؟!.

هكذا قال الرسول فى نفسه ، وهو ينظر إلى الطعامِ الذى سئِمتْ نفسُه إياه .قال للضيف بشكلٍ قاطعٍ : سمِّ الله ، ومدّ يدك وكُلْ. هل تعلمون ماذا رد الضيف ، لقد رفض وجود إله من الاساس ، هو يا إخوانيٍ عبد ملحد لا يعرف إلهًا.

يا الله! لقد قال فى حق رسولنا أقوالا شنيعة .الآن أسألكم جميعا ، ماذا يفعل رسولنا مع ذلك الضيف. ارتفعت يد أحد الرهبان فسأله الأب أن يتكلم ، فقال على الرسول أن يطعمه.

أوقفه الأب بيده ، وسأله إن فعل إنسان ذلك معك هل كنت تطعمه .

– ده كان ضربه بالجزمة يا أبونا ؟

هكذا صرح المقدس رياض دون أن ينتبه ، وما كاد ينتهى منها حتى وجد عيون المصلين تتجه له ، ثم تتجه للأب الذى ارتسم على وجهه علامات الضيق ، فأحس رياض بالخوف وكثيرا ما كدر نفسه من سحبة لسانه التى كثيرا ما أوقعته فى الأخطاء التى يعترف بها دائما ، ويروح يقسم بينه وبين نفسه بالأب والعذراء ألا يفعل ذلك مرة ثانية ، لكنه دائما ما يسحب من لسانه ، كان يتفكر فى كل ذلك والأب ينظر إليه.

– ليس هكذا تتحدث الناس يارياض.

طأطأ رياض رأسه كالدجاجات ، وهو يستمع إلى همهمات المصلين وابتساماتهم. لم يشأ الأب أن يكمل الأسئلة ، ولهذا أنهى الحكاية قائلا : إنَّ الوحيَ نزل على الرسول اليائس من رحمة ربِّه ، و قال له : إنَّ رب العزة يُقْرِئك السلام ، ويقول لك : وسعتُه فى ملكى كل حياته ، وأنا أعلم به عنك . ولا تستطيع أنْ تسعه فى بيتك بضع ساعاتٍ ؟!

وهكذا أنهى القداس ، ورفع الأب يديه ، وأمسك بالمبخرة . نزل إلى الممر الضيق الذى يفصل بين الدكك ، وراح يرمى بالبخور فى المبخرة بعد كل صفين . عبق المكان برائحة البخور التى لم تجد أى صعوبة فى اختراق ذلك المرهم الذى حشى به أنف جرجس فانتشى للمرة الأولى بتلك الرائحة التى سوف تكون هى مخرجه فى لحظات الأرق والتعب.

انتهى الأب من توزيع تلك الرائحة على رؤس المصلين ، وعاد يرتقى السلالم التى تنام عليها سجادة لم يعد لها لون من أثر الأقدام الكثيرة التى مرت عليها. وقبل أن ينصرف المصلون رفع يديه ثم نادى على جرجس وقال :

– هذا هو ابن وعبد يسوع الذى دخل بالأمس هذا الدير ، وسوف نحبه جميعًا كابن لنا ، يمتحنه الرب . إلهنا فى عيونه. وسوف يعمد ، وادعوا الرب إلهنا أن يعطنى العمر ، حتى أكون أنا الذى أعمده وأرسمه ، وأناوله الأسرار فى ذلك اليوم.

على مدار أربعين عاماً وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً لن ينسى جرجس ذلك اليوم.

ذلك اليوم الذى وجد فيه نفسه أمام خمسمائة عين تنظر إليه ، ذلك اليوم الذى رسم فيه كشماس أول الدير.

استعد قداسة الأب من الصباح على غير عادته. ارتدى الجلباب الأبيض ، ودخل إلى حجرة جرجس الذى كان مسنداً إلى الحائط ، ويداه تنام جواره دون حراك كعادته دائماً. تعمد الأب أن يخبط بقدميه تلك الخبطات التى يفعلها حين يرتدى القبقاب الخشبى فى تمام الرابعة والنصف من عصر الأحد من كل أسبوع حين يكون فى الطريق إلى الحمام الأسبوعى ، فسحب جرجس قدمه ، وكان قد مضى على جرجس فى الدير تسع عشرة سنة. أصبح فيها الصديق الوحيد لكل الرهبان. خاصة الراهب صموئيل الذى حضر إلى الدير بعد دخول جرجس بخمسة عشر عاماً ، ومن يوم حضوره أصبح لا يفترق عن جرجس ، وهو الوحيد الذى سمح له الأب بشاى أن يقرأ لجرجس حين يكون الأب مريضاً بذلك الربو المزمن الذى يجعله ضيق الخلق متبرماً وصامتاً.

إن الأب بشاى سمح لصموئيل أن ينام مع جرجس الذى أصبح الشماس الوحيد لتلك الكنيسة. بعد وفاة الشماس العجوز وكان ذلك بعد دخول جرجس الدير بخمس عشرة سنة كان فيها قد تعلم على يد الأب بشاى كل تعاليم الرسل . وأخذ من فمه فى تلك الأمسيات الحارة التى تنطلق فيها الهوام والبراغيث جميع الأناجيل وحفظها عن ظهر قلب . وراح يعمل بكد فى حديقة الدير حتى أصبحت بعد مضى تسع سنوات مليئة بالأشجار المختلفة للفاكهة. ولم يعد هناك أية أوراق فى حوش الدير كما استطاع جرجس أن يحول مجرى عين الماء الخاص بـ "مارية القبطية" لتفيض على مساحة ثلاثة فدادين جوار الدير .

كان الأب قد اشتراهما فى تلك الأيام ففاضت بالمحاصيل المختلفة. وفى عيد التنيح الأخير لمارى جرجس الذى أحبه جرجس كحبه للأب بشاى حين سمع قصته من فم الأب . وقف جرجس وأعطى الناس عظة عن حياة ذلك القديس الذى

استطاع أن ينقذ المسيحيين بعد أن قتل منهم أكثر من ألفين حين كان كافراً. قبل أن يخرج عليه يسوع ويجلى بصره ويعيده إلى الحق. لن ينسى جرجس تلك اللحظة التى وقف أمامه المصلون ليردد عليهم تلك العظة التى لقيت استحسانا كبيراً من كل الحاضرين وجعلت الأب بشاى يطير من الفرح وهو يقوم ليأخذه فى حضنه أمامهم جميعًا. حين ذلك وقف الراهب"متّى" الذى كان قد دخل الدير منذ سنة ونصف وأمسك بيد الأب بشاى وقبلها وقال له أمام الحاضرين:

- اسمح لى يا أبى أن أعلن للناس أننى رغم قراءتى القليلة فى كتاب الأب العظيم "نيرودا "أبى الكنيسة الشرقية فى كيفية عمل نيافة الأنبا والأساقفة فى الأديرة فإننى لم أجد فى ذلك الكتاب أن أبًا لدير مثل ذلك الدير العظيم قد أناب أحدا أن يلقى عظة القديس العظيم وأبى الشهداء "مارى جرجس" فى يوم تنيحه. كما لم يأت فى كتاب أعمال الكنيسة الذى وضع عام ستمائة وثلاثة وستين على يد الأب العظيم"شنودة" الأول أن سيداً مثل الأخ جرجس وهو شماس صغير بعد لم يتم تبريشه ، قد قام بالوعظ فى وجود كل هذا الجمع . إن كان الأخ جرجس قد أحسن فعلاً إلقاء العظة فذلك الفضل أيضًا يرجع إليك. أنت معلمه ومحفظه تلك العظة التى كانت بعيدة تمامًا عنه لأنه لا يستطيع القراءة وعيونه عاطلة عن العمل. نشكرك أن منحت ذلك الأعمى ولا يؤاخذنى الأخ العزيز جرجس على ذلك فهى حقيقة تضاف إلى آباء عظام كالأب صموئيل المعترف مؤسس ذلك الدير. فقد كان أعمى أيضًا. فشكراً لك أيها الأب العظيم على منحك ذلك العطف لهذا الضرير.

حين ذلك تغير وجه الأب وقام من على الكرسى وسحب يده من يد الراهب"متّى" الذى كان يحتفظ بها أثناء الكلام. وقبض عليها ولم يشأ الأب أن يسحبها منه ، واكنه حين أنهى كلامه بتلك الجمل أحس بشاى أن الدماء تفور فى عروقه سحب يده بعد أن وقف وقال لـ "متى":

– شكراً أيها الراهب على هذا الإطراء الجميل الذى لا أستحقه ، ولكن يستحقه ذلك الشماس والقس الجميل جرجس بصير القلب والروح والذى يجب أن أمرغ رأسى فى حضنه أنا البصير الأعمى يا"متّى".

القسم الثالث

ريثما أبلع ريقى...
أو تملأ فاك الضحكة

كان " متّى" الذى أمضى ما يقرب من العام والنصف داخل الدير ورأى خلالها أن جميع الرهبان يحبون ذلك الشماس الأعمى ، ويعطفون عليه ، ولكنه استغل هذا العطف فى أشياء سيئة حسب تعبيره لصموئيل فى ذلك اليوم الذى دسّ فيه كتاب تعاليم الرسل فى الكتب المهملة فى المكتبة ، وطلب من جرجس أن يأتى به ، وحين دخل جرجس إلى المكتبة ، حكى لصموئيل عن لحظة قبول طلبه فى الدير ، وجلوسه مع الأب بشاى الذى سأله عن الاسم الذى يتمنى أن يُسمى به داخل الدير ، وما إن صرح به ، حتى هرش الأب فى ذقنه ، وكان حين ذلك يجلس على الكرسى الهزاز وجواره ذلك الأعمى وقال له :

– اختر اسما آخر أيها الابن حتى نط ذلك الـ"جرجس"وقال :

– ليكن اسمه كما أراد أيها الأب .

– فانتفض بشاى كالملسوع ووقف وقال لجرجس:

– تعال اجلس مكانى ، وامنحه مايحلو لك من الأسماء.

ولولا تدخله لكنت فزت بذلك الاسم بمجرد أن أقول له : إن أمى من برية"شهيت" تلك البلدة التى ينام فيها جسد أبى الرهبان السواح نيافة الأنبا "بيشوى" جوار الأنبا بولا الطموهى ، وإننى وعدت أمى أن أُسمى بيشوى ولولا ذلك ما تركتنى أدخل الدير ، فماذا أقول لها حين ألقاها ؟ هل تعلم يا صموئيل الطيب أنى الولد السادس لأمى والوحيد الذى دخل الدير كبيشوى تمامًا ولكن أمى لم تر المسيح قط. لم تره كأم بيشوى حين حادثها المسيح وقال لها: اعطنى واحداً من أبنائك يكون لى ، فأعطته أصغرهم ، وهكذا ترى أن ذلك الأعمى الذى يفوز بعطفكم جميعًا هو سبب ضياع حلم أمى الوحيد فقال له صموئيل :

– كان باستطاعتك أن تقول ذلك للأب يا "متّى".

– لم أستطع أن أرد على ذلك الرجل الذى لا تعرفه أنت ، وعرفته أنا من أول يوم دخلت فيه ذلك الدير. وقبل أن يقبل طلبى بأسبوعين استطاعت عيونه أن تسبر أغوارى. وقبل أن يقبلنى فى الدير طلب منى الاعتراف أمامه ، فدخلت معه تلك الحجرة الغريبة والتى يجب أن نعرى أنفسنا تماماً قبل أن ندخل إليها وذلك حتى ينظر فيها ذلك الأب. وطلب منى أن اعترف بكل شىء . فاعترفت بأخطاء بسيطة فما كان منه إلا أن وقف وأمر الملاك الذى يكتب الاعتراف أن ينصرف لأننى أضيع وقته. وطلب منه أن يذهب ليساعد جرجس. ذلك الأعمى مرة أخرى فى أعمال الفلاحة فى حديقة الدير ، فلم أجد إلا أن اعترف له بكل شىء. نعم كل شىء فهل أستطيع أن أقول له يجب عليك أيها الراهب أن تمنحنى اسم بيشوى لا. لا يجب ذلك ياصموئيل. حين ذلك دخل جرجس بالكتاب. فامسك "متّى" به من يد جرجس وقال لصموئيل :

– انظر أيها القس هذه هى أعمال الرسل كما يرى ذلك الأعمى. هل هذا من أعمال الرسل؟ أنا لا أعرف لماذا يحبك ذلك الأب الذى لا يصلح لأى شىء سوى أن يكون منادياً على عربات الأجرة فى موقف المدينة الصغيرة . يجب على هذا الأب أن ينام تحت الهيكل حتى يريحنا نحن أولاد الله. نعم يجب علينا أن عطف على كل أعمى شريطة أن يقف هو تحت الظل ولا ينظر للشمس حتى لا تتساقط رموشه أيضا . كما أمرنا الرب إلهنا ومن أجل ذلك أقول لك يا جرجس أمام صموئيل الذى يحبك كأخيه بكل محبة. عليك أن تدرب الأطفال الصغار على حب المسيح ، وأن تعمل بيدك فى الحديقة واعلم أن الرب يريد تأديبك ، فلا ترفض تأديب القدير. لأنه مع حجارة الأرض عهدك. وحمار الحقل خيمتك الآمنة ، فلا تفقدها وتبحث عن خيمة أخرى (فلن يؤكل الفسيخ بلا ملح) وأنت كما تعرف ليس لديك ملح ويدك لن تستطيع أن ترى النجوم ولكنها تحس بلسعة الشمس. فقط تحس بها ، ولكن لن تراها أبدا.

عند ذلك دخل الأب بشاى؛ فوجد جرجس ينتفض كالمحموم وصموئيل فاغراً فاه كالأبله ، و"متى" يتكلم؛ فسأل عما يحدث ولماذا ينتفض جسد " جرجس " فعرف ما

قال " متّى " من صموئيل . خرج الصوت من فمه كالسيل وأمر "متى" أن يذهب إلى حجرة الاعتراف ، ثم راح يكيل لجرجس الاتهامات وفى النهاية قال له :

– اذهب إلى الجحيم بقلبك ذلك .

بعد أن دخل الأب بشاى حجرة جرجس وضرب بقدمه بعض الضربات قال لجرجس :

– هل استطعت أن تنام جيداً أيها الشماس ؟

– ليسعد الرب روح سيدى ، وينير قلبه.

كلما دخلت عليك يا جرجس تسعدنى بدعاء جديد ، ولكن دعاء اليوم سأظل أحتفظ به بعد أن يدخلك صموئيل الهيكل عند جسد " مارية القبطية " . لأن يوم تعميدك الحقيقى هو يوم ظللت أحلم به على مدار عشرين عامًا وأنا أراك تنمو كل يوم فى إزهار الحديقة ، ونظافة الحوش ، وجرس الصباح الهادئ ، وماء " مارية " الذى فاض على الأرض ، وأناشيد الأم الحنون من فم الأطفال ، وطراوة صوتك حين تمنح المصلين عظة الصباح ، ودموع العجائز ليوم عيد تنيح "مارى جرجس" ، وقلب صموئيل الطيب ، وإشعال الشموع فى المساء ، وتغسيل أكثر من عشرين عائداً إلى الله ، وتوزيع الشريك بعد " أحد السعف"وقراءة الأناجيل فى المساءات الحارة ، وشفتك المختومة بعد تلقى الاعتراف. كل هذا رغم أن جسدك لم ينمُ أكثر من سبعة عشر كيلو خلال سبع عشرة سنة. فهيا الآن فاليوم يومك أيها الابن البار للأب "يسوع" وحان لنا أن نسعدك يومًا واحداً بعد أن أسعدتنا عشرين سنة. أقول لك وفى صباح يوم تعميدك شماس أول لذلك الدير الذى أعطيته روحك وقلبك طوال ما يزيد عن العشرين عاما. افهم ياشماسنا الجميل أنك عندما تنشغل بكل المحيطين بكَ تنسى نفسَك. عندما يصير لكَ أنْ ترْعَى مشاعر الآخرين ، تنسى مشاعركَ.عندما تُساعد كل الآخرين ، تنسَى أنْ تُساعد نفسكَ فى لحظة الخطر.وحين تنسى نفسك ، تفقد قوتكَ وقدرتكَ .لا تتأكدُ من طاقتك ، كما لا تقيسُ المسافة بالتحديد ، حتى لا تَزَلّ قدمكَ. زمن كل

الأشياء يضيع ، كل الأشياء ليستْ فى زمنها الصحيحِ. وقف جرجس وبخبطة واحدة أمسك بيد الأب بشاى وراح يقبلها ، لم يتذكرها إلا فى اليوم الأخير لحياته التى زادت عن ثلاثة وتسعين عاماً ، وذلك حين لم يحلم بذلك الحلم الذى ظل على مدار عشر سنوات.

كانت قاعة الطعام التى بنيت فى الأعوام القليلة الماضية ، وذلك قبل موت الشماس العجوز بسنة قد أخذت زينتها ، والشمس قد تخللتها والرهبان الذين زاد عددهم عن عشرين يجلسون على الكراسى الموضوعة جوار المائدة المستديرة . وفى الجهة المقابلة وقف صموئيل لكى يلقى بصلاة التعميد التى حفظها عن ظهر قلب حين يرفع الأب بشاى يديه. كان جرجس يرتدى زيًا أبيض مطرزًا بالخيوط الذهبية بالصلبان الصغيرة وعلى رأسه طاقية الشماس القديم التى أهداها له فى اليوم الثانى لدخوله الدير تنام فوق الطاقية التى أصر الأب"بشاى"على أن يلبسها جرجس.

أمسك بشاى بيد جرجس وأجلسه جواره على رأس المائدة ثم أمر الرهبان الذين وقفوا بمجرد أن رأوا وجه الأب بشاى دون حراك وبرانسهم مسدلة فوق وجوههم ، وأيديهم تحت الرداء الداخلى. رفع بشاى يديه فجاء صوت صموئيل رائقًا وحنونًا بأناشيد التبارك التى تكون قبل صلاة التعميد. كانت المائدة موضوعًا عليها الإفطار المكون من قطع الجبن القديم والمربى والبيض المسلوق وأرغفة البتاو وأمام جرجس وضع طبقًا عليه بعض الدسم. كانت عين بشاى تبدو مليئة حبًا لما تنتجه يد جرجس والرهبان من كل هذه الأصناف الموضوعة بتناسق على المائدة. انتهى صموئيل من قراءة الأناشيد وعاد إلى المائدة ليتناول طعام الإفطار قبل أن تتم صلاة التعميد على شرف جرجس. ويتناول ذبيحة ، وبعد ذلك يأخذه الأب إلى الهيكل حتى يمنحه بعض الإسرار. أمسك بشاى بيد جرجس كما هى العادة وراح يمر بها على الصحون الموضوعة أمامه. أطال إمساك يديه حين مر على صحن جرجس الخاص المملوء بالدسم ثم ترك يديه. أمسك جرجس بالملعقة فى صمت واستعمل اللغة المعهودة بينه وبين الأطباق فى المحاولة الأولى بأن تكون أصابعه جوار الطعام رغم إمساكه بالملعقة. وكان جرجس على مدار عشرين عامًا عاشها فى الدير. قد تعلم على يد الأب بشاى كيفية الأكل أمام أكثر من مائة عين مبصرة. دون أن ترتعش يداه. أو يهطل الماء من

فوق جبهته. فتروح حواجبه تعمل بكد وتعب فى تلك الحركة التى تجعل الجالس أمامه ينسى الطعام . أزاح الأب بشاى المنشفة المصنوعة من الكتان إلى يد جرجس حين رجع بظهره إلى المقعد فأمسكتها يداه ، ومرت بها على شفتيه ، ثم أعادتها إلى المائدة مرة أخرى فى اتجاه صموئيل الذى كان يجلس أمام جرجس من الناحية الأخرى للمائدة دون أن تصطدم بالأطباق الكثيرة. ضحك بشاى وهو يربت على ظهرجرجس. حين التقت عين صموئيل بعين الأب . وقف ، واتجه إلى المنبر. وقف الرهبان بدورهم ، وأمسك كل واحد منهم بطبق من فوق المائدة دون أن يحدثوا صوتًا وفى لحظات قليلة أصبحت الحجرة مهيأة لصلاة التعميد ، كان"متّى" الذى حضر إلى الدير منذ ما يقرب من سنتين قد دخل إلى الحجرة وهو يرتدى زيًا أبيض لم يره الأب قبل ذلك يرتديه ، ففتح فمه ، ثم نادى على جرجس وأمره بالاستعداد. وقف جرجس وعدل جلبابه الموشى بخيوط الذهب الذى أحضره الأب "بشاى"من القاهرة منذ ثلاث سنوات من أجل جرجس ، وحافظ عليه فى خزانته الخاصة من أجل هذه المناسبة .

أمسك"متّى" بقرص القربان واتجه إلى حيث يقف الأب بشاى فتناوله من يده وقال له:

– أتمنى من الله أن يدخل فمك من ذلك القربان شيء حتى لا تقول مثل ما قلته فى عيد تنيح الأب بيشوى ،

احمر وجه"متّى" وهو ينظر إلى وجه جرجس ، وعيونه التى استكانت تماما فقال بشاى" لـ"متّى" :

– لم يقل لى شيئًا يا"متّى". أنا عالم برأسك وما فيها .

وكان"متّى " قد حضر عيد تنيح الأب بيشوى بعد دخوله الدير بسنة وشهر ، وعندما أقام الأب"بشاى" صلاة قربان على الذبيحة الخاصة بالأب بيشوى السائح ، وزع كل الذبيحة على الرهبان العشرين و جرجس و صموئيل ، وعندما همّ أن يأخذ الجزء المتبقى من الذبيحة من يد الأب ، أغلق عينيه ، وفتح فمه فى انتظار أن تقبض أسنانه عل شيء ، ولما طال الوقت دون أن يحس بشيء داخل فمه ، فتح عيونه ، فوجد

الأب بشاى رافعًا يده اليمنى فى الهواء بمحاذاة فم " متّى " ويداه قابضة على الهواء. جرى " متّى " من أمام الأب الذى راح يرتعش ، وفى الصباح قال"متّى" ل-صموئيل إن الأب أكل ما تبقى من الذبيحة ، ورفض أن يمنحه أى شىء ، لرفضه من البداية أن ينيحه باسم ذلك الراهب أبى السواح. وعندما عارضه صموئيل الذى كان يقف بينه وبين جرجس عاد "متى" يقول له إذن أكل الذبيحة ذلك الشماس دون أن يدرى.

لن يعرف ما الذى حدث حين رفع الأب"بشاى"يديه

قل "لمتى" لا أحبك

لم يكن يعلم الأب بشاى أن الذى سرق من يديه الجزء الصغير المتبقى من ذبيحة الأب "بيشوى" وهب فى الطريق إلى فم"متّى" هو الملاك الذى حضر خصيصًا من " برية شهيت" حيث ينام جسد الأب بيشوى ذلك الذى لم يتحلل ولم تستطع تلك الديدان الشرهة أن تحلله ، وكانت المسافة طويلة جدًا عليه وهو الذى بلغ من العمر عتيًا فأخذها فى ثلاثين يومًا وليلة. يحضر عيد تنييح " القديس بيشوى السائح " فى كل كنائس وأديرة مصر . حين وصل إلى هناك جلس مع ملاك الدير بعد تلك الرحلة الطويلة عرف منه أخبار كل من فى الدير ، وعندما سأله عن أم القس"متّى" الذى ادّعى أنها من " برية "شهيت" ، وأخرج قائمة الأسماء التى خرجت من تلك البرية فلم يجد اسم أم"متّى" فقال الملاك :

– هذا الراهب كاذب ، أمه هذه لم نعرفها ، ومن أجل ذلك أقسم ذلك الملاك أنه سوف ينتقم منه أشد الانتقام ، وعندما فتح "متى" فمه فى انتظار تناول الذبيحة من يد الأب "التى كانت فى الطريق تمامًا إلى ذلك الفم ذى الرائحة الوسخة ، أمسك الملاك بتلك الذبيحة من يد الأب ورفعها عاليًا ووضعها فى فمه. وظل يضحك كلما تذكر شكل ذلك الـ"متّى" حين يفتح فمه ويغلق عيونه.

أتمّ الأب الصلاة على الذبيحة ، ثم قطع جزءًا كبيرًا منها وأمر"متّى" أن يفتح فمه دون أن يغلق عيونه ودسها فيه ، ثم راح يُقطّع أجزاء صغيرة ، ويناول الرهبان . بعدها

قسم الجزء المتبقى إلى ثلاثة أقسام بالتساوى ووضع أولها فى فم صموئيل ، ثم فى فم جرجس ، ثم دس الجزء الثالث فى فمه. حين ذلك سمع جرجس صوت الجرس ، وكان هو المسئول عنه منذ أن أقنع الأب بتغيير صوته . كاد جرجس أن يقع فى المر الكبير الذى يساوى تسعًا وثلاثين خطوة من التفاف ذيل الجلباب الفضفاض على قصبة قدميه. حين رأى بشاى رياض يقف بجوار الحبل المتدلى من السقف عرف أنه هو الذى ضرب الجرس بخبطات غير منتظمة.

- تأخرتم كثيراً أيها الأب. فظننت أن قداس الصباح لن يتم. فأمسكت بالحبل ، ولكنه أيها الأب صعب جداً أن يأتى ذلك الجرس بأصوات مثل تلك التى يأتى بها الشماس الجميل، وحق يسوع أنا مستعد أن أبيع كل الحبوب التى فى المحل ، ولن تستطيع تريزة أختى أن ترهبنى وذلك من أجل أن يعلمنى شماسنا هذا كيف يأتى صوت الجرس معه بهذا الشكل ؟

ضحك الأب والرهبان ، وانتهى الأب من صلاة الصبح ثم قال للمصلين :

- إن اليوم هو يوم الشماس جرجس ، و سوف يتلو عظة الصباح والمساء ، ويجب أن يتم تعميده أمام المصلين فى المساء وعلى الحضور أن يبلغوا الذين لم يأتوا للصلاة .

وقف جرجس فوق المنبر وراح يعظ الشعب القليل الذى حضر صلاة باكر ، نادى الأب على صموئيل وأمره أن يحضر السلم المزدوج هو والرهبان ، ثم أمسك بيد جرجس وقال له : اسمع ياجرجس فى مكانٍ ما مُضيئ تعيش أرواحنا جميعًا .مكانٌ يعرفه الواحد فينا ، كل على حدةٍ .فالبعض منا روحه هائمة مع الحبيبة الغائبة ، لسببٍ ما لا يعلمه إلا الله.والبعض أيضًا روحه فى أبناء لم يأتوه بعد. كثيرون تَحْضُر أرواحهم فى وجود الماء والطبيعة وأكثر أرواحهم تَحْضُر ، وهم يعبرون بأعمى فى إشارة المرور وآخرون يظهر المكان الخفى لأرواحهم وهم يضعون شخصًا ما تائهًا على بداية الطريق. بعضهم يرطب جرح المريض بألسنتهم. منا مَن روحه تظهر فى الانتقام.

ومنا مَن تتلألأ روحه ، حين يلْمَح صورة لامرأةٍ جميلة أو رسم جميل. قليلة هى الأرواح التى تمتلك الحكمة. المهم أن نعرف أين نجدها. وسوف تعرف الآن ما أقوله لك. دخل صموئيل يمسك رأس السلم ومعه ستة من الرهبان يحملونه. وضعوه فى الممر الضيق الذى يفصل الدكك عن بعضها ، ويمر فيها الواعظ ، وهو يمسك بالمبخرة ، ليمر بين الصفوف .

ركب جرجس ذلك السلم أكثر من مائة مرة فى مدة العشرين عاماً الماضية ولكنه لم يخطر على باله أن الأب بشاى يستطيع أن يركب السلم ذا الثلاث والخمسين درجة. ولكنه لم يفتح فمه حين قال له"بشاى":

– اطلع من هذا الجانب وسوف أصعد أنا من الجانب الأخر. وثب السلم من جهة اليمين ، وأنفه مازال يعمل بكد لمعرفة رائحة لذلك الذى يتسلق الجانب الآخر. حين استقر على الدرجة الأخيرة وجد يد الأب تربت عليه وهو يقول له:

– لن تنظف القبة يا جرجس كالعادة ولكن يجب عليك اليوم أن تمر بيدك على ذلك الرسم الذى حكيت لك عنه فى اليوم الأول لدخولك الكنيسة. رسم ذلك المبدع الأب" حزقيال" هل تتذكر يا جرجس. أومأ جرجس برأسه ، فأمسك الأب يديه وقال له :

– عليك أن تمر على الرسم وأنا أقول لك ما تحت يديك تماماً.

كانت القبة المرسوم عليها المسيح ، وجواره الحواريون الاثنا عشر"و"مريم العذراء"و"يوسف النجار" يمسك بيده ذلك الحمل الوديع. وضع "جرجس"يده على تلك الرسوم للمرة الأولى فى حياته دون أن يكون بينه وبين الرسم تلك المسحة المخصصة لحمل الأتربة. فأحس بالأجساد المرسومة تحت يديه كأن أعضاءها سكنتها الروح ، وأنارها الوحى ؛ فكادت تتفجر روحه، كانت الكلمات تخرج من فم بشاى ؛ فتدخل قلب جرجس الذى راح يحدق بيديه عندما سمع صوت بشاى يقول : أبونا المسيح. كان الرسم لرجل صارم وهادئ وعيناه تحدقان فى شىء ما. وشعره ولحيته المهيبة يسقط على وجهه وعلى صدره كأنه مياه عين "مارية القبطية"والتاج الذى يحمله على رأسه

مرصع بالأحجار الكريمة ، والقميص الأرجواني يسقط من حوله في دورات رحيبة على ركبتيه موشحاً بالتطريز والتخاريم بخيوط الذهب والفضة ، وكانت اليد اليمنى الثابتة على الركبتين تمسك بكتاب مختوم ، واليسرى مرتفعة في إشارة مباركة كانت أم متوعدة ؟ لم يعلم جرجس ، وكان الوجه تنيره هالة صليبية مزهرة ذات جمال خلاب. مر جرجس كالمنوم مغناطيسياً حول الوجه أكثر من عشر مرات وهو يحدد تفصيل ذلك الوجه الأملس . ثم مر على وجه "يوسف النجار" زوج "مريم" الذى بدا وسيماً ولطيفاً ، وجواره تماماً جلس أسد كبير ، وجهه ينظر إلى المسيح وجسده في الاتجاه الآخر ، كانت براثن الأسد قوية ورغم ذلك بدا في صورته هذه كأنه يحتضر ، رغم أنه فاغر فاه. ورغم تلك الصورة المروعة إلا أنه يبدو كأنه في انتظار أوامر ذلك الجالس الذى سيحارب الأحياء والأموات ، مر على الحواريين الأثنى عشر. كانوا يظهرون من خلال شفافية مياه بحر من المرمر ورغم أنهم يملئون تقريباً مجال الرؤية فإن صوت بشاى قد بدأ يتلاشى ، رغم أن ملامح العذراء قد سحرها ذلك الائتلاف بين محاسن دنيوية وعلامات سماوية عظيمة.

أفاق جرجس على حركة يد بشاى التى تعمل فى رأسه .

– أين ذهبت يا جرجس ، هذا الذى تحت يديك تماماً. هو " إشعيا " وجواره "جرجس"و "بولس". مرّ جرجس على الوجوه الأربعة ، فوجدها متشابهة إلى حد بعيد ، حتى أجسادهم الملتوية متشابهة ، وأيديهم النحيفة الطويلة مرفوعة وأصابعهم جميعاً ممتدة فى اتجاه بخار فم المسيح الذى يشى بأنه قد أخرج منه شيئًا يريدون الإمساك به. لم يحس جرجس بحركات السلم ، رغم أنه بعد ست سنوات حين صعد السلم لكى يجعل " مينا " ابنه يرى تلك الرسوم عن قرب ، كاد أن يسقط هو وابنه الذى كان قد أخذه من بيت خاله رياض بعد أن ظل خمس سنوات بعيداً عنه . أبعد صغيره خمس سنوات بسبب بعض الكلمات التى سمعها من فم الأب بشاى حين عمده ، وعندما كاد أن يسقط أمسكه الملاك من يده وأعاده إلى وضعه ، وبخبطة واحدة من جناحه حرك السلم. حينما استقرت قدم " جرجس على الأرض أحس بدوار يشبه دوار البحر. رغم أنه على مدار عمره لم يركب سفينة قط. أمسك به صموئيل ، وخرج أحد الرهبان مسرعًا بناء على كلمات خرجت من فم الأب بشاى ، وجاء بعصير الليمون

الذى ما استقر فى فم جرجس حتى أعاد له بعض التوازن ، فراح يحرك أنفه جيداً حتى جاءته رائحة الأب الذى كان يستريح من تلك المغامرة التى تفوق سنه بعشرين عاماً على الأقل. مشى بخطوات منتظمة رغم أن ذلك الدوار لم يكن قد ترك الرأس بعد ، وأمام الأب جلس على ركبتيه ، ثم أمسك يد الأب ، وراح يقبلها ، ويرمى بماء عينيه الذى صنع مع ماء ريقه ماء لزجًا. راح يمر بفمه وأنفه على يد الأب التى تحاول المرور من يد جرجس الممسكة بها بضمير. عندما خَدِلَتْ يد الأب ، واستكانت تمامًا ليدى جرجس ، كان الرهبان قد حملوا السلم. وصموئيل راكن ظهره على الجدار ، و"متّى"الذى كانت عيونه لا تستقر على شىء مثل قلبه تمامًا قد وقف يحدق فى حركات ذلك الأعمى مع أبى الدير الذى رفع يده إليه ، وراح يمر بها على شعر جرجس ، وأغمض عينيه ، وفمه الذى راح يفتح فى تردد بسيط دون أن يخرج منه صوت. دس الأب يده اليسرى فى جيب لباسه الأسود ، وأخرج المنديل ورفع رأس جرجس بسهولة ويسر ، ثم راح ينشف عرقه. سحب يده اليمنى من يد جرجس التى انزلقت دون مقاومة . أمسك بالصليب المدلى من صدره ، وأحكم إغلاق يده عليه ، ومشى به فوق رأس جرجس ، ولسانه يلهج بكلمات لم يتبينها "متى" ، رغم أنه قد خطى بقدميه بضع خطوات فى اتجاهها ، وهو يرى عيون صموئيل المحدقة فيه. وقف الأب وأمسك بيد جرجس الذى زال عنه ذلك الدوار تمامًا رغم أنه بدا فى عيون صموئيل البعيد عنه مقدار خمسين خطوة ضعيفًا ، وقدماه لا تستطيعان التحرك. تقدم "صموئيل" بخطوات منتظمة ودس رأسه فى حضن جرجس الذى ترك يد الأب وضغط بها على ظهر "صموئيل" ، ثم أمسكوا أيدى بعضهم واتجهوا جميعًا إلى الممر الذى يساوى تسعًا وثلاثين خطوة ، فدخل "متى" الحمام واتجه صموئيل والأب وبينهم جرجس إلى حوش الدير. خرجت الكلمات من فم بشاى محملة بالحب وهو يشرح لصموئيل والرهبان الثلاثة لكى يرفعوا الأوراق التى كانت تملأ الحوش. رفع جرجس رأسه شكرًا لله على منحه عطف الأب بشاى.

– سوف نزرع اليوم شجرة جديدة لك يا جرجس ، وادع الله أن يشمل جذورها بالخير حتى تنمو سريعًا ككل الأشجار التى زرعتها يداك. فماذا يكون نوعها ؟

هرش جرجس فى رأسه وارتفعت حواجبه كثيراً وهو يفكر فى نوع الشجرة.

– لتكن شجرة عنب يا أبت حتى نستطيع أن نأكل منها سريعًا .

– لتكن كما قلت أيها الراهب ، ولتكن جوار شجرة الأنبا "حزقيال" الذى شاهدت بقلبك عمل يديه منذ قليل. على أن يصل إليها ماء " ماريه " .

ثم اتجه يوجه حديثه إلى صموئيل وقال :

– أنت لا تعرف كيف أصبح ذلك الماء يغطى تلك الأرض الكثيرة. ببركة ذلك الشماس يا صموئيل .

رفع الأب بشاى جلبابه حتى وسطه وأمسك بالفأس الذى جاء بها سريعًا صموئيل وضرب الأرض ضربات جيدة أثمرت عن حفرة صغيرة أكملها صموئيل بخبطات أشد قسوة على الأرض ، ثم غرسوا فرع العنبة الذى أخذه الأب بشاى من غرس الأب يوسف والد " مارية" .

– اليوم أصبح لك غرس فى هذا الدير ويجب عليك أن تفكر فى غرس الحياة ، وذلك البيت الذى ينبت لك فيه ابن صغير يشاركك الغطاء القصير أيها الشماس.

ضحك صموئيل وقال :

– هذا ما يجب أن يصنعه جرجس إن شاء الرب .

رفع جرجس رأسه فى اتجاه الأب بشاى فى محاولة للوصول إلى ما يعنيه الأب وصموئيل . فلم يفز إلا بيد حانية على شعره ، وكلمة انتظر وسوف ترى. كانت الشمس التى تحاول المرور من بين أعواد وأوراق الأشجار الكثيفة التى طالت كثيراً فى العشر سنوات الأخيرة ، تشكل ظلاً كبيراً للأب بشاى وصموئيل وجرجس. تعمد "متى" أن يمشى فوقه وخطا خطوة واحدة أخرى ، ليستقر على الرءوس الكبيرة التى تنام على الأرض ، وما كاد أن يخطو خطوة أخرى ، ليستقر فوق صدر ظل الأب بشاى إلا ولمح تحرك الظل الخاص بجرجس ، ونظر إليه فوجد جرجس ينظر فى اتجاهه ، فوقف مكانه ولم يتحرك ، وجعله ذلك الموقف يشك على مدار اثنين وعشرين

عامًا أن جرجس مبصر بعض الشيء .

– لماذا لم تشاركنا غرس جرجس يا"متّى" . قال بشاى .

– أبدًا يا أبتى ولكنى كنت أفهرس المكتبة كما طلبت منى. مبروك غرسك أيها الشماس لتفرح عن قريب بغرس آخر يحمل اسمك.

– عن قريب أيها الراهب"متّى" ولكنى أحب أن أبنى له بيتًا أولاً.

كان جرجس الذى تشغله فكرة مد ماسورة صغيرة من شجرة الأب حزقيال إلى غرسه الجديد يستمع إلى الحوار الدائر بين"متّى" والأب بشاى وصموئيل بروح خاوية من الحماس ، لذلك الغرس الذى يقيمون له ذلك الحوار. أمسك بشاى بيد جرجس واتجه إلى القلاية المخصصة للرهبان بعد مبنى الكنيسة. وقف صموئيل ينظر للغرس الجديد ، ويدعو له و"متى" الذى كانت الشمس قد اختارت رأسه لتصب عليها حرارتها من خلال أوراق الأشجار ، يفكر فى ذلك الغرس ، ولمن سيئول ؟ وهل سوف يأمر بانتزاعه من الأرض حين يجلس على الكرسى بعد ما يقرب من عشرين عامًا ، كما خطط لذلك على مدار عام ونصف. لم يذهب خلالها للنوم قبل الواحدة صباحًا ، وهو يضع الفكرة ، ويطور تلك الأفكار ويختزن المعلومات والمفاجأة غير السارة بالمرة للذين سوف يؤرقهم أن يجلس فوق ذلك الكرسى .

– إيه أيها الراهب أين ذهبت ؟ هل تفكر فى كرسى الكنيسة الأرثوذكسية ؟

ارتعش قلب"متّى" ، وهو يسمع تلك العبارة من فم صموئيل ، ثم ارتعش جسده كله حتى أن صموئيل امسكه ، ووضعه فى صدره وهو يقول:

– ماذا أصابك يا"متّى" إنك تبدو كالمحموم ؟ ماذا أصابك بحق الرب ؟

– لا شىء ياصموئيل لا شىء على الإطلاق ، ولكن قل لى لماذا جاءتك تلك الأفكار الغريبة عن كرسى الكنيسة ؟

– كنت أضحك معك فقط .

– لا لم تكن تضحك .

– أبداً ولكن الأب بشاى قبل حضورك قال : إن"متّى" هذا سوف يصبح فى يوم أب الدير.

– هل قال ذلك؟ هل تقسم على ذلك؟ هل قال : إننى سوف أصبح أبًا للدير؟ أنك لابد تضحك.

– لا أعرف إن كان الأب بشاى هو الذى يضحك أم لا ؟ ولكنى أقسم لك أنه قال ذلك .

انسحب"متّى" فى هدوء عائداً إلى قلايته التى ينام فيها هو وثلاثة من الرهبان. كانت رأسه مشوشة بالأفكار التى أصبحت تهدد حياته كلها .

كيف عرف بشاى بأفكاره ، من أخبره عنك يا"متّى" ؟ ! أيها المسكين . أستطيع فى المسيح كل شىء.

كيف تملك الاستطاعة

أستطيع فى المسيح كل شىء.

هذه الجملة مفتاح لشخصية القس"متّى" كيف دخلت عالمه المستهتر؟!

فى البداية كانت حياته حياة عادية جداً . أسرة فقيرة ، ولكنها ليست معدمة. له ستة إخوة غيره. أقام علاقة مع ابنة عمه لم تكتمل. كانت علاقته بجده ذلك الرجل الحكيم ، أوما يقال عنه حكيمًا فى أهله وناسه علاقة طيبة فى بعض الأحيان. استمر فى دراسته حتى الثانوية العامة أو البكالوريا . كما كانوا يطلقون عليها قبل ذلك ، ورغم حالة الفقر إلا أن إخوته الخمسة متعلمون مثله أو أقل بدرجة. عمل فى مكتب للمحاماة ، ثم تركه وعمل فى مصنع للطوب. ثم تركه أيضاً وعمل بعض الأعمال ، حتى جاءت لحظة التحول فى حياته. لا شك أنه زار كنيسة دير العريان كثيراً . لا شك أن جده الذى أخذ كثيراً من صفاته كان يأمره بين الحين والحين بالذهاب إلى الكنيسة.

رغم أن"متّى" لم يكن وقتها قد أقام علاقة بالكنيسة. أحب فتاة اسمها أم كلثوم . ظل ثلاث سنوات على علاقة بها. عشقها حد الوجع . وكاد أن يعتنق الإسلام من أجلها ، ولكن للمسيح استطاعة جيدة. كما سوف نبرهن على ذلك ، ماتت أخته الصغيرة. كانت حين ذلك فى الصف الأول الإعدادى. ورأى"متّى" أول مرة ذلك القس الصغير فى الجنازة ، ولم يلتفت إليه ، لكنه حين حضر فى المساء كانت نقطة التحول فى حياة هذا الشاب المستهتر بالعلامات والاستطاعة. وجد جده الذى يسلم على الناس جميعاً المسيحى والمسلم ، وهو جالس نظراً لكبر سنه ومقامه بين أهله وجيرانه ، رآه يقف لذلك القس الشاب إجلالا. يبدو القس أصغر سنا ، حتى منه هو ذاته. زيه الكهنوتى يعطيه وقارا وهيبة. استمع له ، وكانت عيونه تلف وجوه الحاضرين وتخص وجه جده من بين تلك الوجوه بنظرة غريبة . هذا الجد الذى لا ينصت إلى أحد أكثر من ثلاث دقائق ، ثم يرفع يديه؛ فينتهى المتحدث من كلامه تاركًا لذلك الجد حق توبيخه على رأيه ، كيف يجلس كل هذا الوقت ووجهه نائم على كف يده والأخرى تمسك بالعصا ؟!كان فى الحقيقة مبهوراً لذلك السكوت العجيب من هؤلاء المشاركين لتلك اللعبة لهذا الشاب الذى لم ينته من كل شيء. كان يبدو أنهم لو تركوا له الحبل ، لاستمر لثلاث ليالٍ يقول دون أن تضيع من رأسه الأفكار. وفى تلك اللحظة جاءته تلك الفكرة

سوف أكون قساً وإن لم أستطع " سوف أكون أبًا على الأقل".

خذوا بالكم من ذلك أكون قساً .وإن لم أستطع أكون أبًا .

وعندما نقف أمام تلك الجملة نعرف مدى علاقة "متّى" بالكنيسة . هو لا يعرف أن القس مرتبة أقل من الأب بكثير.هو لا يعرف أن الأب يكون راعيا للكنيسة وسيدها هذا هو المستنتج الأول من تلك الجملة ، أما الثانى فإنه إذا لم يستطع وهو محور ذلك الفصل. الاستطاعة. ولهؤلاء المحللين جملة جيدة تقول"حين تملك الاستطاعة تفقد المستطاع" ، لم يكن صدفة أن يقول"متّى" فى تلك اللحظة التى يتحدث فيها ذلك القس عن الاستطاعة وحدها عند السيد المسيح وكيف تجلى لـ"بيشوى السوح " ، ومنحه تلك الاستطاعة حتى حمل المسيح ذاته بكل عنفوانه ، وحضور غير المتحقق.ولكن

بشبيه له. أن يقول"متّى" هذه الجملة التى شرحناها منذ لحظة فارقة ، وتسمى هذه اللحظة هى لحظة المفارقة ليس بطرحها النقدى. ولكن بطرحها الأولى .أى لحظة مفارقة لعالمه الأول ذلك العالم الذى حكى عنه"متّى" للأب"بشاى"حين أجلسه فى الحجرة الغربية وراح يخبره بأشياء قليلة. عين بشاى أخرجته من ذلك العالم مرة أخرى بكل تفاصيله إلى النور. رغم أن "متّى" وضع على عالمه القديم ألف سياج ومزلاج . فإن بشاى اخترقه بنظرات عيونه الثاقبة ، وهكذا تبنى"متّى" الجملة طيلة حياته . أصبح يرى من خلالها العلامات التى ساعدته كثيراً حتى جلس على كرسى الدير .

ولكنه رغم ذلك كانت فرحته كبيرة بذلك الانتصار الأول له داخل الدير. اعترف بشاى بأنه سوف يكون أبًا لهذا الدير. وإن كان يسخر منه ، فليسخر.لا بد يندم على ذلك فى يوم من الأيام ، ولكن على أن أحترس من تلك العلامة الجديدة. ما أكثر العلامات التى أضعتها يا"متّى"! لكن لا تحزن ، ولتعرف متى ترتدى ملابسك فى العتمة بعيداً عن عيون جرجس. جرجس مرة أخرى إنه العلامة الوحيدة التى أحس بها إن الرب غير راض عنى. أيقظته تلك العلامة من أفكاره التى ظل يغيرها كل يوم على مدار عام وتسعة أشهر . إنها علامة الأسى كما يزعم لنفسه دائمًا ، أو الغمامة اللامرئية التى تسكن روحه فى تمام الواحدة صباحًا حين يُتم رصّ أفكاره. يقول يجب أن أبعد ذلك الأعمى عن حياتى . وليكن خروجه مشهوداً.

دخل صموئيل على الأب بشاى الذى كان يعطى لجرجس تعليمات لحفل اليوم . بدا وجه جرجس مفعمًا وكأنه مسكون بالروح القدس .عيون الأب بشاى تدقق فى وجهه. تحاول المرور من فتحات الرموش لتصل إلى قلب ذلك الجالس أمامه بلا حراك. دخل الملاك الوحيد الذى يحرس ذلك الدير ، ونظر بطرف عينه إلى الثلاثة الجالسين ثم قال بصوته :

– يا لهم من مساكين. لا يجرؤون على الاقتراب من قلب جرجس ، ثم خرج دون أن يرمى عليهم ماء عينيه ليغسلهم كعادته.

فى الممر وجد"متّى" الذى يعرفه جيداً ، فوقف أمامه . خبطه بجناحيه. ذكره أن

الضعفاء لن يدخلوا مملكة الحب. لأنها مملكة قاسية وصارمة ، والقلوب التى تدخلها تكون دائمًا متعطشة للطمأنينة حتى تستطيع مواجهة الحياة .

رفع"متّى" رأسه عاليًا ليرى تلك العلامة الجديدة. الملاك طار مسرعًا ، ليبشر تريزة أن غداً ستسمع خبراً جميلاً. ستسعد به ثلاثة وعشرين عامًا ، منهم ثلاثة أعوام سوف تحاول تذكر تلك اللحظات السعيدة قبل أن تسقط فى الحوض القبلى بعد موت جرجس بثلاث سنوات ، وهى تجرى لتمسك إحدى العصافير الصغيرة التى ظلت ثلاث سنوات تجرى وراءها دون أن تستطيع أن تمسك بواحدة فقط . حين همت بإمساكها فى هذا اليوم ، كانت عيونها المشغولة بتلك العصفورة لا ترى ذلك البئر الذى أمر الأب"متّى"أب الدير بإنشائه نظراً لقلة مياه عين " مارية" ، وموت أكثر الأشجار التى غرسها جرجس.

حتى العين المباركة وأشجارك التى غرستها حزنت لرحيلك يا جرجس ، هكذا ستردد تريزة دوما بعد رحيله ، حتى تلحق به فى ذلك اليوم .

وقف"متّى" مذهولاً من خبطة الملاك ، لم يفهم ما الذى عاق تقدمه ، وأوقفه فى مكانه.

أستطيع كل شىء فى المسيح.

خرجت العبارة من فمه معبأة بخوف ومرارة ، وتذكر تلك العلامة التى سقطت منه بعد ذلك لمدة عشرين عامًا ، حين أمره الأب بشاى أن يمسك بجرجس ليخرجه من أمامه حين رفض أن يضع فى الصندوق الذى سينام فيه ابنه "مينا" مسماراً طويلاً. حين همّ "متّى" أن يُمسك بجرجس ، ليخرجه ، وقفت يداه فى الهواء تماماً. كما كانت تقف يد الأب بشاى حين أمسك بجزء من الذبيحة بعد حضوره بشهور ، وأخذها "جرجس"كما زعم لصموئيل ، ولم يستطع فعل شىء سوى تذكر تلك الواقعة التى مرت عليها قرابة العشرين عامًا أو يزيد ، ولم يكن يعلم أن الملاك هو الذى يمسك به .

حين خرج الأب بشاى وصموئيل وجرجس رأيا الراهب"متّى" يخبط الهواء بيديه كأنه يصارع إلهًا لم يره. ضحك بشاى وهو يسأل"متّى"عن سيفه الخشب حتى

يستطيع أن يفوز بهذه الحرب الضروس. كتم جرجس ضحكته وهو يقول :

– لا حرب هناك يا أبتِ ، الهوام كثيرة اليوم فى الجوار .

– لا شىء يا أبتِ ، ولكن الهوام كما قال شماسنا الجميل الذى لا بد أن الهوام تحتفل به اليوم مثلنا. بل إنى أزعم أن الزرازير يجب أن تحتفل به أيضًا لأنه استطاع بدهائه وفكره أن يخفى عناقيد العنب عنها أيضًا.

وضحك صموئيل حين قال ذلك.

– هيا يا "متّى" ، فاليوم علينا أن نأخذ أعمال جرجس كما أمر الأب ، وهى كثيرة كما تعلم.

أمسك صموئيل بيد"متّى" وهو يقول له :

– لا أعرف من أين نبدأ ولكن علينا أن ننهى كل أعماله قبل صلاة العصر كما قال الأب بشاى.

أمسك بشاى بيد جرجس وهو يداعبه ويقول له :

– يجب أن ترينى الطريق أيها القس. فإن عيونى تؤلمنى كما أن قدمى كليلة اليوم ، قلاية الأب بشاى ، جلس الأب بشاى على السرير ، وأمر جرجس أن يجلس جواره ثم قال له :

– يجب عليك اليوم أن تفكر فى تكوين أسرة ، ولتعلم أنه يجب عليك أن تكون لك أسرة صغيرة . فلا داعى للتردد .

ابتسم جرجس الذى لم يكن يفكر فى تكوين أسرة على مر الأعوام الماضية . رغم أنه قد قابل أكثر من امرأة عرف من نبرات صوتها أنها لن ترفض طلبه.

ولكن قلبه الملىء بمحبة لم يكن فى حاجة إلى امرأة تؤنس لياليه الطويلة وأحلامه الصغيرة. لم تكن بها قط امرأة .

– إيه يا جرجس. إيه رأيك فى اللى أنا قلته ؟

– كما تريد يا أبت .

خـرجت الكلمـات من فـمـه دون إرادته ، ولكنه حـين فكر فى تلك الكلمـات التى خرجت من فمه فى المساء ، ضحك كثيراً من نفسه التى لم تفكر فى امرأة ، أو تدعى أنها لم تفكر. مع ذلك خرجت تلك الجملة سريعًا .

– على خـيـرة الله. غـداً إن شـاء المسـيح نبـدأ بناء بيت لك جـوار الدير.ليكن فى أرض الابن الصـالح رياض ، التى تبـرع بـهـا للدير ، بعـد أن اسـتـقـام وتزوج. يرحم يسـوع أباه الذى مات من الخـمـر . بذلك تكون بالقرب منا حتى تسـتمع إلى صـوتى حـين يمـسك الشـيطان بقـدمى .رغم أننى لا أظن أن صـوتى يمكن أن يسـمـعـه أحـد خارج القلاية. ولكنك أنت يا جرجس سوف تسمعه بقلبك وسوف نشيد لك بيتًا جميلاً .

حين وجد أن رأس جرجس تنام على صدره دون أن يرد عليه ، قال له :

– أليس كذلك أيها الشـمـاس . سـوف تسـمـعنى وتأتى بـالصليب الخـشـبى الكبـير المعلق على أسوار الدير ، وتخبط خـبطة الشيطان ، فـيتحـول إلى أتان يعينك فى حـمل أوحال كثيرة يتركها المعترفون فى الحجرة الغربية.

ضحك جرجس وهو يقول :

– كما تريد يا أبت .

فقال بشاى :

– دعنى الآن ، واخرج إلى حجرتك ، واقرأ الأناجيل كلها . ذلك لازم يا جرجس.

– أمر أبينا .

خرج ، وهو يفكر فيما عرضه الأب عليه. لم يستمع إلى كلام الأب ، ولكنه عاد ، فأكد له أنه سيفعل ما يريده ، ولن ينسى جرجس هذا اليوم أبدًا .

فى المسـاء حـين أُقيمت صـلاة التـعـمـيد ، وكان شـمـاسنا فى الطريق ، ليصبح قسًا؛ همست له تريزة أخت رياض التى يعرفـهـا منذ أكثـر من عشر سنوات ، وكان يحس أنها تميل إليه كثيراً ، وتحب أن تساعده ، همست له بجملة واحدة . تلك الجملة

التى لم ينسها قط حتى بعد موت ابنه "مينا" بتسعة وعشرين يوماً ، وهو اليوم الأخير له فى هذه الحياة؛ قبل أن ينزل إلى جوار "مارية " ، ويرى وجه أبيه ، المسيح ، الذى مر بيديه عليه عشرات المرات فى قبة الكنيسة ، ويقول له الجملة التى قالتها له تريزة :

– كم أنت جميل اليوم! .

وكان الأب بشاى قد أخبره أن جمال الجسد فانٍ وزائل ، وأنه لا يستحق أى اعتبار ورغم أنه قد قضى عشرين عامًا فى الدير ولم يسمع قط حكمًا على جماله إلا أن تلك الجملة كانت لها وقع عذب فى مسمعه وقلبه. أثرت جملتها الوحيدة : كم أنت جميل اليوم ! تأثيرا لم يوصف على مر عمره ، وكاد أن يغمى عليه. رغم ذلك لم يشعر بأدنى خطيئة. لم يعترف بها فى يوم من الأيام. كل ما أحس به أنها كانت لحظة خيالية مليئة بالانفعالات ، وتناسب تمامًا روعة لحظته الآنية ، وكأنها علامة من تلك العلامات التى يمنحها يسوع له فى لحظات سموه فوق الحياة ، حين يكون قد فارق ذاته التى يتحدث عنها القديسون.

أحس بلذة هؤلاء القديسين حين يستطيعون فهم حالة تلك الصبية الجميلة الموجودة فى نشيد الأناشيد ، التى تبدو فى ثوبها المفتوح من فوق صدرها ، ويظهر من خلاله نصف ثديها .صبية ليست عذراء وتمارس الرزيلة ورغم ذلك يعاملها "سليمان" الرسول وكأنها ابنة الرب ، وكذلك القديسون ويغضون النظر عن ثدييها الجميلين ولا يقولون مثلاً :

" جميل حقًا ذلك النهد الذى برز قليلاً وممتلئ قليلاً ولكنه لا يتماوج بدعارة" ، لكنهم يقولون . كم أنت جميلة! شعرك كقطيع ماعز نازل من جبال جلعاد ، وشفتاك كوشاح من القرمز وخداك كنصف رمانة ، وعنقك كبرج دوار عليه ألف مجن" ، ثم يغضون الطرف عن ثدييها تمامًا وكم مرة ناقش الأب بشاى حين كان يسمع منه نشيد الإنشاد فى تلك الأشياء التى تعوق حواسه وتجعله يشت عن الإيمان! وكثيراً ما قال له بشاى :

- غدا إن شاء الرب يمنحك من يمكنك من فهم هذا ، ويخرس ذلك الجربوع الذى يتحرك كثيراً ليوقع فى قلبك الشك .

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة مساء يوم رسم الشماس حين دخل الأب بشاى على جرجس الذى بدأ فى ارتداء الجلباب الأبيض ذى الصلبان الصغيرة المصنوعة من أسلاك الذهب مرة أخرى ، ومع ذلك كان يفكر فى حالة مفارقة الذات التى فى أخبار القديسين .

- ما لك أيها الشماس! أرى بعض نقاط العرق على وجهك فيم كنت تفكر ؟

- لا شىء يا أبت .

- أنت خائف أن تقول إنك كنت تفكر فى مشروع الزواج ، وكلام القديسين .

لم ينتفض كعادته حين يسمع من فم بشاى ما يجول بعقله. لكنه ابتسم ابتسامة الشاكر والمحب .

أمسك بيده وخرج .

- كان من المفروض أن أعطيك هذه الأشياء بعد صلاة التعميد التى سوف تُرسّم فيها ، ولكن لا بأس.فتح حجرة الاعتراف ، ودخلوا ، جلس على الكرسى وجرجس أمامه ثم قال له:

- اسمع بقلبك ، لهذا الدير أسرار ، وأول أسرار الدير هو سر الرهبنة ، والرهبنة تنقسم ثلاثة أقسام ، هى التوحد كحالتى أنا تمامًا .. لى قلاية خاصة لا يشاركنى فيها أحد ، ثم الشركة وينام كل ثلاثة رهبان فى قلاية واحدة ، وينقسمون فى العمل إلى فرق حسب الأعمال المختلفة ، ثم الفردية المترابطة التى تمّ إنشاؤها فى الشرق على يد القديس" شنودة " وهى تجمع بين النمط الأول والثانى ، ومبادئ الرهبنة الثلاثة هى الفقر والرهبنة والعفة. الرهبنة مذهبًا صوفيًا يعتقد به الراهب أنه يرضى الله أو مذهبًا نفسيًا يهدف منه إلى اكتشاف قوى نفسانية كامنة فى الطبيعة البشرية ،

إنه عمل الروح القدس. سر الشركة والاتحاد بالرب ، وهذا هو قمة سر أسرار الرهبنة. فلا تحسب أن الشيطان يخرج من أجل بقرك لبطنك بيديك ، وخروج الدماء منها ، ولكن من أجل صلاة القديسين التى تحرقه تمامًا ، رغم أنهم غائبون عن الحياة. لتعرف ياجرجس أنك إذا أرضيت الرب إلهك وأغضبت الناس ، فأنت إذًا أرضيت الحق ونفسك ، وإن فعلت الشر فى عين الرب من أجل الناس ، فقد أضعت الحق وأضعت نفسك أيضًا .

ولن يتغير على الناس شيء كما لم يتغير على الرب شيء. أنت الوحيد الذى تفوز إن أرضيت الرب وأنت الذى تُحرق إن أرضيت الناس ، فاختر لنفسك ما تريد ، واعلم يا بنى أن للخنازير صغيرات ؛ منها العمياء ومنها العرجاء ؛ فلا تبصق فى عين العرجاء وتمشى بصليبك على قدم العمياء. فقط أبصق فى عين الخائبة ، ومر بالصليب على القدم العاطلة عن الحركة ذلك لازم أيها الشماس؛ ولا تدع موسى أن يفسر لك آية آية قبل أن تسمع صوته فى قلبك ، لحظتها فقط ، ادعُ موسى ، وسوف يأتى إليك. لتعلم أن كل الناس الذين فى المدينة سوف يذهبون إلى ملكوت السموات لأعمالهم الصالحة ، أما أنت فسترث العقوبة الأبدية لخطاياك إذا لم تقل حينها ، يا ربى يسوع المسيح ارحمنى ، يا ربى يسوع المسيح ، أعنى يا ربى يسوع المسيح أنا أسبحك ، فاغفر لى . إذا لم يزهد الإنسان فى كل أمور العالم حتى عمل يديه ، فلن يستطيع أن يكون راهبًا. لقد أمسك الشيطان بمنجل ليقطع للقديس "منقاريوس" خوصه الذى يحمله على ظهره ، ولكنه لم يستطع . هل تعلم لماذا لم يستطع الشيطان قطع خوص " منقاريوس " بمنجله.؟ مع أن ذلك القديس يصنع ما يصنعه الشيطان تمامًا ، فهو يصوم عن الأكل تمامًا كما يصنع الشيطان ويسهر أيضًا ، ولكن ذلك القديس يغلب الشيطان دائمًا شيء واحد . هل تعرف ما هو يا جرجس؟ تواضعه ، ومن أجل ذلك التواضع لم يقدر ذلك الأجرب على هذا القديس ، بل إن ذلك الجربوع حين أحس بعجزه تمامًا أمام ذلك القديس أمسك بالسكينة ووقف له ليقطع له رجله ، ولكنه لم يقدر على قطع رجله ، وبكى له ، وقال كل شيء تملكه ، أملكه أنا ، ولكنك بالتواضع فقط تتفوق علىّ ، وبه وحده تغلبنى. ليكن التواضع هو كل ما تملك ياجرجس لتعرف أن

البستان الوحيد يسقى من ينبوع واحد. ومع ذلك تنمو فيه أثمار يختلف مذاقها وألوانها. كذلك الرهبان فإنهم يشربون من عين واحدة وروح واحدة ساكنة فيهم ، لكن ثمارها مختلفة فكل واحد فيهم ثمرة مختلفة. وذلك على قدر الفيض المُعطى لكل واحد من الله ، ولتنظر إلى صموئيل و"متّى" وأنت تعرف أن المكان واحد ومع ذلك أنت تعرف ما أقصده يا جرجس ولتقف بعيداً عن النساء ولتعرف موقع قدميك قبل أن تقع فريسة لهن . فلن أنسى مطلقًا ذلك اليوم الذى كنت أدعو فيه ووقفت امرأة لتنظر إلى. فقلت لها اكسرى عينيك أيتها المرأة ، أتدرى ماذا قالت تلك التى أعطاها الشيطان حكمة داود .

– ماذا قالت أيها الأب ؟

قالت :

– استحِ أنت منى أيها الأب ، فكيف علمت أنى أنظر إليك ؟!

فأشرت لها بعينى التى كنت أضعها حين ذلك فى الأرض ، ثم رفعت عينيها هى علىّ ، فرفعتُ عيونى ، فقالت :

– أنا أعمل الواجب ، وأنت تعمل غير الواجب .

– فقلت لها ، فسرى يا امرأة.أتدرى ياجرجس أن سليمان نفسه لا يعرف كيف أدخل الشيطان فى حنك تلك المرأة كل هذه الحكمة . أقسم لك أن سليمان يجهل ذلك .

– كيف فسرتها أيها الأب ؟!

قالت :

– أنا أعمل الواجب لأنى خُلقت منك ، فأنظر إليك . أما أنت الذى خلقت من الأرض فلا تعمل الواجب وتنظر إلىّ. فلم أستطع أن أرد عليها. ومن يومها لا أتحدث مع امرأة أمام جمع من الناس ، فاحذر ذلك ياجرجس ، ولتعلم أن هناك غنيًا يحبنا ولكننا لا نبادله الحب ، وفقيراً يكرهنا و نحبه نحن .!

– هل تكلمنى ، كما كلمتك تلك السيدة أيها الأب ؟

– لم أقصد ذلك يا جرجس ولكن هذا الغنى هو الرب ، وهو يحبنا ونحن لا نريد أن نسمع له ، وذلك الفقير هو الشيطان ، وهو عدونا ورغم ذلك نحب أموره الضارة. ابعد عنه يا بنى ، فإنه يُسر بسقوط الذين يغلبهم ، ولتعرف أن الشيطان يمتلك أوعية الاحتيال على البشر ، وفى كل وعاء خدعة جديدة ، فبريشة الشهوات يكحل عين من يطيعه ويجلب النعاس والنوم لمن أراد السهر فى الصلوات والتسابيح ، وفى كل جزء من جسده تنام خدعة لهؤلاء.على مسامعه ريشة العصيان.على أنفه ريشة اللذة للشباب ، وعلى فمه ريشة النساك الذى يحن إلى الطعام ، التى على صدره ، فهى مخازن أفكاره القذرة ، أما التى عند بطنه فمن شأنها أنها تتوق إلى فعل سائر أنوا ع وضروب الزنا والعشق واللذات القبيحة ، والتى على يديه هى للقتل وضرب الجسد. المعلقة وراء ظهره ، فهى مملوءة بأنواع المِحَن ، والمعلقة على قدميه فهى العثرات التى يريد بها المستقيمين والمنطلقين إلى طريق الحق . احمِ قدميك من الذلة يا جرجس وابدأ عامك الجديد الذى سوف يكون عام خير عليك وعلى الدير بإذن ربنا يسوع.

ثم وضع بشاى يده على رأس جرجس وابتدأ دعاء بلغة لم يفهمها جرجس على الإطلاق رغم أنه سمعها كثيراً من فم الأب. أمسكه بيديه ، وخرجا من الباب الخلفى للكنيسة الذى يتجه إلى القلاية الخاصة بالرهبان. دخل إلى القلاية الأولى الخاصة بنيافة الأب بشاى أب الدير التى لم يدخلها راهب من يوم دخلها الأب خلفًا لأب الدير السابق ، ودخلها جرجس خمس مرات قبل ذلك ، ورغم أن الرهبان قد أدخلوا الكرسى ، فإنهم لم يرفعوا عيونهم فى محتوياتها.

أدخله الأب وأجلسه كما فى المرات السابقة على طرف السرير المصنوع من جريد النخل وعليه ملاءة تنام عليها عصافير زرقاء ، وحرام صوفى .

راح جرجس يعمل بأنفه حتى يستطيع أن يرى شيئًا. فتح الأب دولابًا أو هكذا هيئ لجرجس وأخرج زجاجة رجها مرات كثيرة حتى إن أنف جرجس قد شمت محتواها قبل أن تفتح ويضع الأب قطرات قليلة على راحة يده اليسرى ، ثم يغلقها بإحكام ويضعها جانبًا ، ويمسك بالصليب الخشبى المتوسط الذى كان معلقًا على

حائط القلاية جوارالكوة الصغيرة التى تأتى بالشمس الغائبة عن عين جرجس منذ مولده ، ثم نفخ فى ذلك العطر الموضوع على حافة راحته اليسرى وأمر جرجس أن يقف وقال له :

- تقدم خطوتين وانزل على ركبتيك.

نظر جرجس لبشاى ، ففهم ما يدور فى رأسه.قال له ارفع الجلباب إلى ما فوق ركبتك ، ففعل ، ونكس رأسه كعادته إلى الأرض. أمره أن يرفع رأسه قليلاً ريثما يطلق تلك الفراشات النائمة فى زيت"النيرون" ، فامتلأ حنك جرجس بضحكة أو شبه ابتسامة لم يرها الأب بشاى ، ولكن الملاك الحارس للدير الذى كان موجوداً فى تلك اللحظة شاهد تلك الابتسامة العذبة ، وظل قرابة عشرين عامًا يتمنى أن يراها مرة أخرى ، وفشل فى أن يلتقط مثلها منه ، وأخيرا فكر بالاستعانة بملاك آخر كان فى طريقه إلى بلدة جوار الدير ، ليساعد بنتًا بكرًا جاءها المخاض أو سوف يجيئها وهى تحمل صرة الأكل إلى زوجها فى الجبل ، فطلب منه أن يمر عليه حين يعود من تلك المهمة.

ولما عاد ذلك الملاك ، حكى له ملاك الدير عن عذابه الأبدى داخل ذلك المكان من عدم وجود تلك الضحكة التى أنارت طريقه على مدار عشرين عامًا وبكى لصديقه الملاك الذى كاد أن يبكى لبكائه لولا أنه فكر للحظة فى موقفه حين يعود ، وهو الذى لم يبك حين ماتت تلك البنت الجميلة التى جاء من أجلها . وعانى تلك المسافة الطويلة ، ليساعدها. تحمل كل ما حدث فى هذا الطريق الوعر الملىء بالشياطين الذين كانوا يقذفونه بأوراق كثيرة مليئة باعترافات لأناس ارتكبوا معاصى كثيرة . يئس الشياطين من عدم التفاته إلى تلك الأوراق التى كانت تلطخ ثوبه الذى كان أبيض قبل تلك الرحلة التى قال عنها حين عاد إلى بيته وسأله ملاك ضرير. كان قد فقأ عينيه تماماً حين ذهب ذات يوم ينقذ طفلة صغيرة سوف تمر على بطنها عربة كارو. إبليس ضحك عليه وقال له دع أمر الطفلة لى ، واذهب إلى الشارع الجانبى للحارة القادمة وأنقذ أمًا كبيرة يحاول ابنها قتلها ، ليفوز بالشقة ، ويتزوج من ابنة الجيران السيئة السمعة. أقسم له أنه لم يكن يعلم أن تلك البنت ابنة الجيران بذلك السوء ، وأن أم ذلك الولد

غلبانة هكذا. جرى الملاك الذى قال عن نفسه بعدها للملائكة الذين أتوا لكى يواسوه فى مصيبته أنه لم يكن يعلم أنه أهطل وعبيط بهذا القدر. ولما لم يجد تلك المرأة وابنها عاد طائراً ، فوجد العربة قد داست على بطن البنت تماماً وأخرجت الدماء من بين شفتيها القرمزيتين. قال الملاك لذلك الضرير لقد كانت رحلة قذرة لم أستطع أن أنقذ البنت ، كما أن ثوبى لن يعود إلى حالته لو أتيت بكل المساحيق العديدة التى تزيل كل الأوساخ. وإذا استطاعت تلك المساحيق إزالة الأوساخ العالقة بالثوب مثلاً. فكيف أنسى تلك الألسنة التى خرجت من أفواه الشياطين لإغاظتى حين لم ألتفت إلى الأوحال المرمية على ، ثم بكى لصديقه الضرير وقال له كم هى رحلة قذرة أيها الأعمى .

ولما يئس من إسكات دموعه التى كانت تنبت زهوراً صغيرة حين تنزل على الأرض استأذن منه وقبل أن يغلق الباب خلفه قال له:

– هكذا إذن سوف يكون هناك ضرير آخر فى مملكة العميان .

فنط الملاك على الأرض ، وحاول أن يمسك بشىء ، ليقذفه فى رأس ذلك الضرير الذى لا يستحى من آلامه ولكنه عدل عن الفكرة وضحك وقال له :

– عد إلى ، وسوف أحكى لك عن الشىء المفرح الوحيد لتلك الرحلة.

فقال له الملاك الضرير :

– أنت قذر يا صديقى . تبكى كثيراً ، ثم ترفض أن تجعلنى أنام مستريحاً ليوم واحد . كم أنت قاس أيها الصديق غير الطيب على الإطلاق ، ولتعلم أننى ظللت أسكن جوارك خمسة وتسعين عاماً ، ولم اكتشفت أننى مغشوش فيك إلا الآن !فقط أيها الصديق المزعوم ، إننى أرى أن هؤلاء الشياطين كانوا يعملون الحق معك وأنهم جد رحيمين. لأنهم لو أنصفوك للطخوا لك وجهك ونتفوا شعر ذقنك .

اغتاظ الملاك كثيراً ، فأغمض عيونه ، فرأى تلك الألسنة الطويلة لهؤلاء الملاعين ففتح عيونه وقال :

– لا تغضب منى أيها الأعمى ، واجلس حتى أصنع لك كوبًا من القهوة بالحليب ، حتى تهدئ أعصابك ، ثم تركه ودخل وعاد سريعًا بكوب القهوة وجلس جواره وأمسك الكوب فى يديه. فمشى الملاك الأعمى بيديه على حافة الكوب ، ليعرف مقدار ما فى الكوب. فسقط إصبع السبابة فى الكوب الساخن. لم يستطع تحمل الألم الناتج عن الحرارة على أصابعه ، فرمى بالكوب ، فسقط على جلباب الملاك الملطخ بالأوحال ، فلم يزد شيئًا فيه. ولكن الملاك أحس بالحرارة على أفخاذه الممتلئة وأراد أن يمسك ذلك الضرير من رقبته ، ويكيل له الضرب . وحين هم أن يفعل ذلك خرج صوت الضرير وقال له :

– لا تؤاخذنى فإنى ضرير .

فجلس يندب حظه العاثر الذى أوقع ثيابه التى كان يتمخطر بها أمام أقرانه من الملائكة الأخرين. الأقل مرتبة أصحاب الأردية المختلفة ألوانها بين يد هؤلاء الشياطين وذلك الأعمى القذر. ثم راح يحكى له عن صديقه الجديد ملاك دير الأنبا "صموئيل" المعترف فى أسيوط ، ، وكيف أنه أستطاع أن يساعده فى منحه ضحكة ، سوف تجعله يعيش على الأقل عشرين عامًا أو يزيد هانئ البال. قص عليه بعد ذلك حكاية هذا الملاك الجميل الذى عاش عشرين عامًا على شبه ضحكة منحها له شماس الدير يوم رسمه. وأنه استطاع بالصدفة البحتة أن يمنحه تلك الضحكة مرة أخرى من امرأة كانت تعترف لأب اسمه صموئيل. نظر فى عيونها حين ذاك ، فوجد نظرة مليئة بالحب.

طلبت كتاب هذه المرأة ، فوجدت أنها حبيبة ذلك الأب ، الذى كان سوف يتقلد كرسى الدير لولا تلك الضحكة. أزحت الستارة قليلاً ، ولكن ذلك الأب كان أبًا جميلاً بجد. لم ينظر من تلك الكوة التى صنعتها له ، فلم أجد إلا أن أعود إلى فونتات الصوت القديمة لتلك السيدة. طيرت فراشات صغيرة كنت رأيتها فى كتاب تلك السيدة منذ عشرين عامًا بدير ما حين كانت تقابل ذلك الأب – على فكرة هما يسكنان جوارنا هنا فى حدائق القبة – كانت تلك الفراشات التى طيرتها التى كانت تطيرها تلك السيدة لذلك الراهب كما قلت لك هى الخيط الأول لظهور تلك الابتسامة التى

منحها ذلك الراهب وتلك السيدة . وقف صموئيل وأزاح الستارة بيده ، وهو لا يعلم أنه بضربة واحدة من جناحى كنت أنا قد أزحت الستارة. لو كان فى حالته العادية ، لركع لتلك المعجزة ، ولكنه كان فى تلك اللحظة التى يقول عنها " كونديرا " ذلك الكاتب الكافر" فوق الحياة قليلاً " فلم يلتفت إلى تلك العلامة .وضع رأس السيدة فى حضنه ، ثم أمسك تلك الرأس بيديه ، وقربها إلى عينيه ، وحين ذلك أمسكتُ أنا بتلك الابتسامة أو الضحكة أو سمها ما شئت بيدى ، ولم أرخها ، حتى أمسك بها الملاك الذى كان مشغولاً بمحاربة الشيطان الذى كان يتخفى تحت تنوره تلك السيدة. منحتها إياه ، وتركته يضحك ، رغم أن الشيطان ذلك القذر كان يمسك بالقرطاس الذى خطفه من يد الملاك الذى يدون كل شىء.

وحين وضع صموئيل تلك السيدة التى نسيت اسمها فى حضنه ، لم يستطع ذلك الملاك أن يدون شيئًا . فخطفه ذلك الجربوع وأراد أن يدفسه فى عين الملاك الذى كان يضحك رغم أن ما حدث من الراهب والسيدة يُعد معصية ، فلم يجد الشيطان أمامه إلا أنا ، فرمانى بذلك القرطاس. وهو الذى صنع تلك النقطة البيضاء التى تراها فى ثوبى المتسخ.

آسف أيها الصديق .نسيت أنك أعمى تمامًا ، فلا تؤاخذنى فى ذلة لسانى. لتغفر لى ، ولن أصدق أنك غفرت لى إلا إذا ساعدتنى فى إزالة تلك الأوساخ العالقة بالثوب. ولكن ما يؤرقنى أيها الصديق الطيب أننى حين كنت فى الطريق وجدت فى جيب ذلك الجلباب المتسخ رسالتين بعث بهما صموئيل هذا إلى أب الدير وولد اسمه"مينا " . وقف الملاك واستأذن فى الخروج ، فقال له : لا تنس ، عليك أن تشترى كل المساحيق التى يعلنون عنها فى التليفزيون ، فضحك الملاك الأعمى الذى لم يضحك منذ سنوات طويلة وفى الصباح حين دخل عليه صديقه الطيب وفى يده صينية الطعام . وجده قد فارق الحياة ، وعلى فمه ابتسامة تشبه تلك الابتسامة التى أمسك بها حين أمسك الأب صموئيل برأس السيدة وقربها من عيونه ، فأقام له عزاء ظل لمدة ثلاثة أيام .

رفع جرجس رأسه كما أمره الأب بشاى الذى كان مشغولاً بالنظر إلى ذلك الزيت فى كفه ، ولم ير تلك الابتسامة التى أمسك بها الملاك وفر بجناحيه سريعًا. مشى بشاى بيده على جبين جرجس راسمًا علامة الصليب ، ثم مشى بالصليب الخشبى على رأسه وهو يتلو صلاة. كما تأكد لجرجس فيما بعد حين عاد إلى القلاية بعد ذلك اليوم بسنتين. وكان حين ذلك يحمل ابنه "مينا " لكى يعمد وألقى الأب صلاة التعميد ثم قال لجرجس:

– امسك هذا الصليب يا جرجس.

وأشار إلى يده الخالية من الصليب. لم يتبع حركات الهواء البسيطة التى أحدثتها يده حين كانت تموه عليه واستكان للحظة. مد يديه ، وأمسك بالصليب الذى كان الأب قد وضعه على السرير ، وترك يديه فارغة تشير فى الاتجاه الآخر. نزل الأب بشاى على قدميه دون أن يرفع جلبابه إلى ما فوق الركبة كما أمر جرجس فى المرة الفائتة ، ووضع جرجس فى حضنه وهو يقول :

– كنت أعلم أنك قادر ، كنت أعلم .. كنت أعلم ذلك جيداً يا جرجس.

ثم وقف كان يريد أن يسأل جرجس كيف عرف الصليب ؟وكان جرجس يريد أن يسأله لماذا فعل معه هذا؟ ورغم ذلك لم يطرح احدهم السؤال ، وظل حبيس قلبيهما ، كما سيظل سؤالان آخران حبيسى القلبين ، لكن لم تؤرق الأب بشاى كالأسئلة الأربعة الأخرى التى سأل فيها الملاك الحارس ولم يتلق إجابة .

– هذا زيت"نيرون" يا جرجس تلك الزجاجة موضوعة منذ ما يقرب من القرنين وهى مخصصة لآباء الكنيسة والدير فقط ، ولا أدرى لماذا منحتك ذلك النيرون ، ولكنى جد سعيد من أجل تلك المخالفة ، التى لو علمها نيافة البطريرك الأنبا " شنودة " لزحزح الكرسى الذى لا أحبه كثيراً من تحتى ، ولأعطاه لـ"متّى" المسكين الذى يبحث عن مسامير لذلك الكرسى الذى يتمناه وسوف يفوز به قبل موتى بست سنوات .

– لماذا تعطى لحاملى الصندوق مسماراً آخر كى يدقوه بحقدهم ؟ !

– لا تخف أيها الابن ، فالدعائم كثيرة ، ويكفى وجودك أنت و"صموئيل" داخل هذا الدير حتى يكون قويًا .

ابتسم جرجس. رغم أن قلبه ظل يعمل بكد من أجل موت ذلك المسمار الذى لو عرفه القس"متّى" لزحف على بطنه خمسين كيلو مترا من أجل إبلاغه للباب العالى والمجلس الملى.

– هيا بنا أيها الشماس العظيم .

خرجوا من باب قلاية الأب بشاى التى لم يدخلها غير جرجس وصموئيل الأول والشماس القديم وصموئيل الثانى . أما متى فقد دخلها خلال وجوده بالدير ثلاث مرات على سنوات متفرقة .

ثانى مرة حين جاءت رسالة صموئيل وكان يخبر فيها ذلك الأب القديم للدير أنه تزوج ماجدة وأنجب بشاى وأصبح عند الحكومة صموئيل .

ولحظتها نظر إلى القلاية جيداً عكس المرة الأولى ، ثم همس لنفسه عند خروجه بصوت سمعه إبراهيم الشماس الجديد الذى كان ينتظره عند باب القلاية من الخارج .

– كم هى فقيرة تلك القلاية .

حين خطى الأب خطوتين أمسك جرجس بيده ، ليوقفه ، ثم نزل بركبته أمامه ونفض رداءه الذى علق به تراب من أثر جلوسه على ركبتيه ، ولم ينتبه لذلك وعندما رأى الأب بشاى أن التراب العالق بالجلباب قد فر تحت خبطات يد جرجس نظر باتجاه الشمس التى كانت توارت قليلاً مخلفة خلفها أشكالاً هلامية .. ولكن بشاى استطاع أن يرى من خلال تلك الأشكال وجهًا يعرفه جيداً ، حين أعاد النظر إلى جرجس كاد أن يطير من على الأرض . ونظر مرة أخرى إلى المكان المحدد لذلك الوجه . وجده يُشير له ، فلم يحس بيديه التى أمسكت برأس جرجس وأحكمت إغلاقها عليها ثم سمع صوتًا يقول :

– أما إليكم يا جميع عابرى الطريق . تطلعوا وانظروا إلىَّ ، إن كان هناك قلب مثل قلبى الذى صنعه لى الرب فى يوم حمو فرحته. فليكف عينه عنى .

استكانت عصافير عيون بشاى وهى تزيح ذلك الماء من رموشه ليرى جرجس الذى خرج من ظهره نور ، ليتحد بذلك الوجه فى السماء .

– ماذا هناك يا سيدى هل أصابك مكروه ؟

بسط بشاى يده المسكة برأس جرجس ثم قال :

– كيف غطى السيد الرب بفرحه الذى يخرج من ظهرك يا جرجس؟ ومتى مد قوسه نحوك؟ ولماذا قصدك أنت ؟ وهل أنت أبو ذلك الذى أوصى به خيراً ذلك الذى تحمل خطيئة بنى الإنسان ؟

وظلت تلك الأسئلة الأربعة هى ما عجز ملاك ذلك الدير عن الإجابة عليها ، حين سأله الأب بشاى.

لم يكن جرجس الذى لم ير شيئًا على الإطلاق.على الإطلاق لم ير شيئًا ، ولكنه أحس بكل شيء .أحس ورغم ذلك لا يدرى ماذا يصنع لذلك الرب الذى منحه كل شيء. هل لا يعطى ذاته راحة؟ ومتى أعطى ذاته راحة من يوم أن دخل الدير ؟ هل يسكب ماء قلبه قبالة السيد؟ وكيف ذلك ، وهو الرجل الذى رأى مذلته فى الظلام ، فهو الذى قاده وسيّره فى الظلام طيلة ثلاث وثلاثين سنة ولا نور. قط لا نور ، حقًا إنه يعود ويرد على يده اليوم كله ولكنه بلا نور.

صرت لعبة يا الله "لمتّى". ورغم ذلك كثيرة أمنياتك وطيب هو قلبك . وبعدد العصافير التى تخرب عناقيد العنب مراحمك.رغم أنك تبدو لهؤلاء المذنبين والعصاه ملتحفًا بالسحاب ، حتى لا تنفذ صلواتهم إليك . فلا تتوهنى فى شوارع أنهك السافرون فى وسطها دم الأصدقاء والطيبين ، باسمك يا سيدى من الجب المظلم ، فلصوتى اسمع ولا تستر أذنك عن زفرتى ، عن صياحى ، ولا تملك أعدائى فى.هم يصطادوننى كعصفور بلا سبب ، فلا تخرج من فمى ذلك الحجر وتعطيه لهؤلاء لكى يصطادوا به بشاى.

هذا العصفور الجميل ، بلا سبب يا رب . يصطادون ذلك الأب الجميل.اردنا يا رب إليك. جدد أيامنا عندك ولا تغضب علينا جداً.

كانت الكلمات تخرج من فم جرجس محملة بماء العين وبشاى ينظر ما بين الوجه الواقف فى السماء بعيداً ، والوجه الواقف أمامه ويحدد الملامح واحدة تلو واحدة ليصل إلى الوجه الحق بينها ثم قال :

– من أجل هذا فرح قلبنا ، ومن أجل هذا يا رب كحلت عيوننا .

فانطفأ الوجه الذى فى السماء ، وعاد إلى جرجس فوجد أنه أضاع وقتًا كبيراً فى تحديد ملامح لا يوجد بينها أدنى اختلاف.

مشوا فى اتجاه الكنيسة وهم يسمعون صوت أجنحة الملاك الحارس للدير ، كخرير مياه كثيرة. كان صموئيل يقف أمام الباب المؤدى للكنيسة يمسك بيده سلة مليئة بالخبز.عندما دنا منه بشاى وجرجس أعطى كل واحد منهم واحدةً ، فأمسك جرجس بالخبز فى يديه ، فقال له الأب :

– اطعم بطنك واملأ جوفك من هذا الخبز الذى أعطاه لك صموئيل ، فلقد صُنع بحب. أكله جرجس ، فصار فى فمه كالعسل المصفّى. دخل إلى بهو الكنيسة الذى كان مضاءً بأنوار إضافية ، و مملوءًا بالناس ، وكأنه عيد القديس بولس الرسول . أمسك جرجس بقلبه وثبته فيه حتى لا يقع مثل أول يوم دخل فيه الدير ، ولكنه حين سمع حفيف الجلاليب الكثيرة كاد أن يسقط على الأرض ، فأسندته يد بشاى وجناحا الملاك اللذان كثيراً ما أقاما عثرته ، حتى بدا كواحد سليم دون خيبات فى عيون المصلين والرهبان.

حين مروره من بين الدكك اقتربت منه تريزة وقالت له :

– كم أنت جميل أيها الشماس! كم أنت جميل اليوم .أنت شاب جميل .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها حكمًا يخص جماله. وهو المشغول دائمًا بجمال الأشياء. كما أنه صعب عليه هو دون سائر الناس أن ينسى ذلك الحكم

حتى وإن كان كاذبًا ، ووقع قلبه الذى يمسك به وتأثر تأثيرًا لا يوصف. وقال فى نفسه ، من علم تلك البنت التى كانت تبدو خشنة فى تعاملها تلك الرقة؟! هل بعث لها الشيطان بتلك الجملة التى سوف تؤثر عليه على مدار عشرين عامًا وتسعة أشهر وتسعة عشر يومًا؟ ولماذا بعثها على لسان تريزة؟

تلك البنت الصالحة بعض الشيء ، التى لا تتأخر مطلقًا عن الصلاة ، التى تعمل فى الدكان بيديها؟! كم أنت قاسى القلب أيها الشيطان الأجرب. تريد أن تفسد على يوم عرسى؟ لن أعطيك تلك الفرصة ، ولن أرخى السوط الذى فى يدى عن ظهرك أبدًا. تماسك أيها الشماس لا تدفع "لمتى" بمسامير جديدة. يكفى ما دفعته بقلبك الأخرق. انتبه أيها الأعمى للشرك المصنوع لك بإحكام وانفد بجلدك ، فلن تبلغ السماء طولا ولن تخرق الأرض بعينيك المشغولتين برسم صورة للعذراء التى غابت عنك فى الصباح الثانى لرؤيتها ، وطمس عليها وجه أبيك الذى فى السموات. ضرب بيديك ، وأخبط برجلك وقل آه .على كل رجسك الشرير الذى يعمل بقلبك. دخل صموئيل فوجد جرجس واقفًا على بداية السجادة التى ضاع لونها من أثر الأقدام الكثيرة التى مشت عليها. وينظر إلى حيث لا اتجاه لبصره الغائب عنه منذ ثلاثة وثلاثين عامًا. مشى صموئيل مسرعًا وأمسك بظهر جرجس الذى كان فى تلك اللحظة فوق الحياة تمامًا وتعمل أفكاره فى محيط الشيطان ، الذى لم يكن موجودًا على الإطلاق فى تلك الجملة التى خرجت من فم تريزة وإن كان الذى أدخلها إلى فم"متّى" هو الشيطان ذاته. عند ذلك خرجت تلك الجملة من فم جرجس لصموئيل الذى ظل يفكر فيها طوال عمره ، دون أن يعلم باطن تلك الجملة ولا مغزاها فى تلك اللحظة.

بلغ اليوم ، فلا يفرح الشارى ولا يحزن البائع ، انتهى الدور إليك أيها الساكن فى الأرض. بلغ الوقت . بلغ الوقت ، فقال له صموئيل :

– ماذا هناك أيها الشماس وما تلك الجملة ؟

انتبه جرجس لصموئيل الماسك بكتفه ، وأدار وجهه إليه ، فهمس صموئيل له :

- ما تلك الجمل التى كنت تقولها أيها الصديق الطيب ؟

تحركت حواجب جرجس بطريقة عشوائية وهو يقول :

- أى الجمل تلك ؟ أنا لم أقل شيئا على الإطلاق .

فرفع صموئيل يديه ورسم علامة الصليب على رأس جرجس ، ثم أمسك بيديه ، واتجه إلى الهيكل حيث يقف الأب بشاى الذى قد انشغل بسؤال الرهبان عن الترتيبات النهائية لتلك الصلاة . وقف جرجس فى وسط الإيوان المصنوع من خشب البلوط وحاول أن يخرج كل الكلمات من فمه ولكنه أرتعش قليلاً ثم شكر الحاضرين جميعًا وخص بالشكر الأب بشاى وصموئيل والرهبان. كان قد حضر عظة الصلاة الخاصة بتعميده كشماس لذلك الدير من أخبار الرهبان ولكنه وجد نفسه يتلو الإصحاح السادس والسابع من سفر حزقيال ، ثم أنهى الصلاة والموعظة . كانت حين ذلك كلمات ذلك السفر تعمل على وجوه الحاضرين . وقف الأب بشاى يعلن للمصلين أن اليوم قد تمّ ترسيم الراهب جرجس كشماس أول للدير. وأنه سوف يعامل بتلك الصفة منذ الآن ، وله حق ممارسة عمله الذى كلف به منذ أربع سنوات أو خمس عقب وفاة شماسنا القديم ، وله الشكر على ذلك .وله الشكر من يوم دخل إلى الخدمة فى الدير ، وهو ابن الثالثة عشرة. ومن يومها أصبح لأبينا الذى فى السموات ابن صالح هو ذلك الشماس الذى يعمل بالخير . كل الخير فى عين الرب فادعوا له أن يستمر على الطريق ، حتى يمنحه الرب يسوع فاتورة حسابه بيديه الطاهرتين.انسحب الأب بشاى وخلفه الرهبان جميعًا وجرجس

وصموئيل و"متّى". سلم رياض على الأب بشاى وقبل يديه بحنو وعطف فربت على رأسه وقال له :

- ما أخبار ابنك يا رياض ؟

كان الأب يعلم أن رياض ظل جالسًا حتى مر من أمامه ، وهو لا يدرى لماذا هو جالس . فلكزته تريزة التى كانت واقفة حين ذلك ، فوقف أمام الأب بشاى ، وأمسك يده وفعل ما فعل .

– ما أخبارك يا تريزة ؟ أتمنى أن تكونى بخير ، فأنت ابنة صالحة .

فأومأت برأسها ، ثم مر جرجس من أمامها ، فتعمدت أن ترفع صوتها وهى تقول لرياض:

– انظر يا رياض كم هو شاب جميل فى ذلك الرداء ما أجملك أيها الشماس !

حين ذلك أمسك"متّى" بيد جرجس القريبة منه قبل أن يهتز تمامًا ويقع ، فنظر جرجس إلى السيد ثم عمل أنفه برهة ثم قال:

شكرًا لك أيها الراهب ، لا أعرف ماذا حدث لى؟يبدو أن الأنوار الكثيرة المعلقة اليوم قد أضرت بنظرى ، ضحك"متّى" و صموئيل واثنان من الرهبان الذين استمعوا إلى كلمات جرجس التى كانت تخرج من فمه ، وكأنه يلقى بجزء من الإنجيل. كانت هذه هى المرة الثانية التى يستمع فيها هؤلاء لتلك المداعبة الجيدة التى تظهر عند جرجس كل عامين لا أكثر.

عند الباب ترك"متّى" يد جرجس ووقف ليقول لتريزة جملة لم يعرفها رياض الذى كان مشغولاً بذلك الكلام الذى يخرج من فم تريزة والذى سوف يعرف عنه كل شىء حين يعود إلى البيت. لم يستطيع جرجس النوم إلا قبل الفجر. كانت الأفكار تنهش رأسه. فى السادسة صحا على يوم جديد فى حياته داخل الدير. غسل عيونه جيداً ، ثم ارتدى جلبابه الأسود الجديد الذى أعطاه له الأب بشاى مع الرداء الأبيض ، ثم خرج . ورغم أنه لم ينم أكثر من ساعتين فإنه أحس أن ذلك اليوم يبدو جيداً؛ حين لم يحس بذلك الصداع المزمن من أثر الواقعة القديمة. خرج إلى الحوش ، فوجد الرهبان القائمين على تنظيفه قد أنهوا عملهم. تسمع لبعض الرهبان الذين يرشون الحوش. سلم عليهم ، واطمأن على الإفطار ، ثم مضى ، ليوقظ الأب بشاى .طرق باب قلايته ، ثم عرج على باب القلاية التى ينام فيها صموئيل والأخرى التى ينام فيها"متّى" مع آخر ، ولم ينتظر الرد وما إن تحرك حتى سمع صرير الباب الصغير يفتح ، ويخرج منه القس"متّى" وهو يقول :

– صباح جديد نحمد فيه الرب أيها الشماس .

– صباح الخير إن شاء الرب .

مشى جرجس فى اتجاه الحجرة المعدة لتحضير الطعام ، ولكن"متّى"أشار إليه ، فوقف قبل أن تخرج أية كلمة من فم " متّى " الذى نظر للشمس التى كانت تنير كل شىء رغم أنها لم تكتمل بعد ، ثم نظر إلى الشماس وقال له :

– كيف عرفت أننى أشير إليك أيها الشماس ؟ !

– لا شىء جديد فى سؤالك ، كل أسئلتك تدور عن ذلك الذى منحه لى الله أيها الراهب ، للمرة الألف أيها القس ، أقول لك حركة ارتطام يديك بالهواء ذلك الحفيف الذى لا تسمعه أنت أسمعه أنا ، فأعرف حركة اليد والرأس والقدم .

– لا تغضب فى أول يوم تمّ رسمك ، وأصبحت فيه الشماس الكبير لذلك الدير ، ولا تنس أننا كنا أصدقاء . ما رأيك فى الأخت تريزة أيها الشماس ؟

فتح جرجس فمه دون أن يرد على تساؤل"متّى".

– هل كان سؤالى مفاجأة لك ، كل ما هناك أنى سمعت ذلك الغزل دون أن يكون لأذنى شر فى هذا الذى خرج بصوت عال من فم تلك البنت التى أحسدك عليها ، وعلى ذلك الحب الذى يملأ قلبها تجاهك.

حاول جرجس المضى فى اتجاه حجرة الطعام ، ولكن"متّى" الذى كان قد تحرك كثيراً فى اتجاه جرجس وهو يتكلم ، أمسك بذراعيه ثم ضمه بشدة وقال :

– ما زلت متخوفًا منى أيها الأخ العزيز لقد غفر الله لى ، وأنت لا تتجه بوجهك إلىّ لماذا أيها الشماس ؟

لقد أخطأت واعترفت أمام الأب بشاى بخطئى ، وقبل ذلك اعترفت للمسيح فلم لا تغفر لى ؟

أصابت كلمات"متّى" قلب جرجس ، فأمسك به وضمه إليه وقال :

– لا شيء أيها القس ، أرجو أن يغفر لنا الرب شرورنا الكثيرة .

عند ذلك قال"متّى":

– أخبرنى ما رأيك فى تريزة

– لم أفكر فى الزواج بعد .

– هل لى أن أمنحك علامة ؟ أنا المبصر الضرير كما قال الأب بشاى تلك السيدة تحبك فلا تفقدها .

ترك جرجس يد"متّى" الممسكة به وهو يقول:

– أشكرك أيها الراهب على ذلك الحب .

ثم دخل حجرة الطعام ، كان"متّى" يعرف متى يجعل ذلك الشماس يحبه ومتى يجعله يحقد عليه ويخاف منه ، ولذلك استطاع على مدار اثنين وعشرين عامًا وتسعة أشهر ، أن يقود العلاقة بينهما حيث يشاء. بقيم ثابتة ومعرفة راسخة بقلب جرجس الذى لا يحمل أدنى معصية ، وقف جرجس أمام الرهبان الذين يصنعون الغداء دون أن يحرك أنفه كعادته ، ويقول لأحد منهم ، قلب الفاصوليا جيد أو ارفع الإناء من فوق النار أو ضع ملعقة ملح أخرى .

كانت كلمات"متّى" ما زالت تلعب فى رأسه ، حين قال له أحد الرهبان :

– ماذا تصنع اليوم أيها الشماس ؟

– ما يحلو لكم أيها الراهب.

فرد آخر:

– معنى ذلك أننا لن نصنع أكل هذا اليوم أيها الأب ؟ !

– لماذا يا سيدى ؟

كـان جـرجس منذ أن وطئت قـدمـاه بـاب الدير لا يسـتـعـمل إلا تلك الكلمـة لكل الموجـودين داخل الدير ، ورغم أن الراهب الذى كـان يكلمـه لم يبلغ بعـد الواحـد والعشرين عاماً ، وهو فى بداية فترة الاختبار . فإنه كعادته دائماً . قال له يا سيدى ، ضحك الراهب وهو يقول :

– إن الطعام لغير الرهبان كما أن النساء للرجال والفن للفن.

خرج جـرجس بعد أن صـمـتـوا ، وهو لا يدرى مـاذا أصـابه من تلك الجملة التى قالتـها تريزة ، طرق باب قـلاية الأب بشـاى مرة أخرى حتى فتح البـاب القصـير الذى يحنى قامة من يدخله وخرج وهو يرتدى كامل ملابسه.

– أسعد الرب يوم سيدى.

– أسعد الرب قلبك فى يومك الأول يا جرجس ، يا أيها الشماس الأول.

– الأول والأخـيـر هو أبونا الذى فى السـمـاوات يعـمل بكد ويحب من أجلنا نحن الذين نصنع الشر فى عينيه تماماً. دون أن نأخذ حائطاً ونضع تحته ما يجب ألا نضعه.

– يبـدو أنك لم تنم جـيـداً ولم تؤدِ صـلاة النوافل هـذا اليـوم. هل كنت تفكر فى الحياة الأخرى؟ انتظر حتى آتى بكتاب أخذته أمس من المكتبة .

وقف جـرجس وراح يمـشى يمـيناً ويسـاراً دون أن يهـتـدى قلبـه وعـقله إلى فكرة واحدة أو دعاء واحد يساعده . من بعيد لمحه صموئيل ، فجرى إليه وهو يقول:

– مـاذا أصابك يا جرجس؟ ماذا هناك أيها الصديق ؟

– صـمـوئيل يجب أن أعـتـرف أننـى خنت الله فى قلبى. لم أنم أمس !! ولم أكن أصلى ! ولكن كنت أبحث عن شىء جميل فى وجهى جعل تلك الأخت تقول لى كم أنت جميل!.

ضحك صموئيل وهو يقول :

- هل استيقظ الأب ؟

- نعم .

- إذاً انتظر ، وسوف نذهب معه ، ونعترف أمامه ، وأنا معك ، لأنني لم أنم منذ ثلاث سنوات دون أن أفكر في تلك البنت التي أحببتها ، ولم أستطع أن أقيم معها حياة ، فجئت إلى هنا من أجل أن ينسيني الله إياها . ولكن الشيطان يذكرني دائماً بها .

منذ اليوم الأول لحضور صموئيل كان قد حكى لجرجس كل شيء عن تلك البنت ، وماذا فعلت معه؟.أتى الأب بشاي برأسه من باب القلاية ، فمد صموئيل يده وأمسك بيد الأب ليساعده . قبلها بعد أن سلم عليه ثم قال :

- يبدو أن ملاك ذلك الدير سوف يمسك بقرطاسين كبيرين ويفقأ بهما عين الشيطان

ضحك جرجس و صموئيل لتلك المداعبة التي كثيراً ما أخرجتهما من حالات اليأس والآلام التي تنتابهم بين الحين والحين ، ويعرفها الأب بمجرد النظر إليهم .

- هل نصلي إذاً ، أم نؤجل الصلاة ؟

كان هذا التساؤل الذي طرحه الأب بشاي غريباً على أذني صموئيل ، ولكنه حدث أكثر من مرة مع جرجس.

- كيف نؤجل الصلاة يا أبت .؟!

- أفضل أن أؤجل الصلاة نصف ساعة ويقف قلبان أمام المذبح ينشدان بالإله على أن أصلي وهناك تائهون بين خراف الله الضالة .

لم يستطع صموئيل الرد ولكن جرجس قال :

- هل تسمح لي أن أشد ذلك الحبل الذي يجب أن نغيره هذا الشهر لأن صوت الجرس بدأ في الانخفاض نظراً لأن الحبل تآكل .

مسح بشاي على رأس جرجس وهو يقول :

– أنت الآن تملك صدق قدير. اصنع ما شئت . ولكن على أن يكون ذلك الحبل من التيل النباتي وليس التيل المصنوع . ذلك لازم ياجرجس ، حتى نحافظ على التقاليد.

أومأ جرجس برأسه ثم مشى بخطوات مسرعة ، وأمسك بالحبل ، وضرب الجرس بخبطات هادئة ورزينة. رغم أن عقله كان ما زال يعمل في شكل تلك البنت التي هيجت قلبه بيديها ، ويفعل من عقلها. أتموا الصلاة ، ثم دخلوا جميعًا إلى الحجرة المعدة للطعام.

كانت الأيام الأولى قد انتهت ، ولم يعد هناك غير أسبوعين ، ويحتفلون بالعيد.أمسك الأب بالفوطة ثم وضعها في يد جرجس الذي لم يتذوق شيئًا يذكر ، وكانت عيون"متّى" و صموئيل والأب تتابعه وهو يحس بها كوجاء يعمل تحت صدره ولكنه لم يشأ أن يضيع الفرصة ، وقال للأب :

– يبدو أنني أكلت بالأمس ما عاقني عن تذوق طعام الصبح .

– هيا بنا الآن أيها الشماس ، ولكن لتعطِ أولاً أوامرك للرهبان الذين عليهم أعمال ، ثم تعال إليّ في حجرتي وليس في حجرة الاعتراف.

ثم ترك يده وخرج. دنا منه"متّى" ، وسأله عن تغير مزاجه ، وإذا كانت كلمات الصباح التي قالها له قد أزعجته نفى جرجس ذلك وهو يقول :

– يبدو أنني قد أصابتني عين من تلك العيون المغلقة التي لم ترني بالأمس

ثم نادى على بعض الرهبان ، وأمرهم بما يجب عليهم ثم قال لـ"متّى":

– عليك أنت الماشية اليوم أيها القس .

كانت هذه أول مرة يناديه بالقس أمام الرهبان ، إنها المرة الأولى التي يخبره دون أن يقول له أن الأب أخبره أن يقول له ذلك. انسحب"متّى" وهو يقول في نفسه

يجب أن يعلم ذلك الشماس أننى قس غصباً عنه. وأن من يعطنى أوامر داخل الدير هو أب الدير وليس شماساً أعمى ، ولكنه حين دخل إلى حجرة المكتبة ضحك فى نفسه وهو يقول :

– لماذا لم يعجبنى نداء جرجس؟ ولماذا غضبت وهو الذى قال لى يا قس؟ ولم يقل ياسيدى أو أيها الراهب. يبدو أن العلاقة فى منطقة العاطفة ، ويجب أن تستمر كذلك لمدة سنة على الأقل قبل أن أفعل ما يغضبه ويميل الميزان إلى الناحية الأخرى.

دخل جرجس على الأب بشاى فى حجرة رئيس الدير ، تلك الحجرة الكبيرة التى يجلس فى وسطها مكتب كبير أمامه بعض كراسى الفوتيه وخلفه وقف " تمثال الأب المخلص ، وهو مصلوب وفى يده حربة مكتوب عليها " أو سيأتى المخلص غداً " وجوار الكرسى الذى يجلس عليه الأب يقف الكرسى الهزاز الذى يجلس عليه ذلك الأب مدة لا تقل عن خمس ساعات فى اليوم الواحد. جلس جرجس أمام الأب الذى كان ينظر فى أوراق أمامه ، ويتفحصها بإمعان ، وبين الحين والحين يمشى بقلمه على الورق . دخل أحد الرهبان يحمل صينية موضوع عليها أكواب الشاى المخلوط بأوراق النعناع الأخضر المقطوع من الأرض المزروعة جوار الدير. وضع الراهب الصينية على حافة المكتب دون أن يصدر منه أى صوت ، ثم خرج ، وأقفل الباب. أنهى الأب من الأوراق ، ثم نظر إلى جرجس الذى كان يحرك أصابعه المتشابكة بحركة لا إرادية دلالة على عدم اتزانه .

كانت المرة الثانية التى يرى الأب بشاى حركات تلك الأصابع وهى تبحث عن كوب الشاى ، بعد أن تعلم جيداً متى يضع يديه ، وأين؟

– يبدو أنك مشوش الرأس ، ولم تغمض جفونك ، ثم أمسك بالكوب ووضعه أمام يده التى كانت تتحرك فى مساحة لا تزيد عن عشرة سنتيمترات.

أمسك جرجس بالكوب الذى كان قد برد تماماً ورفعه إلى فمه ، ثم تركه على المكتب.

– إيهٍ يا سيدى . لماذا لم ترد على سؤال الأمس ؟

– أى سؤال يا أبتى ؟

– تكوين أسرة يا جرجس لم تعد صغيراً . لا أعرف لماذا لا تعرف ذلك السؤال ! والليل مضى عليك ، وأنت تفكر فى تلك البنت التى سوف أخطبها لك.

لم تعد تلك العلامات التى تخرج من فم"بشاى"تثير الدهشة ، وتجعله ينتفض بقدر ما تزيد حبه لذلك الأب .

– ما رأيك أن نبنى لك بيتًا جوار الدير. فى أرض المقدس رياض ؟

– ما تراه يا أبتى .

– ما أراه الآن أنه لا داعى لأن تعترف بشىء ، فلم ترتكب معصية. وابن الإنسان يجب عليه أن يفكر فى حال الإنسان.أما الآخرون ، فلهم ملكوت الله.

وقف جرجس وهو يفكر فى تلك الجملة التى أحس بها تلسع مؤخرته ، وتجعله عاريًا أمام الأب ، عند الباب التفت فأحس أن الأب ينظر إليه فقال :

– هكذا يخرج الإنسان من الذى تصور أنه ابن الله !

انتفض الأب بشاى لتلك الجملة ، ثم وقف ، ومشى بخطوات سريعة كادت أن توقعه على الأرض ، وأمسك جرجس بيده وقال له :

– أنت ابن صالح لأبينا الذى فى السماوات ، ولقد أحب ابن الإنسان الذى يمنحه ذرية صالحة أكثر من ابن له يدخل القلاية ، ثم يمشى بين الناس وهو كاره لهم. هل تفهم أيها الشماس ؟ !

بكى جرجس فأمسك برأسه ، ودسها فى حضنه ، وقال :

– كم أنت غريب!. لقد تمنيت أن يكون عندى أسرة ، ولكنى كنت قد استخرت الله فى أن أكون بلا أسرة . هل تفهم ذلك أيها الابن ؟ !

ثم مشى بيده على وجهه ، وأزال الماء المتساقط من عيونه ، وقال له :

– عليك الآن أن تعمل بكد ، أنت وصموئيل وعشرة من الرهبان فى إقامة بيت جوار بيت رياض فى فترة أسبوعين فقط . لأنه فى ثالث أيام العيد سوف يكون عرسك أيها الشماس.

لم يعرف جرجس بماذا يجيب على الأب بشاى الذى ترك يد جرجس تمر على معالم وجهه لتحددها. وعلى باب المكتبة وقف"متّى" يحدق فيهم. كانت المرة الأولى التى يملك فيها جرجس ملامح وتضاريس وجه الأب الذى تصبب بالعرق ، لتلك اللمسات الخفيفة من يده .

استطاع الرهبان العشرة أن يشيدوا بيتًا من ثلاث حجرات وصالة وحمام ومطبخ فى مدة عشرة أيام ، وكان يساعدهم القس"متّى"وصموئيل ورياض وتريزة. كان جرجس رفض أن يرى تريزة أو يتحدث معها قبل إقامة الإكليل وقال لصموئيل :

– إن كانت تحس بى ، فسوف أحس بها ولكن بعد إقامة الإكليل.

القسم الرابع

" فتحة فى أعلى الحائط "

حين دخل جرجس على الأب بشاى سأله :

- متى ستطلع الجبل ؟

فقال جرجس لبشاى:

- لا داعى أيها الأب . لا داعى لذلك فماذا سوف يأخذ منى الرب إن كنت قسًا كبيرًا أو شماسًا صغيراً ، فأنا أعمى يا سيدى ، وأعرف أن الرب يمتحننى كما قال لى منذ أكثر من عامين القس"متّى" ، كما أن تريزة حامل أيها الأب ، وأنت تعلم أننى لا أستطيع الجلوس فى الشمس ستين يومًا. ويكفى لنا نحن أولاد الرب أن يكون لنا قس واحد مثل صموئيل يحدثنا عن ديننا بدلاً من عشرة لا يستطيعون القراءة.

دمعت عينا بشاى وهو يقول :

- لقد أعطيت أذنك لتريزة أيها الشماس. ولتعلم أنك برفضك ذلك منحت مسماراً جديداً فى صندوقى دون أن تدرى.

متى منحها الله قدرة كسر فوبيا النظر

جاءتها تلك القدرة لأول مرة حين أحست أن القس "متّى" سوف يسبب لها قهراً ما ، بعد أن التقت به بعد زواجها بشهر وبضعة أيام ، وراحت تحدثه عن عزم جرجس الطلوع إلى الجبل ؛ لينال رسمه كقس حسب طلب الأب بشاى عند ذلك حدثها"متّى" بأن ذلك الأمر لابد له ألا يحدث على الإطلاق . سألته عن كيفية عدم تحققه فقال لها :

- قولى لجرجس أى شىء .

- ما معنى أى شىء ؟

- قولى له : إنك حامل ، واتركى لى كل شىء بعد ذلك .

فأرادت أن ترفض الفكرة ، ومن أجل ذلك حركت رأسها ، وهى تنظر فى الأرض ناحية اليمين واليسار ، وكان القس"متّى" فى تلك اللحظة ينظر إلى حوش الدير وعندما وجدها لا تتكلم اعتقد أنها وافقت ، فانسحب من أمامها وهو يقول لقد اتفقنا أيتها الأخت الصالحة .

انسحب جرجس بهدوء دون أن يلمس يد الأب ، أو يقبلها ، وعند خروجه من باب الدير كانت الدموع التى نزلت منه منذ ثلاث ليالٍ حين أمسك بتريزة ووقعا على الأرض سوياً أقل كثيراً من تلك الدموع التى تشغل قلبه. كان منذ اليوم الأول لزواجه ، يترك الدير فى تمام الثانية عشرة ، ويعود قبل شروق الشمس. حين دخل إلى بيته سمع صوت أخيه الكبير يتحدث ، ولكنه ظنه المقدس رياض أخا تريزة. حين اقترب الصوت منه ، وشم تلك الرائحة تأكد أنه أخوه الذى ما إن لمح خياله ، حتى وقف وارتمى فى حضنه. أحس أن أباه قد أصابه مكروه ولكن أخاه طمأنه على حال الأسرة ، ولكن هناك بعض المشاكل ويجب أن يعود معه إلى البلدة وهكذا لم يستطع أن ينام. عند الفجر ذهب إلى قلاية الأب بشاى وأخبره بما قاله أخوه. استأذنه فى الذهاب. كان قد مضى عليه تسعة عشر عاماً ، لم يدخل فيها البلدة إلا مرة واحدة؛ حين تزوج أخوه ، ومشى ليلتها فى العاشرة من مساء ذلك اليوم ، ورغم أنه كان لا يعلم أنه قد مر أكثر من عشرين عاماً فإنه كان قد سافر فى قرارة نفسه أكثر من ثلاث مرات.

حين ركب العربة تذكر آخر مرة سافر إلى تلك البلدة ، ولحظة تمنيه أن يجلس فى مساء ذلك اليوم مع الحاج رمضان ويعرف أخبارهم ، ويرى ابن ستوته ، ولكن أحس أنه غريب عن البلدة ، فخرج منها فى العاشرة مساء.

فى الطريق حين كان يمسك بيد أخيه تذكر كلمات الأب بشاى الذى أمره بألا يعود إلا بعد انتهاء المشاكل ، ولا يخاف على أحوال الدير ، صموئيل سوف يتكفل

بكل شيء ، ثم راح يفكر فى أحوال الناس فى بلده الصغير ، وشيخ الخفر والمقدس عوض ولكنه تجنب أن يسأل أخاه. حين دخل الحجرة التى ينام فيها أبوه ، كانت أمه تمسك بقطعة قماش مبللة بالماء ، وتضعها على رأس أبيه الذى استكان ، ولم يعد فمه يتبرم حين يسقط الماء على رقبته. نظرت الأم ، ورأت جرجس. خرج صوتها المتحشرج من أثر البكاء يخبر ذلك النائم دون حراك. إن الراهب جرجس قد حضر ويجب عليه أن ينهض وينهى ذلك الدلع الذى يعمله من أجل أن يدخل ذلك الملاك الجميل عليه. ابتسم جرجس لأمه ودفس رأسها فى حضنه ، كانت لحيته الثقيلة تشعل مسام جلد وجهها ، ولكنها لم ترد أن ترفع رأسها من حضن ابنها . انتبه الأب قليلاً ، وخرج صوته ، كان الصوت آتيًا من قبر بعيد. خطفت الأم رأسها من حضن ابنها ، وأمسكت بيد ذلك الجمل النائم ، وعيونه مليئة بالدموع. جلس جرجس على حافة السرير ، وأمسك بيد أبيه وقبلها طويلاً. كانت الدموع الساخنة تسقط على يد الأب الذى انتبه تمامًا لحلمه البعيد بأن يرى أحد أبنائه قسًا فى الكنيسة. أحس بالسعادة لذلك الرداء الكهنوتى وتلك اللحية والنظارة السوداء التى تخفى اهتزازات جفونه عن عيون المتطفلين والتى أهداها له صموئيل يوم عرسه ، ولم يرد جرجس أن يضعها على عيونه ، لولا كلمة ألقاها الأب بشاى فى أذنه لم يتبينها صموئيل ، ولكنها أرعشت جسد جرجس الذى لم ينتظر أن يقولها ذلك الأب بشاى مرة أخرى ، فوضعها على عيونه قبل أن يرتعش مرة ثانية ، ولم يكن يعلم تلك الجملة إلا الملاك الذى سمعها من قبل من فم تريزة ، وهى تقولها له بعد خروجه فى يوم رسمه ، وسمعها من فم الأب مرة أخرى . كانت يد جرجس تمر على الوجه المتغضن والبارز العظام فى محاولة منه لحفر تلك الملامح فى قلبه ، والأب يغمض عينيه بين الحين والحين ، ليخرج الماء الذى يعوق رؤيته ، وأصابع اليد التى أصبحت طويلة. ورغم ذلك نحيفة كما تركها منذ تسعة عشر عامًا ، ولم يكن يعلم حين ذلك أنها أكثر من عشرين عامًا . كان جرجس يريد أن يعتذر لأبيه عن الفجوة التى ألمت بعلاقتهما ، منذ أن ضحك عليه أبوه حين ارتدى قميص الأب بشاى وكان حين ذلك يبلغ من العمر ثلاثة عشرعامًا قال جرجس لأبيه.

– ألا تنتظر أيها الأب حتى ترى ابنى ، وبعد ذلك افعل ما يحلو لك.

كانت تلك الجملة كفيلة بأن تسقط ما تبقى من ماء مملح فى عيون الرجال وأن تجعل عيون إخوته وأمه حمراء كما رآها حين صافحهم بيده ، وهو عائد فى المساء إلى الدير.

جلس الأب على السرير وكأنه مصاب ببرد طفيف ، وأمر بإحضار الطعام من أجل القس جرجس. تحلقوا حول الأب ، تبادلوا الحديث الودود ، حتى إن الأم أحست أن زوجها شفى تماماً ببركة ابنها العائد إليها الآن بعد غياب زاد عن عشرين عاماً. لم تره طوال تلك المدة إلا فى الأعياد سبع مرات ، وحين حضر فرح أخته وهى التى لم تكن تستطيع أن يظل بالخارج حتى الظلام. كثيرا ما تشاجرت مع أبيه لاصطحابه معه دائمًا إلى جلسات المرح مع الحاج رمضان فى حديقة البيت الكبير ، وكانت كثيراً ما تتقصى عليهم من بعيد . لا لشئ إلا لأن ترى وجه ابنها الذى جاء إلى الدنيا ، وعيونه ممتلئة ضحكًا ، ولم يستمر ذلك الضحك كثيراً ، وفقد نظره بعد ولادته بثلاث سنوات أو أربع . من يومها صار ذلك الولد هو كل همها فى الحياة. رغم قسوته التى كانت كثيرا ما تحكى عنها لأبيه فى المساءات الباردة حين يدخل ذلك الأب إلى فراشه فتقول له :

– لقد خلق الله جرجس بقلب أعمى ولم يخلقه أعمى يا أبا جرجس!

فيربت الرجل على رأسها ويقول لها مخففًا ذلك المر العالق بحنكها :

– لا تنسى أيتها الأم أن ابننا هناك يعمل للرب من أجلنا حتى نستطيع أن نقف أمامه ، وأيدينا مملوءة حين يسألنا عما صنعنا فى الحقل.

حين ذلك تنظر فى عينى زوجها جيدا ، ولا تجد إلا الدعاء له ولـ"جرجس"وكثيراً ما أيقظها الأب فى مساءات أخرى وهى تبكى من أجل فراق الابن ، فيعدها بالروح القدس أن يأخذها إليه فى عيد السعف القادم ، فتغمض عيونها على ماء ولقاء برأس ذلك الولد ، حين ترتطم بزوج اليمام النائم فوق صدرها ، فتعيد إليه

الحياة. ويطير إلى أعلى القبة المنتصب فوقها صليب ، ويقف هناك ، ولكنه حين يأتى العيد وتقف أمام ذلك الابن الذى ينشغل عنها بعمله فى الدير فى تلك الأيام المزدحمة ، تعود وزوج اليمام لم يتحرك ولم تسمع هديله للحظة من أجل ذلك القاسى القلب.

حين دخل الحاج رمضان على أبى جرجس ووجده جالسًا أمام الطبلية وحوله الأبناء والبنات ، صلى على نبيه كثيراً ، ثم جلس جوارهم يشاركهم الطعام ، رفعت البنات الطبلية وجاءوا بالشاى الثقيل.

– تسع عشرة سنة ياجرجس أو يزيد عن ذلك بسنتين مرت ، وأنت لم تعد كما كنت. ما الذى غيرك عنى ؟ وما الذى جعل قلبك قاسيًا تمامًا على أمك وإخوتك ؟! لماذا لم تعد تترك يدى تنام على رأسك ؟

كانت تلك التساؤلات تدور فى رأس الأب الذى أحس أنه شفى ولم يعد مريضًا ، ثم سأله عن الوليد الذى ينتظره جرجس:

– " مينا " إذا كان ولداً .

ولم يكن يعلم حين ذلك أن الأب يريد أن يسمى الوليد باسمه ، ولذلك أحس بنغزة فوق القلب ، فأزاح جسده على السرير ، وعادت تلك القطرات الخفيفة من العرق تغطى وجهه كله. أحس جرجس بمدى خيبة الأمل عند أبيه ، فنكس رأسه فى الأرض ، وهو يفكر فى ذلك الاسم الذى خرج منه دون أن يعلم ما جعله يطلقه. كيف خرج ذلك الاسم منه ؟ !

– ما الذى أضحكك علىّ حين ألبسنى الأب بشاى قميصه ؟

كان السؤال مفاجأة للأب الذى زادت حبات العرق على وجهه كثيراً . ولم تلحظها يد جرجس النائمة جواره . كما أنه لم يكن هناك أحد ليقول لجرجس كف عن إيذاء ذلك الرجل فى اللحظات القليلة المتبقية له ".

– متى ألبسك الأب قميصًا يا جرجس؟

لم يكن الأب يكذب حين طرح ذلك السؤال على جرجس. لأن اللحظة التى حملها جرجس فى قلبه مدة واحد وعشرين عاماً ، وليس كما يظن تسع عشرة سنة. لم تكن اللحظة التى يحملها له ذلك الأب. ربما لو سأله عن الدماء التى غطت ملابسه ، وجعلت أمه ترفع صوتها بعد أن ضربت صدرها بيديها حين رأت تلك الدماء على جلباب الأب ، وهو عائد دون ابنها الأعمى ، كان سيتذكر. ولكن رغم أن اليوم معروف بالنسبة للأب والابن فإن كل واحد منهما يحمل ذكرى غير الأخرى ، فهذا هو الأب يعود بعد أن اكتمل حلمه الوحيد فى الحياة رغم أنه يحمل بعض الدماء على جلبابه. ربما فكر لحظتها أن تلك الدماء هى دماء المسيح ذاتها ، ولكن تلك الفكرة لم تكن لتحتل جزءاً كبيراً فى عقله المليء بفكرة مسيطرة عليه وهى أن أحد أبنائه أصبح منذ اليوم قساً ، أو فى الطريق أن يكون قساً. وعلى ذلك فهو على استعداد لملاقاة الرب الآن ، والوقوف أمامه دون أن يهتز أو ينشف لسانه ، حين يسأله عما صنع فى الحياة أو ماذا ترك ؟

حين ذلك كان سيرفع وجهه إلى المسيح ويقول له :

- تركت جرجس لك أيها الرب . أنت حملت خطيئة الإنسان ، وأنا حملت خطيئة ابنى ، فلماذا تسألنى وأنا الذى يجب على أن أسألك !

- فى اليوم الأول لدخولى الدير .

- لا أتذكر يا ابنى .

لاحظوا هذا : قال يا ابنى ، ولم يقل أيها القس أو الراهب أو ولدى . وربما عقل ذلك الأب الذى هو فى لحظات خلوة من تلك الحياة يريد أن يزيل كل مخاوف ذلك الابن ويعيد يده على رأسه فلا يرفعها ذلك الابن .

- تذكر يا أبتى أرجوك حتى أستريح .

نجحت الخدعة ، ومال قلب الولد ، وقال له أرجوك حتى أستريح .

- يمكن لأن القميص كان طويلا جدا عليك. وأنت كنت نحيفا . كأنك فأر صغير.

أترك لكم ملاحظة ذلك المشهد دون تدخل منى. ربما لأنى حين سمعت كلمة "نحيف كأنك فأر صغير " انتابنى الريب فى مقولة الأب . فلن يكون هناك طفل يبلغ الثالثة عشر ويكون بحجم الفأر الذى يزن بالكاد ربع رطل ، وربما لأن الأب كان يتكلم بصوت ممزوج بالألم .ولكن جرجس الذى كان يريد الإجابة على ذلك السؤال الذى أرقه ليالى كثيرة فى الواحد والعشرين سنة الماضية والتى كان يعتقد أنها تسعة عشر عاماً فقط . لم يلتفت إلى أن أباه فى لحظات الموت ، ولم يلتفت حين سكت الأب فجأة عن الكلام أنه مات . لأنه كان يعتقد أن أباه يلوم نفسه على تلك الفعلة التى فعلها ، وأنه يعترف بذلك أمام الرب وبعد قليل حين مد يده ليطبطب على يد أبيه ، كانت اليد ما تزال دافئة بعض الشيء ولم يكن بها حياة . أمسك جرجس برأس أبيه بعد أن مرر يده على جسده كله ، ليمسك بها ، ورفعها قليلاً ، ثم تركها ، فسقطت على السرير. صرخ جرجس بصوت عال هو الذى مشى بيديه خلال التسعة عشر عاماً الماضية على أكثر من سبع عشرة حالة وفاة .

ثم نام بأذنه على صدر أبيه ، ليتأكد أن فى ذلك القلب بعض حياة. ولكن أذنه خانته ولم يمنحه ذلك الصوت ، دخل أخوته وأمه على صوته. وجدوه يضع رأسه على صدر أبيه وهو متشبث بذلك الأمل فى أن يخرج منه ولو مجرد دقة خفيفة.

أمسك بأمه ودفس رأسها فى حضنه ، وهى تبكى بصوت عال ، كانت الدموع فى عيونه متحجرة وترفض النزول. حين دخل الحاج رمضان أمسك بيده ، وشد عليها وهو يقول له :

- البركة فيكم .سابكم رجالة . قوم قول للبنات مش عاوزين صويت علشان نقدر ندفنه النهاردة. لم يستطع صوته أن ينفذ إلى أخوته وأمه ، فدخل إلى حجرة أبيه. وضع الحرام الصوف عليه ، ثم أغلق الباب بإحكام ، وأمر أخاه الأكبر ألا يفتح الباب الآخر. غسل أباه جيداً ووضعه فى الصندوق ورفض أن يمشى وراءه .

وحين عادوا من الدفن نادى على أمه. ودس فى يديها بعض الأموال ، وقال لها أنه سيعود إلى الدير ، فخرجت مسرعة وعادت بالحاج رمضان الذى ظل يحدثه أكثر

من نصف ساعة. ولكنه لا يعرف لماذا ركب رأسه. مشى معه الحاج رمضان حتى أركبه السيارة التى ستقله إلى النهر ، حتى يركب القارب الصغير إلى الجانب الآخر. حين استقر فى السيارة أطلق العنان لعيونه حتى أن الراكبين الوحيدين لم يجدا أمامهما أى شىء غير النزول قبل أن تأتى بيوتهم وفضلوا المشى عن الجلوس مع ذلك الراهب الذى لابد ارتكب ذنباً عظيماً كما قال أحدهما للآخر.

دخل إلى حجرته فى الدير وراح يصلى ، ثم ابتدأ البكاء مرة أخرى. أحس أنه لابد أن يبكى تسعة عشر عاماً ، حتى يستطيع أن يزيل كل الماء العالق فوق قلبه ، ويعيد أباه إليه .

حين سمع الأب بشاى صوت جرس الصباح. خرج من قلايته قبل أن يكمل ارتداء جلبابه وأكمل فى الطريق. رأى جرجس يمسك بالحبل المتدلى من أعلى السقف ، فأحس أن أباه مات ، فلم يشأ أن يخرجه من تلك اللحظات التى يجب أن يعيشها دون تدخل أحد قبل أن يبدأ فى طلب المعونة ، ويطلق لعيونه وصوته تلك العلامة. لم تصدق تريزة عينيها لما رأت الأب بشاى وجرجس جواره فى صلاة الصبح ، فعادت تغمض عينيها مرة أخرى ، وتفتحهما على أخرهما . كان جرجس أيضاً والأب بشاى هما الواقفان أمام الهيكل ، فأحست بعصفور قلبها يطير ، ويحط على فم جرجس ويقبله على عدم تأخره ، بعد الصلاة. انسحب جرجس عائداً إلى حجرته دون أن يتكلم مع أحد .

حين اقتربت تريزة من الأب بشاى فسألته عما حدث ؟ فقال لها :

– يبدو أن أباه قد مات . دعيه الآن سوف نعرف كل شىء بعد قليل ، فقط دعيه يستريح الآن.

عادت تريزة إلى البيت ، وهى تحاول التماسك حتى لا تسقط على الأرض فى الطريق. فقط كان يلزمها أن تخرج من باب الدير وتلف حول السور لتدخل إلى بيتها. وذلك نظراً لأن الأرض مليئة بالماء الذى تركه جرجس لمدة يومين لكى يستطيع أن يخرج تلك الديدان الشرهة – كما قال لها – لكى تأكل بعضها البعض قبل أن يزرعها بمحاصيل جديدة للدير.

دخلت إلى البيت ، ونامت على الكنبة ، بدأت تبكى بصوت عال ، وهى التى أحست أن جرجس يضيع بعد أن امتلكته. ظلت عشر سنوات تحاول التقرب منه ، ولم تعرف كيف تخشُّ قلبه إلا بعد أن نصحها ذلك الراهب"متّى" بتلك الجملة التى أنارت حياتها ، وجعلت قلبها يطير مثل العصافير الصغيرة ، وينام على الأشجار ، وفوق أسطح البيوت ، ويغرد فى الصباح والمساء. لم تنس أبداً ذلك اليوم الذى رأته فيه للمرة الأولى. لحظتها أحست أنه يمتلك قلبها. أنه يغرس عيونه – التى لم تكن ترى – فى كل ذرة فى جسدها ويعريها ويتخلل مسام جلدها وهى التى لم تدخل ذلك الدير إلا من أجله. رغم أن الدير بجوار البيت. ومن لحظة أن رأته يمسك بالفأس ويغرسها فى الأرض بقوة. فأحست أن كد الليالى الذى لاقته ليس له طعم أو رائحة. وأنها ولدت من جديد حين رأت فيه علامات كثيرة. لكن ها هى مخاوفها تعود من جديد.

لماذا تولدت الفوبيا عند تريزة

ربما يعود ذلك لموت أمها وأبيها من الصغر وبالتأكيد فإن لموت الأب والأم علاقة بذلك المرض الذى أصابها فقد كانت "تريزة" طفلة متزنة تماماً ، وكانت تقوم بواجباتها المنزلية بحب وود ، ورغم أن أمها كثيراً ما دللتها ولكنها رغم ذلك كانت ابنة جيدة لأم صعيدية تربى الكتاكيت والماعز ، وفى يوم من الأيام دخلت ، لتوقظ أمها ، فوجدتها فارقت الحياة ، وكانت حين ذلك لم تكمل العشر سنوات وفى يوم وليلة أصبحت مسئولة عن البيت مسئولية كاملة ، وبعد مضى أربعين يومًا على وفاة أمها أصبح أبوها لا يعود إلى البيت إلا مترنحاً من أثر الخمر ، ولم يمض عليه وقت طويل ، حتى مات بعد أمها بخمس سنوات . كانت خلالهما قد أصبحت ست بيت جيدة ، وإن كان أبوها لم يقل ذلك فى يوم من الأيام ، حتى لا تغتر أو تتغير تلك البنت الجميلة. لم يقل لها كلمة حلوة مرة . لم يثن على طعام اجتهدت حتى تتقنه . لم يبتسم فى وجهها ، وكانت تلك الأيام هى بداية الفوبيا عندها ، فلقد ظلت أكثر من تسعة أعوام تقوم بالعمل فى البيت دون أن تحدث أحداً أثناء العمل ، وكانت الأيام تمر دون أن تخرج

لسانها مرة واحدة من فمها ، ثم جاءتها لحظة المرض هذه حين كان أخوها رياض يعود مترنحًا من أثر الخمر ، وتكون هي قد أعدت له طعام العشاء ، وفى انتظار أن تشاركه ذلك العشاء ، فتنظر فى عيونه ، فيؤلمها ذلك المنظر من هنا تولدت لديها فوبياالنظر فى العيون ، وربما أخرجها جرجس بعض اللحظات نظرًا لأنه أعمى ولكنها حين كانت تحس أن جرجس ينظر فى اتجاهها كانت تضع عيونها فى الأرض .

دخل صموئيل على جرجس بصينية الأكل ، فوجده يسند ظهره إلى الجدار. يداه تنامان جواره تمامًا كالمرات الكثيرة التى دخل عليه. وضع صينية الأكل على الترابيزة التى تستعمل كمنضدة ومذبح صغير ، ثم جلس جواره ، لم يلم جرجس ساقيه كالمرات الفائتة .

- جرجس أيها الشماس .

خرج النداء من فم صموئيل ضعيفًا كنور الفجر ، ولكنه مملوء ودا ، كان يلبس سروالاً طويلاً ، به حبل مُدلى من وسطه ، وصديريًا مصنوعًا من الكتان. كان خارجًا لتوه من لحظات انكسار كثيرة ، فقد تأكد بعينيه أن حبيبته التى كان على استعداد أن يخسر العالم من أجلها ترتبط برجل آخر. لم يستطع أن يهرب دون أن يعطى لها درسًا ، جرى إليها ، وضربها ثم أمسك برأس ذلك الرجل ، ولكمه فى بطنه ووجهه ، فسقطت تلك البنت على الأرض ، ولكن الرجل كان أكثر قوة منه ، فردَّ تلك الضربات إليه ، وطرحه أرضًا ، ولم يلتفت إلى تلك الكلمات التى تخرج من تلك البنت التى جرت على السلم ، حين لم تستطع أن تسكت عشيقها عن ضربه ، ولكنه حين رفع عيونه عن الأرض وجدها مرمية على أحد درجات السلم ، وهو يساعدها ويرتقيان السلم ، وهى مستسلمة له تمامًا . لحظتها فكر فى الموت ، وفى الصباح أعد حقيبة

صغيرة ، وترك لأسرته خطاباً به كلمات قليلة يخبرهم أنه سوف يسافر بعض الوقت.

حين ركب القطار المتجه إلى الجنوب لم يكن يعلم أنه سوف يدخل إلى الدير.

أفاق جرجس على الصوت الخارج من فم صموئيل فمد يديه ومسح عيونه من إثر الماء المالح العالق على وجهه ، والذى يجعل جلده كطبلة موضوعة على نار لمدة طويلة. وقف صموئيل وأحضر صينية الأكل الموضوعة على المذبح ووضعها أمامه. عادت دموع جرجس للنزول . لم يجد صموئيل أمامه إلا أن يمد يديه على وجه جرجس ، ليزيل كل الماء ثم قال له :

- أستطيع أن أقول لك إن فمك الصغير لم يجرش الطعام أو الملح منذ أمس الأول . فهلا ساعدتنى أيها الشماس على إعادته إلى عمله. حتى نستطيع أن نقيم ذلك الجسد الهزيل. ولتعلم أننا جميعا سوف نذهب هناك عند الرب الإله . أم أنك لا تريد أن تمسك بيديه ، وتقبلها وتقول له لقد أوحشتنى أيها الأب الإله.

ترى أيها الشماس من يحمل منا الآخر إلى التراب. أرتاب كثيرا من ذلك رغم أن الأب بشاى أخبرنى أن عمرى طويل جدا ، ولكن هل أخبرك أيضا عن عمرك ؟

أمسك جرجس بالمنشفة الموضوعة على الصينية ، ثم وقف ، وأزاح الغطاء الموضوع على الترابيزة ، ثم غمس المنشفة فى الماء. وضع الغطاء مرة أخرى ، وجلس ليمر بيده على وجهه بتلك المنشفة. تركها تسقط من يديه على حافة الصينية ومد يديه وأخذ لقمة خبز وراح يحرك أسنانه ويعمل بالفك عليها علها تنوب.

- ماذا وراءك أيها الشماس ؟ ، ما الذى يجعل الدمع غزيرا؟ لم أكن اعلم أن انتظارك لطفل صغير سوف يأخذ مكان الذى وضعته فى التراب يجعلك هشا هكذا . ليفرح قلبك قليلا أيها الأخ العزيز . وغدا تعلم أن الذى فقدته سيعود فى العام القادم إليك. فاحرص على نفسك من أجله أيها الصديق الطيب ، رفع جرجس الصينية من أمامه دون أن يخدش الطعام بغير تلك اللقمة التى حاول كثيرا أن يبللها بلعابه ولكنه لم يفلح ، ريقه جاف كالعصا . حين ذلك دخلت عليه تريزة تحمل صرة طعام هى الأخرى

رحب بها صموئيل ثم أخذ منها الصرة وفتحها وقال لجرجس :

– كنت تعلم أن الطعام سيأتى من البيت ، ياك من شماس خبيث ، سوف أشاركك الطعام الذى أتت به زوجتك. حاول جرجس أن يتكلم ولكنه خاف أن يغلبه البكاء ، فسكت ، وأشار بيده إلى الطعام رافضا. ولكن صموئيل وتريزة لم يمنحاه فرصة الهروب ، فجلس. كانت تريزة تضع له الطعام فى فمه ، وهو يحاول أن يرد يديها ، فتقسم بالرب والمسيح الحى أن يأكله . فلا يجد أمامه مفرا من تناوله. من بعيد جاء صوت الأب بشاى ينادى على جرجس وصموئيل. انتفض جرجس واقفا ، وصموئيل قام بهدوء ورفع الغطاء من فوق المنضدة وغمس يديه فى الماء ومر بها على فمه وقال لتريزة:

– سلمت يداك أيتها الأخت الصالحة.

– شكرا على مساعدتك أيها الأب.

ابتسم لها ، ثم خرج. وضع بشاى يده على ظهر جرجس ونزلا إلى حوش الدير ، ثم أشار لصموئيل على الأوراق الجافة ، وقال له :

– يوم واحد أيها الراهب ، يتغيب فيها شماسنا الكبير يحدث هذا فى حوش الدير. يا لك من حازم أيها الشماس.!

ضحك جرجس ، ونزل صموئيل ولملم الأوراق المبعثرة فى الفناء ، وهو يقول بصوت عال :

– تعلم جيداً أيها الأب أننا لا نستطيع شيئًا بدون هذا الشماس .

حين ذلك جاء صوت"متّى" من بعيد وهو ينزل الدرجات الثلاثة قائلاً :

– أستطيع فى المسيح كل شىء .

لم يعلق الأب أوصموئيل على تلك الجملة التى خرجت من فم"متّى" الذى كان يريد أن يضحك فقط ، ولم يقصد أن يجعلهم متوترين ، فلم يستطع الوقوف معهم.

استئذن من الأب أن يدخل إلى المكتبة لوصول طرد جديد اليوم ، ويجب أن يفهرسه. أومأ له الأب برأسه. في المساء ذهب صموئيل مع جرجس إلى منزله.

كانت تريزة قد أعدت العشاء. تكلموا كثيراً عن الأب الذى ترك وراءه خمساً من البنات وثلاثة من الرجال أصغرهم جرجس. عندما اختلت تريزة به ، وسكبت ماء عينيها على رأسه وهو يحاول التملص ، حتى تستريح أنفه التى تريد التنفس ، ولكنها كانت تحكم غلق يديها على رأسه دون أن تعرف أنه يتألم لموت أبيه ، ولعدم قدرته على التنفس . ظل جرجس طوال سبعة أشهر يعود فى المساء. ينام فوق زوج اليمام ، ويحاول المرور من فتحات السوتيان ، ولكن عين أبيه التى لم يرها منذ تسعة وعشرين عامًا تقف له بالمرصاد. فما إن يشرع فى عمل لا يقتضى من تلك العين إلا أن ترخى أهدابها .

فقط يرى عينى أبيه متهدلة الأهداب. فينقطع الحماس الذى ظل يعمل من أجله طوال النهار. كانت تريزة تعلم ما يعمل فى صدره ومن أجل ذلك لم يشعل جسدها مرة واحدة خلال تلك الفترة. كانت تهادن ما بين رغبتها ، ورأسه النائم فوق صدرها .

كانت عيون الأب بشاى و"متّى" خلال تلك الفترة تلاحظ حركات جرجس القليلة وكلماته التى أصبحت نادرة ، رغم أن عمله لم يتأثر بتلك الحالة التى اجتاحته وغيرت قلبه كثيراً ، ولكنه رفض أن يقوم بإعطاء أية عظة كان يقول للأب بشاى :

– قلبى ملئ بالديدان الشرهة ، ويخرج و دموعه على خده.

فى صباح أحد الأيام دخل عليه المقدس رياض بعد أن لف الدير كله. كان يجلس على السلم الطويل داخل صحن الكنيسة ، ويمشى بيديه الممسكتين بالمنشفة على الرسومات ليزيل عنها الأتربة والغبار. وبين الحين والحين يقف أمام صورة الرب التى لا يخطئ مكانها أبداً ، ويمشى بيده على وجهه وهو يقول له :

– كل شىء عائد إليك ، فارحم قلب أبى وقل له إننى جد أحبه .

ثم يمسح الماء المالح المتساقط من عينيه .

– أين أنت أيها الشماس . لقد بحثت عنك طويلاً ؟!

– هنا أيها المقدس . خيراً إن شاء الرب ؟.

– مبروك يا أبا .... ماذا ستسميه؟

أحس بشعور مختلف لم يدخل قلبه من قبل. ربما لأنه عاش فى الدير لم يفكر فى شىء يمت للشيطان ، ولكنه حين كان ينزل السلم فكر فى أحاسيس تلك العانس الهائمة ببغالها التى سمع حكايتها من فم الأب بشاى فى إحدى الليالى الحارة لحظة قال للأب:

– كيف تهيم بفعلتها التى تغضب الله كثيراً ؟!

فأحس بشبه ابتسامة ترتسم على فم بشاى وهو يقول:

– لم يمنحها الله الزوج الصالح .. ومنحها الشيطان شراً. فلم لا تهيم به حين يذهب قطها الشرس يبحث عن دفء آخر غير صدرها الخاوى من رائحة القطة .

فغضب حين ذلك جرجس من رد الأب بشاى الذى طبطب على ظهره وقال :

– إن مائة من أمثالك لهم القدرة – لا شك فى ذلك – على تغيير معالم قلوب مدينة كاملة تحترف نساؤها البغاء ، ولكن عليك أن تعلم أيها الابن الصالح أن الأقلية يحتاجون إلى الله ، لأنهم يملكون شيئًا آخر ، والأكثرية يحتاجونه لأنهم لا يملكون شيئًا ولتعلم أيضًا الأكثرية يؤمنون بالله بسبب من الجبن ، والقلة بسبب من امتلاء الروح . هل فهمت أيها الشماس الصغير ؟

لا يعرف لماذا تذكر الحوار وذاك الإحساس فى تلك اللحظة ، ولكنه قال وهو ينزل تلك الدرجات التى أحس بطولها لأول مرة فى حياته. لابد أن ذلك الهيام كالشوق لرؤية ذلك الوليد هو نفس الشعور لدى الأنثى التى تهيم وتتشوق لرؤية ذكر يتبعها.

دخل صموئيل وأمسك بيده ثم دفس رأسه فى حضنه. كان دافئًا كعادته ، أظنه لم يسمع صوت جرجس وهو يقول له :

– أنا أب جميل ، وذلك الطفل هل هو جميل ؟ حين ارتاحت يد صموئيل على وجه الصغير ، كانت عيونه مغلقة تمامًا .أنفه صغير لا يشبه أنف جرجس.أمسك بيد جرجس ومررها على وجه الصغير.حفر ملامحه فى قلبه المبصر تماما ، كما حُفرت ملامح المسيح حين مشى بيده على صورته الملعقة .

همس جرجس :

– أنا أبوك أيها الطفل.قل لى.هل ترى وجهى الفرح للقياك ، أم تراك مثلى أيها الطفل. لا تعذبنى بمخبوءات جديدة.أنا أريد الآن أن أعرف هل عيناك عاطلتان كعينى؟ فقط . أفتحهم لى وسوف أعرف.

أمسكت تريزة بالغلام ، وأحست بسهام نارية تدخل قلبها ، فوضعت الغلام ، وأمسكت بيده فى عطف ، فقال لها :

– ما لون عينى ابنى ، هل يرى أيتها المرأة ؟

قالت له :

– لا تخف أيها الشماس الحزين دائمًا . ابنك عيناه خضراوان تماما ، وسوف يبص بهما عليك فى كل لحظة ، ويخبرنى عن أحوالك التى لا أعرفها .

أمسك جرجس مرة أخرى بالغلام ومشى بيده على عينيه اللتين لا تزالان مغمضتين وقال له:

– رد علىَّ ، أيها الطفل هل ترانى. قل لربنا . يا ربنا العظيم ضع فى عين أبى قطرة بروزولين لمدة ثلاث دقائق حتى يرانى .

هذه هى المرة الأولى التى يقول جرجس تلك الجملة التى سوف تضيع من رأسه ، ولن تعود إلا حين يقولها لإبراهيم الشماس الصغير ، حين يمسك بيده بعد موت "مينا" ابنه الوحيد بأسبوع ، وهو فى الطريق إلى مقبرته ، حين يقول له :

– أيها الشماس ضع فى عينى قطرة بروزولين حتى أرى ما كتب على حجر ابنى ، طالما أبى لم يحط لى القطرة لمدة ثلاث دقائق حين قلت له ذلك منذ ثمانية عشر عامًا .

فيقول إبراهيم :

– كتب على الحجر ، هنا ينام ولد جميل ، كان اسمه"مينا جرجس" ، كان طالب علم ، وراهبًا صالحًا يقرأ الإنجيل كل يوم ، وقد عمل كادحا ، وكان طيب القلب. هو الآن ميت تمامًا .لم يخلف شيئًا على الإطلاق ، لأنه لم يعمل نهارًا خالصًا ، لم يكن عجوزًا ، تجاوز الثمانية عشر عامًا بيومين. كان ممكنًا أن يستمر ، ولكن الأب أراده ليجلس جواره فى السماء. وكان ذلك فى صباح الأحد. عشية سبت النور .

أراح جرجس الطفل بجوار تريزة ثم سألها عن اسمه فقالت :

– صموئيل أوبشاى !

– بل "مينا" الآن على الأقل وإذا أراد أن يدخل الدير. فليكن اسمه ما يختاره.

رسمت علامة الصليب على رأس الصغير وقالت :

– مينا اسم حلو . مينا . أم مينا . روح يا مينا ، تعال يا مينا ، ورب مينا ، اسم حلو خالص يا جرجس. من اختاره لك ؟!

– لم يختر أحد أى اسم ، ولكننى حلمت به .

دخل الأب بشاى على تريزة فى اليوم التاسع ، وأمسك بالطفل الصغير ورسمه بزيت "نيرون" ، ثم أخذه فى حضنه وضمه إليه ثلاث مرات وفى المرة الرابعة أثنى رموشه على ماء فى العين يريد السقوط ، ثم وضعه جوار تريزة التى قالت :

– ادع له يا أبت ، ولى. لأن اللبن قليل .

فوضع يده على رأسها ، وردد كلمات بلغة لم تفهمها تريزة ولكنها فى المساء قالت لجرجس:

– لقد فاض اللبن ، وشبع الولد تماما .

فلان بمثابة الألم فى الرقبة

علامات كثيرة ظهرت ، منها اللبن الفائض والطفل نفسه ، اتذكرون حين قال لها القس "متى" أكذبى على جرجس.لحظتها كانت بالفعل فى الطريق إلى الكذب لكن الله منحها يمامة طارت بمجرد مرورها من امام "متى" وهكذا مشى القس "متّى" ، وهو يعلم أن تريزة سوف تكذب على جرجس ، وتتحايل عليه من أجل تحقيق أمنية له ، وهى عدم طلوع جرجس إلى الجبل ، حتى لا يتم رسمه كقس وظل هذا الوهم قائمًا حتى قابل تريزة صدفة بعد شهرين ، فأراد أن يشكرها على تلك الكذبة البيضاء التى لابد تعترف بها والتى أنجت جرجس من الخروج فى تلك الشمس المحرقة ، ولكنها نظرت إليه لأول مرة فى عيونه وقالت له

– لن أعترف لأنى لم أرتكب أى خطأ أيها القس"متّى" ، ولأنى حامل بالفعل .

وهكذا قهرت الأب"متّى" لأول مرة فى حياتها واستطاعت أن تتغلب على فوبيا النظر فى العيون ، وتركت له ذلك السؤال الذى ظل يؤرقه كثيراً ، كيف استطاعت تريزة أن تمتلك طفلا ينمو فى أحشائها ؟ وكيف استطاعت أن تنظر فى عيونى هكذا ؟

ربما ظل أياما طويلة يفكر إنها تضحك عليه ، حين قالت له فى المساء:

– أنا حامل أيها الشماس الجميل . وعما قريب سأمنح ذلك الأعمى طفلاً .

أمسك جرجس بالحبل المدلى من سقف الكنيسة ، وشده بهدوء وأرخاه معلنًا الصلاة . وقف الأب يلقى بالعظة ، ثم هدأ صوته ، وانقطع مرة واحدة ، ثم نادى على"أم مينا" ، وقف جرجس الذى كان يجلس على الكرسى الخشبى جوار المذبح ، حين كان الأب يلقى العظة. كان قد مضى على تريزة أكثر من شهر لم تدخل فيه الكنيسة. تقدمت تريزة وهى تحمل "مينا" فوق يديها ، وتغطيه بقطعة قماش بيضاء مرسوم عليها الصليب . رفع الأب قطعة القماش ، ثم قبل "مينا" بين عينيه ، ثم قال للحاضرين:

– اليوم سوف يتم تعميد "مينا" ابن الشماس جرجس.

الذى كان حين ذلك فاتحًا فمه. لا يعرف لماذا أتت "تريزة" بذلك الغلام. رغم أنها لم تقل له شيئًا ، نادى بشاى على جرجس وأمره بإحضار الزجاجة من جيب الحقيبة المعلقة فى قلايته.

أزاح بعض الرهبان الحجر الذى يرتكز على الهيكل. وضع جرجس زجاجة الزيت فى يد الأب دون أن يراها أحد. أمر الرهبان بإقامة صلاة التعميد للطفل.

كان المصلون يرقبون الموقف بدهشة وعجب ، حيث إن الجو بارد ولا يستطيع طفل صغير أن يتحمل ذلك الماء البارد على جسده دون أن يصاب بنزلة برد. كما أنها المرة الأولى التى يُقام فيها تعميد طفل دون أن يعلن ذلك فى لوحة الإعلانات المعلقة على حائط الكنيسة من الخارج ، رفع الأب بشاى ملابس الطفل ، ثم غمسه فى الماء مرات ثلاثة دون أن يصدر عن الطفل أى صوت. حتى ظن الحاضرون أنه جثة هامدة بين يديه أو دمية ، ثم أخرجه من الماء ، ورسم على جبينه علامة الصليب بزيت "نيرون" ، ولفه فى الشاش الأبيض ، ثم أعطاه لجرجس الذى قبله على جبينه . انطلق صوت بشاى :

– أنت أبو ذلك الغلام الذى ظهر عليه بعض العلامات التى أوصى بها ذلك الذى تحمل خطيئة ابن الإنسان . فاعمل من أجله كثيرا أيها الشماس. وحافظ عليه. فلقد قال عنه المسيح إنه سيعيش قليلا ، ليفرح القلوب المحزونة ، ثم يأتى إلىّ حين لا تعمل يدى فى الماء وتصبح عاطلة عن تحويله إلى خمر .

ارتعش بدن جرجس لذلك الكلام ، و ارتعش كل الواقفين جواره ، حين أمسكت تريزة بمينا وراحت تقبله يمينا وشمالا ، ولكنه كان يعلق بصره إلى أعلى فى اتجاه صورة المسيح الجالس وجواره الحواريون. فكادت أن تموت خوفا على الطفل الـ لم يبك كالأطفال حين يرش عليه الماء ، وهو الذى عمد فى الماء ثلاث مرات. كيف لم يبك! وفى المساء حين أعاد على سمعها كلمات الأب ، رسمت علامة الصليب وقالت :

– ليحرسه ملاك الرب لنا من كل سوء ، فسوف يكون عصا لنا حين تتعطل أقدامنا أيها الشماس.

بكى جرجس الذى أخفى عنها أنه سوف يموت صغيرا ، حين تتعطل يد المسيح عن العمل ، فسألته عن سبب بكائه ؟ وهو الذى أنجب ذلك الطفل الذى أوصى به المسيح ، فحاول أن يسكتها ولكنها ألحت عليه ، فراح يحكى لها عن تذكره لأبيه وكيف أنه لم يكن عصا لقدميه حين شلت. فطبطبت عليه وراحت تواسيه وهو يبكى لكلام الأب بشاى. وكلما حاولت تهدئته كانت دموعه تزيد وتأتى من حيث لا يدرى.

تغيرت أحوال جرجس منذ أن سمع تلك الكلمات من فم بشاى. تلك الكلمات التى أذهبت النوم من عينيه ، فلم يعد يؤدى أعماله بإخلاص وضمير. وإن ظلت أوامره قائمة رغم مرور الأيام ، وتجدد الرهبان ، ولكن صموئيل الذى كان يرقب تلك الأحوال بخوف ، كلمه كثيرا فى تغير حالته ، ولكنه قال له جملة أخرسته تماما ، ولم يعد يحدثه بعد ذلك فى تغير حالته. ظل صموئيل يفكر فى تلك الجملة ثمانية وثلاثين عاما حتى بعد أن خرج من الدير ، لما علم بوفاة "مينا" ابن جرجس . كان صوت جرجس مملوءا برنين خاص. لم يستطع "صموئيل" أن يحله برغم مضى السنوات.

وقف الأب بشاى أمام المذبح بعد خمس سنوات من تعميد "مينا" ليعمد ابن المعلم رياض الأخير. ذلك الطفل الذى تم تسميته باسم "مينا" أيضا ، ولكنه حين وضعه فى الماء خرج صوت الطفل الصغير يفوق صوت سبعة من أقرانه. فضحك بشاى وقال له:

– لن تكون كابن عمتك أبدا أيها الطفل.

حين ذلك دمعت عينا جرجس . أمسك به الأب ، ودخل إلى الحجرة الغربية وقال له بعد أن أجلسه على الكرسى:

– ما الذى قلب حالك أيها الابن الصالح والأخ الجميل ؟

حكى له جرجس فوضع الأب بشاى يده على رأسه وقال:

– لمَ لم تقل لى أن ذلك جعلك هكذا أيها الشماس؟هذا كتب فى كتاب الرسل.

ولكن لتعلم أن ذلك الغلام الذى تكلم عنه أبونا منذ ألف وتسعمائة وستة وسبعين عاما . منحه علامات كثيرة ، أولها عدم البكاء ولقد عمدت أنا بيدى هذه أكثر من ثلاثة أطفال ولم يبكوا كميتا ، فلم يكون ذلك هو"مينا" أنا لم أقصد أن أحزنك ، بل أفرحك. فإن كنت لا تريد لابنك أن يكون هو هذا الابن ، فهذا شأنك ، ولكن اعتمد على الله أيها الشماس ، وأترك وساوسك ، وعد إلى عملك.فقد مرت خمس سنوات وأنا أتابع عمل يديك ولا تؤاخذنى ولا تعتب علىّ أيها الصديق.أنا فقط أقول لك ما لا تراه ، أنت تضيع عمل يديك ، لم أكن أعرف أنك هش هكذا.قط لم أكن أعرف يا جرجس .

أنت عمل يدى ، فكيف تخطئ يدى أيها الشماس ! قم الآن وامسح عيونك وابدأ من جديد. من أجل تريزة ومن أجل" مينا "وفوق ذلك من أجل المسيح.

أمسك جرجس بيد الأب ، وراح يقبلها ، ثم خرج من الحجرة مسرعًا. فى الطريق شم رائحة صموئيل فوقف أمامه ، ثم أمسك به ، واحتضنه ، ثم ذهب إلى البيت .

كانت تريزة تقف فى الصالة. على الأرض طشت الماء المليء بالملابس المتسخة ، حين رأت جرجس أمامها انتابها إحساس بالخوف ، فلم يكن يعود إلى البيت فى الصباح هكذا ، وهى التى كانت معه منذ ساعة أو أقل ، والأب بشاى يعمّد ابن أخيها فلمَ عاد؟!

حين سألها عن" مينا "قالت له:

– مع خاله .

فاندفع خارجًا. وقفت مذعورة ، ثم وضعت الطرحة السوداء على رأسها ، وجرت إلى بيت أخيها الذى لا يبعد عن بيتها إلا مسافة صغيرة. حين رأت جرجس ممسكًا بـ"مينا" أوقفت اندفاع قدميها ، وسألته ماذا هناك ؟ فقال:

– لاشىء، أريد أن أريه رسم الأب حزقيال الذى فى قبة الكنيسة. فر من أمامها ، وهى تضرب كفًا بكف وتسأل فى نفسها ما الذى أنار وجه جرجس هكذا؟ ولماذا يجرى كعادته السابقة ؟

نادى جـرجس على بعض الرهبـان كى يسـاعـدوه فى إدخـال السلم الطويل إلى صـحن الكنيسة. سـاعدوه ، ولكن الأب"متّى" الذى كـان فى تلك الأيام قد أخذ مكانة كبيرة فى غياب جرجس ، سأل عن سبب دخول هذا السلم رغم أن موعد التنظيف لم يحن ، فرد عليه الشماس وقال له:

– هذه أوامرى أيها القس .

فلم ينبس بكلمة ، ومـضـى إلى المكتبة ، وهو يهز رأسه.أمسك جرجس بـ"مـينا" وراح يمضى بيده على الرسم وهو يحدد لـ" مينا " الشخصيات. وعندما وقفت يده على وجه المسيح قال لـ" مينا " :

– هذا إلهنا وأبونا الذى يعمل من أجلنا .اجعله أيها الطفل فى قلبك ، تجده أمامك وخلفك.

كان " مـينا " لا يفهم كل الكلمات الخـارجة من فم جـرجس ، لكنه كـان يردد ما يقوله ، ويتطلع إلى تلك الرسومـات التى كثيراً مـا وقف تحتها ليحـدد مكان الأسد ، ولكن الشمس التى تأتى من الزجاج الملون بالأصفر والأحمر ، والمرسوم عليها صلباناً سوداء كانت تغير الأماكن فى عينيه ، فلم يستطع تحديدها قط .

حتى فى المساءات حين تشتعل الفوانيس ، كان وجه الأسد يتحرك مع خيالات عديدة . نزل جرجس من على السلم الذى تحرك كثيراً تحته ، وكاد "مـينا" يسقط من بين يديه أكثر من عشر مرات ، ورغم ذلك رفض أن ينزل إلا بعد أن مشى بيديه على تلك الرسومات ، وتأكد له أن "مينا" الصغير قد حفظها ويريد النزول.

كانت تريزة تتابع تصرفات جرجس ، بقلق منذ مولد"مينا" .كل مساء حين يشعر بأنها نامت ، تنزل دموعه دفاقة ، كانت تشعر به ، وتكتم لوعتها حرصاً منها على عذابه النبيل. فى البداية تهيأ لها أن موت أبيه هو الذى صنع به هذا ، ولكنها بعد فترة راحت تفكر أن جرجس نادم على زواجه منها ، وأنه كـان يريد الطلوع إلى الجبل ، وهى التى كسرت أحلامه ، حين ذلك كانت تشاركه البكاء دون صوت.

حاولت كثيراً أن تعرف ماذا أصابه من القس صموئيل أو القس"متّى" الذى توترت علاقتها به منذ أن قال لها : امنحى جرجس غلاماً من الهواء لمدة شهرين فقط . لأنه لا يجوز له الخروج إلى الجبل ، بعد تلك المدة.

ولكن إجابات الأب صموئيل و"متّى" عن أحوال جرجس التى تغيرت دون أن يعلم لذلك سببًا قد جعل عقلها يفكر أن هناك امرأة أخرى فى حياة جرجس ، وربما تعود تلك العلاقة إلى قبل دخوله الدير ، وعندما ذهب إلى أبيه رآها ، فأعادت كل أحلامه الضائعة ومن أجل ذلك هو حزين.

واستطاعت تلك الفكرة أن تمتلك كل رأسها ، وراحت تعمل فى روحها التى شاخت فى تلك الأيام . كانت الأمسيات التى ينام فيها جرجس فى حجرته داخل الدير هى المتسع الكبير لخروج صوتها الشجى المحمل بالدموع إلى مساحة الحجرة الخالية من الكلمات الجميلة منذ خمس سنوات ، وكثيراً ما تلصصت على جرجس لتعلم أنه فى الدير وليس فى مكان آخر.

فحين يقول لها فى الصباح : إنه سوف ينام اليوم فى الدير ، تخرج فى الثانية عشر مساءً من بيتها وتمر من الأرض الزراعية حتى تتجنب الدخول من باب الدير الذى يحدث صوتًا بمجرد مرور الهواء من بين ضلفتيه وتطمئن على أن جرجس داخل حجرته ، وتعود لتعترف أمام تلك الصورة النائمة على جدار حجرة النوم للمسيح وهو مصلوب على الصليب المقدس ، وتدعوه أن يخرج تلك الوساوس من رأسها ، ولكنها حين تخرج الكلمة من فم جرجس أنه سوف ينام فى الدير، تنسى تلك الصورة النائمة فوق الجدار ووقوفها أمامها والدموع تملأ عينيها وقسمها أمامها أنها لن تعود إلى تلك الفعلة مرة أخرى ، وتعود لتطمئن أن"جرجس"نائم داخل الدير ، وليس فى مكان آخر.

ورغم ذلك لا تستطيع أن تخرس تلك الوساوس ، ولم تستطع أيضًا أن تعود دون أن تقف أمام تلك الصورة لتعترف لها ، وتظل تبكى وتقسم لها وللواقف فى وسطها مصلوبًا على الصليب أنها لن تعود إلى فعلتها مرة أخرى ، ولا تسكت عن تلك

التوسلات والدموع إلا حين تسمع صوت"مينا" الصغير وهو يبكى وينادى عليها ؛ فتجرى إليه تاركة توسلاتها فى يد الملاك كى يرفعها للمسيح . وترفعه من السرير تحتضنه وتقول له :

- أبوك يسلم عليك ، وينتظرك فى الصباح فى الدير .

ويبدو أن لتلك الصورة ملاكًا نزل من السماء ليؤنس وحدة تلك السيدة المليئة بالخوف والحب ويبدو أنه أصلح لها جرجس والله أعلم.

ولكنها حين مات ابنها ، وبعده زوجها انتظرت الموت فى بيتها فى العام الأول ، ولما يئست من حضوره ، خرجت تبحث عنه عند العصافير الصغيرة. وكثيراً ما ضحكت على أفكارها الخائبة من أن جرجس كان يحب واحدة غيرها ، وتبكى كثيراً حين تخرج جلباب "مينا" ولا تشم فيه رائحته ، وجرجس الذى خانها ومات ، وكان عليه أن ينتظر بعض الوقت ليزيل عنها ذلك الحزن الذى علق بفمها ، وجعل ريقها مرا دائما . رغم أن زوجة رياض أخيها كثيرا ما بلت ذلك الريق بكوب من الليمون ، ولكنها تحس أن السكر المذاب داخل الكوب لن يقدر على تغير طعم المر العالق بفمها . وظلت ثلاث سنوات ، وهى المدة التى عاشتها بعيدا عن "مينا" وجرجس تكلم الطيور حتى وجدها أحد الرهبان فى البئر الذى أمر الأب "متى" أن يقيمه بعد أن جفت عين "مارية".

وعندما فتح رياض البيت بعد موتها وجد صورة المسيح على الأرض ، وجوارها قميص "مينا" وجلباب جرجس ، وحين قرب جلباب جرجس من أنفه وجده معطرا بالمسك . فتركه يسقط على الأرض كما كان ، ثم أمسك بملاءة بيضاء ينام فى وسطها غزال برى وجرى حيث تنام تريزة جوار المذبح ووضعها عليها ، ثم أدخلها فى صندوق دون مسمار مثبت فى غطائه الداخلى ، كما أمر الأب "متى" أسقف الدير الذى صلى عليها بنفسه ، رغم أنه منذ جلس على كرسى الدير منذ ثلاث سنوات رفض أن يصلى هو بذاته على أى إنسان.

كيف عرفت تريزة أنها حامل

لو أمكن لنا أن نعود قليلاً إلى الوراء فى حياة تريزة حين كانت طفلة صغيرة لم تبلغ بعد العاشرة ، ووجدت أمها فى الصباح ميتة ، ثم بعدها بخمس سنوات مات أبوها ، بعد أن أدمن الخمر ، ولم يعد لها عائلة غير أخ أمسك بكل الأرض التى ورثاها عن أبيهما ، ومحل للغلال هو الوحيد فى البلدة ، وكان قد بدأ شرب الخمر مع أبيه كل أسبوع ، وحين مات أبوه ، راح يعب الخمر كل يوم ، حتى دنت لحظة الإفلاس وضياع كل شيء ، تلك اللحظة التى كانت على وشك التحقق ، وتأجلت دون مقدمات حين عرض الأب بشاى أن يشترى جزءاً من الأرض الباقية التى تقع جوار الدير مباشرة. المهم أن تريزة أمسكت بالمبلغ من يد الأب الذى أجلس أمامه رياض و تريزة ليوقعا على العقد. وفتح دكان الغلال بعد أن أُغلق سنة واستطاعت أن تقنع أخاها بمساعدة الأب على أن يتزوج ، ورغم أنه لم يتغير كثيراً بعد الزواج ، فمازال يشرب الخمر فإن زوجته الجميلة هددته بترك البيت ، وعندما قالت له : إنها حامل. لم يعد يعب الخمر على الإطلاق. كانت تريزة فى تلك الأيام قد أحبت أو على الأصح عشقت ذلك الشماس الأعمى الذى كان يأتى فى كل يوم سبت فى تمام العاشرة صباحاً يشترى منها الغلال اللازمة للدير ، ويحملها على ظهره ؛ كان يقول لها أريد كذا وكذا ، ثم يخرج حافظة نقوده ، ويمسك بالأوراق المالية ، ويمر بيده على الأوراق ، ثم يدفع لها المطلوب بالضبط ، ويمضى ، وهكذا تتولد المشاعر الفياضة من لحظات الوجع الإنسانى أو الإحساس بالآخر ، ورغم أن تريزة تسكن بالقرب من الدير إلا أنها كانت تصلى مساء الأحد فقط ، وبعد شهرين من المؤانسة بتلك اللحظات القليلة التى كانت تمر عليها حين يقف جرجس أمام الدكان ، ويمر بيده على الأوراق المالية ، وهى تنظر إليه حين يمر بيده ، وتبتسم لتلك المبادرة الجيدة على معرفة المال من ملامسته ، وعندما تحس أن جرجس يسدد أذنيه فى اتجاهها ، تروح تخبط بالجاروف الألنيوم الذى يكون فى يديها حتى توهمه إنها تزن له الغلال ، بعد هذين الشهرين ، قررت أن تذهب إلى الدير لتتابعه عن قرب ، ومنذ تلك اللحظة ، حتى زواجها ، لم تغب عن صلاة المساء فى يوم

من الأيام ، رغم أنها كثيرا ، ما ارتكبت سيئة فى خمسة أيام من كل شهر ، حين تداهمها الدورة الشهرية ، ورغم ذلك تجد نفسها فى صحن الكنيسة ، وهى تقلد حركات الصلاة دون أن ينبس فمها بهمسة واحدة ، وعندما تعود إلى المنزل تظل تبكى لتلك الفعلة ، وكانت لتريزة هذه العادة السيئة ، وهى أنها حين تتكلم مع أى إنسان تضع رأسها فى الأرض .

القسم الخامس

" ما هى نهايتى حتى أصبر نفسى "

عاد جرجس إلى البيت حاملاً "مينا" فوق كتفه ، ممسكًا بأطرافه المتعبة والطفل يكركر من الضحك . حين شاهدتهما تريزة ضربت كفا بكف ، وقالت بصوت تعمدت أن يسمعه جرجس:

- سبحان مغير الأحوال !!

ضحك "جرجس"للمرة الأولى منذ خمس سنوات وقال لها :

- مينا جائع جداً ، فهل أحضرت لنا الطعام ؟

جرت إلى المطبخ ، وعادت مسرعة ، وهى تمسك بصينية عليها بعض الطعام ، قال لها جرجس:

- أحس أننى لم آكل منذ خمس سنوات .

أصابت الكلمة قلب "تريزة" كان قد مر خمس سنوات على آخر مرة قال لها : إنه جائع ، وخمس سنوات لم تر ضحكته ، وخمس سنوات لم تمارس الحياة.

وضعت الصينية على الأرض ، وحلفت بالمسيح الحى أن لا يمد يده حتى تعود ، دخلت مرة أخرى إلى المطبخ ، ووضعت يديها فى برطمان السمن ولم تنتظر أن تمسك بالمغرفة لتضع فى الطبق بعضًا منه. ثم وضعته على النار ، وأمسكت بست بيضات وكسرتهم فى السمن التى تصنع على الأقل ثلاثين بيضة فى الأيام العادية. لم تشعر أن يديها قد احترقت من النار وهى ممسكة بالطبق دون قطعة قماش ، أسرعت به إلى الصينية التى تتوسط الحصيرة الخوص ، ثم قالت لجرجس:

كان يمسك بقطعة الخبز ، ويغمسها فى السمن المنساب كالماء ، ويضعها فى فمه دون أن ينتبه إلى أن بعض القطرات تتساقط على جلبابه الأسود ، ثم تتسع بمرور الوقت حتى بدا الثوب كله بقعة واحدة تشعبت. كان "مينا " ينظر إلى أبيه الذى يأكل

بشكل فوضوى غريب ، وهولا يعرف ماذا يصنع ، وتريزة التى تملأ الفرحة قلبها ، ووجهها تضع بين الحين والأخر لقمة صغيرة فى فم"مينا" الذى كان يتلكأ فى مضغها حتى إنه لم يستطع فتح فمه حين مدت تريزة يديها إليه دون أن تنظر إليه ، فلما رفض اللقمة حولت نظرها إليه ؛ فوجدت فمه المليء باللقيمات الصغيرة وهو ينظر إلى أبيه دون أن تعمل أسنانه على تلك اللقيمات ، فضربته على قدميه وقالت له :

– كل دون أن تنظر إلى أبيك.

حين ذلك ضحك جرجس ، وكان فمه مليئًا بالطعام ، فشرق ، فأمسكت بالقلة وهى تقول:

– حمداً لله على السلامة يا أبا مينا .

هز رأسه كأنه يريد أن يرمى كل هذه السنين الطويلة التى مضت وهو لا يحس بكل هذا الحب والفرح.

كان موعد صلاة المساء قد آن أوانه ، حين دخل "مينا" على أبيه النائم جوار تريزة وشد يده وهو يقول له :

– الشمس غابت أنت مش هاتضرب جرس الكنيسة النهار ده ولا إيه يا أبى .

انتفض جرجس ، ووقف مذعورا ، و نزل على ركبتيه يبحث عن الحذاء لأول مرة فى حياته منذ أن تعلم أن يضع الحذاء فى قدميه. سمع تريزة وهى تقول له :

– أنت هاتروح الدير من غير ما تستحمى !

انتبه إلى ذلك ، فخلع الجلباب ورمى به على السرير ، ودخل إلى الحمام ، ولم ينتظر الماء الساخن التى وضعته تريزةعلى النار. نادى عليها ؛ فدخلت إليه بالملابس النظيفة . ارتداها على عجل ، وجرى إلى الدير من الطريق الزراعى الصغير .

كان "مينا" يمسك بيد أبيه حين سمع صوت الأنبا بشاى الذى كان يضحك على هيئته وملابسه غير المهندمة كعادته ، حتى إنه لم يرتد فوق رأسه أى شىء ، أمسك بيديه وقال له :

– لا تتعجل أيها الشماس. ادخل حجرتك وارتد طاقية وسوف نؤخر الصلاة قليلاً ريثما تهندم جلبابك ، ثم ضحك وأخذ من يده"مينا" ، ودخل إلى الحجرة الخاصة برئيس الدير.

راح يحدث "مينا " فى أشياء أكبر من سنه كثيراً ، ولكن الغلام كان يستمع له بعقل واع ، ويفهم كل الأشياء التى عن الرب والروح القدس والعذراء. هؤلاء الثلاثة الذين مر بيده على صورهم المرسومة فى سقف الكنيسة فى الصباح.

لما بلغ الخامسة عشر عاما كان قد دخل المدرسة الثانوية الموجودة على بعد نصف ساعة من الدير ، وأصبح متفتحًا أكثر على العالم الآخر الذى يشارك فيه. وصار له أصدقاء كثيرون من زملائه المسلمين ، و الأب "متى" يمده بكتب عن الأديان وعلم النفس.

كانت الحياة تمر داخل الدير بنفس الرتابة التى ظلت عليها منذ أن رآها للمرة الأولى : الأب بشاى يعتكف فى قلايته لفترات طويلة ، و"متّى" مازال يحلم بالكرسى ، وصموئيل فى عالمه الطيب ، وجرجس يعمل بيديه من أجل أن يظل ذلك الدير جميلاً فى عيون هؤلاء الزائرين ، الذين يتوافدون فى الأعوام الأخيرة والذين دائمًا ما يأتون وقد عمل الجوع فيهم.

و"مينا" يعود من المدرسة فى الثانية ، فيغير ملابسه ويأكل ثم يراجع واجباته وينام ساعتين ثم يخرج إلى الدير ويجلس فى المكتبة ، ويكون فى انتظاره الأب"متّى" الذى يمده بالكتب الفلسفية والدينية ، فيعكف عليها حتى صلاة المساء ، يصلى ويستمع إلى عظة المساء.

وفى تلك الأيام أقام"مينا" علاقة بزميلة له تدعى "لينا" وراح يفكر فيها كثيراً ، ولم يعد يحرص على موعد المكتبة. وظلت تلك العلاقة فى النمو إلى أن أصيبت"لينا" بحمى شوكية وماتت ، أو هذا ما قالوه له .

عند ذلك عاد"مينا" مرة أخرى للمكتبة ، ولكنه عاد مشغولاً بذلك السؤال الذى غير ملامح جسده ! لماذا الموت قبل سن التكوين ؟ ولماذا تموت الطيور الجميلة ؟!

لماذا تموت الطيور الجميلة؟!

مينا" هذا هو أجمل شخصية داخل الرواية.

فلماذا يموت دون الأب"بشاى"مثلاً وهو الذى تجاوز الثمانين ، أو على الأقل الأب جرجس ذلك الأعمى الذى أخذ من الحياة كثيراً ، ثم كان هذا السؤال الأكثر دافعًا للدموع. لماذا فى هذا التوقيت من العمر ، "مينا" لم يبلغ التاسعة عشرة. فلماذا يلعب"عزرائيل"تلك اللعبة القذرة ؟ ولماذا يسكت الرب على تلك الألعاب الصبيانية من ذلك الملاك ؟

ورغم أننى طرحت هذين السؤالين ، فإننى حتى الآن لا أعرف لهما إجابة. غير أن الله يحب الصالحين ، ويخاف أن يتركهم لهؤلاء المخربين ، المستعدين تمامًا لمن تزل قدماه.

وهكذا أيضًا فى علاقة "لينا" بذلك الفتى الجميل ، ورغم أن العلاقة تبدو فى جوهرها علاقة حب أفلاطونى. حين يلتقيان تحمر أذن"مينا" وأطراف أصابعه تروح ترتعش ، أما "لينا" فكانت خدودها تمسك بلون الورد الأحمر ولا تتركه إطلاقاً.

وحين ذلك يستطيع أى إنسان بعد أن ينظر إليهما أن يقول: هذان بعيدان عن مملكة ابن الإنسان" ، ولكن العلاقة لم تتم ، فلقد ماتت"لينا" إثر حمى شوكية ، وإن قيل إنها ماتت إثر حريق. وحتى موت"مينا" كان مفاجئًا له ولا أحد يعرف الحقيقة. رغم أن جرجس نفسه كان موجوداً وقت الغسل . وهكذا تموت الطيور الجميلة دون أن نعلم. لماذا ؟ !

ولم يكن"مينا" حين ذلك يعلم أن ذلك السؤال نفسه سوف يطرحه جرجس وتريزة والأب بشاى و"متّى" وصموئيل. حين يعلمون بموته .

القسم السادس

لمن تترك يدى حين تسيرنى فى الظلام ؟

حين دخلت أختها الصغيرة منال التى تزوجت منذ أربعة أعوام وجدتها ممسكة بجريدة مدارس الأحد ، وتقرأ فيها :

- فيه واحد قسيس عاوزك يا ماجدة.

كانت الفترة الماضية قد توترت فيها العلاقة بين منال وماجدة وساعد على زيادة حالة التوتر هذه موريس زوج منال الذى أحب ماجدة وعندما فشل فى أن يتزوجها ، تزوج من منال.

- اسمه إيه يا منال ؟

- معرفش! بيقول إنه جاء من دير مش عارفة اسمه إيه كده المعترف فى"أسيوط"

أسرعت ماجدة إلى حجرة الصالون ؛ فوجدت القس جالسا .سألته فى لهفة عن القس صموئيل. حين دخلت منال الحجرة وراءها قالت لها ماجدة :

- ألا يجب أن يشرب أبونا شيئًا من يد أختنا العزيزة.

فهمت منال تعليق ماجدة ، فانسحبت فى هدوء رغم أنها اغتاظت لحرمانها من سماع إجابة الأب عن ذلك المسمى بصموئيل.الذى لا تعرفه ، والذى جعل صوت ماجدة هكذا رقيقًا وحنونًا .

كادت ماجدة تموت وهى تسأل عن أحوال حبيبها السابق . ترى لماذا أتى ذلك الأب ؟حين دخلت منال المطبخ كانت الأفكار تتصارع فى رأسها من لهفة ماجدة على لقاء ذلك القس الذى بدا فى عيونها حين فتحت له الباب أنه رجل فاسد ولولا زيه لطردته دون تفكير.أفاقت منال على فوران القهوة ، فأمسكت بالكنكة ووضعتها على الترابيزة ، ثم وضعت ملعقة بن مرة أخرى وقربتها من النار وهى حريصة على عدم فورانها حتى لا تتعطل كثيراً عن ذلك اللقاء الغريب. قطع الأب"متَّى" كلامه حين دخلت

"منال" بالقهوة . وقفت "ماجدة" ، وأخذت الصينية من يدها . ضحكت منال وتخيلت جملة يجب أن تكتب على جبين ذلك القس " هذا الأب قذر فلا تتبعه واتبع الشيطان أفضل ! .

– لا تؤاخذني يا أبانا فلابد أن حرص الأخت على قهوتك جعلها تنسى كوب الماء المثلج.

خرجت منال سريعاً وفتحت الثلاجة ، وأمسكت بزجاجة كبيرة . خرجت دون أن تأتى بكوب. وقبل أن تدخل الصالون سمعت صوت ارتطام باب الثلاجة بالحائط ، فعادت مسرعة ، وهى تضحك لوقع تلك الجملة التى رددتها كثيراً فى اللحظات التى خرجت ، لتأتى بالماء. أحكمت غلق باب الثلاجة ، ثم مدت يديها وهى تنظر إلى باب الثلاجة مرة أخرى وتناولت كوباً زجاجياً كبيراً دون أن توقع بقية الأكواب كعادتها دائماً ، قبل أن تدخل الحجرة انتابها ذلك الإحساس بأنه يجب عليها أن تعترف لأبيها فى الكنيسة عن تلك الجملة التى رددتها كثيراً فى حق ذلك الأب. وضعت الكوب المملوء فى يده ، ثم وضعت الزجاجة على الترابيزة التى تتوسط الكراسى المذهبة والكنبة الكبيرة وكرسى الفوتيه التى دفع فيهم زوجها موريس ثلاثمائة وخمسين جنيهاً بالتمام والكمال .

– هذه أختى الصغيرة منال ، ولقد تزوجت منذ أربع سنوات ، وحتى الآن لم تأت لنا بطفل صغير. أدعُ لها يا أبت لعل الله يرزقها بولد أو بنت تحمل متاعبها حتى تعود إلى حظيرة الرب التى خرجت منها منذ أكثر من عشرة أعوام ، وترفض أن تذهب إلى الكنيسة ، حتى يوم تنيح أبى لم تذهب . لقد منحها المسيح زوجاً جيداً يحافظ على الصلاة فى الكنيسة دائماً. دعا لها "متّى" بالصلاح والعودة إلى الله وأن يبارك فى زوجها ، حتى يستطيع يسوع أن يمنحه القدرة أن يقذف فى الرحم بنطفة تخرج من تلك البطن ابنا جميلا . ضحكت "منال" وهى تقول :

– لن يستطيع يسوع أن يسمع لأن أذنيه قد أغلقتا دونك ، ولن يتخللها صوتك الملئ بالمياه الآسنة .

وقف"متّى" ، ورفع الصليب الخشبى الصغير النائم فوق صدره على رأسها ، فلم يسمع كلمات ماجدة المهشمة التى تردد اعتذارها فى خجل. قالت منال فى برود :

– لا تنزعج يا أبانا فلم أقصد هجران حظيرة الرب ، كما تقولون أنتم القساوسة والقديسين وأولاد ذلك الرب دوننا نحن أولاد يوسف النجار ، ولكنى أقصد أن زوجى الجيد كما تزعم أختنا العظيمة ليس له فى النساء على الإطلاق أو على الأصح زوجى هذا لا يصلح رجلاً وعليه أن يرتدى رداءك ، ثم انفجرت دموعها ، وجرت إلى حجرتها .وقفت ماجدة لحظات تفكر فى أختها الصغيرة التى لن تكون أمًا على الإطلاق ، وماذا تصنع لها حتى تمنحها ذلك الطفل الذى لابد هو الذى يؤرقها ويبعدها عن الرب.

جلس"متّى"على الكرسى الفوتيه ، ثم أخرج من جيب جلبابه الأسود منديلاً أبيض ، وضع عليه بعض الماء من الزجاجة التى أتت بها منال منذ قليل و مرره وجهه ، ثم خلع الطاقية الثقيلة ، ووضعها جانبه ومشى بالمنديل على رأسه الخالية من الشعر ، ثم نظر إلى ماجدة المنشغلة عنه بأفكارها ، وماذا تصنع لأختها الصغيرة وقال لها :

– ادخلى عليها .أدعو الرب إلهنا أن يمنحك قدرته ويديه الحانيتين لتشيلى أحزان ابنتنا الصغيرة منال.

انسحبت ماجدة فى هدوء ، ودخلت إلى حجرة أختها .كانت تجلس على الأرض ، وتضع رأسها وصدرها على السرير ذى المكتبة المليء بكتب الكنيسة الأرثوذكسية فوق المكتبة صورة للمسيح وهو فى ردائه الإفريقى وملامحه الإفريقية ، وعلى حوافها صور صغيرة لنيافة الأنبا شنودة الثالث ، وبعض القديسين. رفعت منال وأشارت إلى الكتب والصور ، وقالت لأختها فى مرارة :

– هذا كل ما يقوم به موريس. تنظيم الحجرة وتلميعها ، أما أنا كما ترين عاطلة عن العمل كزوجة تتمنى أن ينام زوجها على صدرها ، ويكسرعظامها أو يهشمها ويضع أسنانه الحادة فوق رقبتها كما كنت أسمع من صاحباتى اللواتى تزوجن قبلى .

لماذا تنظرين لى هكذا ؟! لست قديسة مثلك كما أننى شهوانية جداً وأتمنى أن أجد رجلاً يهرس عظمى تحته ، فلا أعرف أين لحمى حين أتماسك.

احتضنتها ماجدة ، وتركت دموعها المحبوسة منذ عشرين عامًا تنطلق ، لتغرق رأس أختها التى أصيبت بحالة من الهستيريا . أنامتها على السرير ، وحاولت تهدأتها ، وحين غرقت فى النوم ، أغلقت الباب عليها .

توجهت إلى القس الذى بدأ يشعر بالقلق . جلست أمامه . أخبرها بضرورة سفرها ، لترى صموئيل حبيبها ، الذى هرب منذ ما يقرب من عشرين عاما ، وكانت قد وعدته أن تسافر معه اليوم ، ولكنها طلبت منه أن يكون السفر فى الصباح لأن أختها قد أصابتها حالة تشنج ويجب أن تذهب بها إلى المستشفى عندما يعود موريس زوجها من العمل فى تمام الرابعة . أستأذن"متّى" على أن يلتقيا سويًا فى محطة القطار فى السابعة إلا الربع تمامًا عند شباك تذاكر الدرجة الأولى . وعدته أنها سوف تكون هناك فى السادسة والنصف . وضع الأب بعض قطرات الماء على المنديل ، وأمسك بالطاقية ، ووضعها على رأسه. أحكمها تمامًا ، وخرج بخطوات بطيئة ، وهو يدعو للأخت منال بالشفاء ، ثم راح يوصى ماجدة عليها وعلى موعدها فى الصباح. أحكمت غلق الباب ، ثم دخلت إلى حجرة أختها .كانت منال قد جلست على السرير والدموع تسح من عينيها. جلست جوارها ، وهمست :

- ما ذنبى أنا يا منال حتى تعاملينى هكذا ؟!

انسحبت منال للوراء ، وأراحت ظهرها ، وأمسكت ساقيها بيديها ووضعت رأسها بينهما دون أن تجيب على سؤال أختها الوحيدة لها فى الحياة بعد موت أمها وأخيها وأبيها .

- ردى عليا يا منال . أنا ذنبى إيه ؟!

- مفيش حاجة . سيبينى شوية لوحدى.

- أسيبك إزاى هو أنا أقدر أسيبك .

– أرجوكى سيبينى لوحدى وأنا هفوق على طول وكأن ما فيش حاجة .

– مالك يا منال إيه اللى جرى لينا ؟!

– أبدًا ما فيش

– يعنى تدبسينى فيه ، وأنتى عارفه أنه مش راجل وبعدين تحلفى ما تزعلى ؟!

– أدبسك فى مين يا منال ؟

– الزفت جوزى . ثم ضحكت وهى تقول جوزى المخصى .

– إخرسى يا منال إنت عقلك باظ خالص ومبقاش حد يلمك ولا إيه؟إنتى فكرتى أن أبوكى مات ، ودلعتك شوية يبقى مش هعرف أربيكى ولا إيه !

– متطلعيش فيها قوى لحسن تموتى . مين فينا اللى عقله فلت . أنا يا ست هانم والا البيه اللى قعد ٨ سنين يمشى وراكى وفى الأخر اتجوزنى ؟

ثم وضعت رأسها بين فخذيها وراحت تبكى . تحركت يد "ماجدة" بهدوء على شعر منال ثم أمسكت برأسها وراحت تبكى وهى تقول .

– ليه مقولتيش يا منال؟إنت مفكرة إنى كنت عارفة وساكتة والا هجوزك لواحد .. ثم سكتت وقالت انت بنتى يا منال وانفجرت فى بكاء طويل .

أمسكت منال بالمنديل الموضوع على الكمودينو وراحت تمسح لأختها وجهها ثم قالت لها :

– خلاص علشان خاطرى خلاص أنا آسفة غصب عنى أنا خلاص هتجنن ، كان نفسى أتجوز بجد. إنت مش حاسة ، لأنك اترهبنتى وخلاص ، لكن أنا لسه صغيرة ونفسى جوزى يرضينى.

رفعت ماجدة رأسها ، وأمسكت من يد منال المنديل ومسحت وجهها جيداً.

– أيه رأيك ياماجدة تنسى كل حاجة ، قوليلى القسيس ده كان عاوز إيه منك ؟

ومين اللى فى أسيوط واسمه صموئيل وتعرفيه وملهوفة عليه قوى قوليلى صموئيل ده عادل بتاع زمان !

– هو إنت لسه فاكرة ؟

– ياه.عادل هو لسه عايش ، وليه غير اسمه ؟ وراح أسيوط ليه ؟ أنا فاكره ساعة متخانق مع اخوكى سمير الله يقدس روحه ومشفتوش تانى وياما سألتك عليه .

كانت الأفكار تمضى فى رأس ماجدة ومنال تطرح تلك الأسئلة عليها.هل تقول لها أن القس الذى جاء قد حكى لها أن صموئيل غير مستريح فى البعد عنها ، وأنه لم ينجح فى الدير لأنه مازال يفكر فيها ، وأنها لابد أن تذهب إليه . كان لا بد أن تخبره أن من رآه معها وتسرع وتشاجر معه منذ سنين طويلة هو أخوها ، وليس عشيقها كما فهم خطأ.عليها أن تحصل عليه ، ويقيمان بيتًا عائليًا تحرسه الملائكة وباستطاعتهما أن ينجبا أولادًا كثيرين . العمر لم يمض طويلاً ، لأنها بالكاد فى بداية الأربعينيات ، وهو فى الخامسة والأربعين. هل تحكى لها عن كل هذا؟ ولماذا لم تحك من قبل ؟ أفاقت منال على صوت المفتاح الذى وضع فى باب الشقة ، فوقفت ، وعدلت الإيشارب الذى كان قد انسحب من فوق رأسها ، فأحكمت ربطه .مسحت وجهها وهمت أن تخرج من الحجرة ولكن موريس فاجأها وقال وهو يضحك .

– هل حدث مكروه للشيطان الذى يسكن حجرة زوجتى الجميلة حتى تدخليها يا ماجدة ؟

التفت موريس وراءه قبل أن يدخل الحجرة فوجد منال وراء ظهره ، فابتسم وهو يحاول أن يتجنب الاصطدام بها ودخل إلى الحجرة.

– أحضر لك الغداء ؟

– تعالى بس قوليلى فى إيه ووشك مخطوف كده ليه ؟!

– أبدا ما فيش حاجة بس تعبت شوية وناديت على"ماجدة" تعملى كباية مياه

بسكر. علشان أقدر أقوم .

– طب ألبسى ياللا نروح للدكتور .

– مافيش حاجة ياموريس شوية تعب وراحو لحالهم ، ما تتاخدش قوى كده لحسن أفتكر إنك بتخاف عليه قوى وبتحبنى أنا يعنى.

تغير لون موريس ، وهو يحاول النظر فى وجه منال التى نظرت إليه ، فأنزل رأسه دون إرادة ، ولأول مرة يحس أن نظرة منال تشبه نظرة ماجدة ، جلس على حافة السرير ثم أراح ظهره . خلع الحذاء وتمدد ، فقالت له منال :

– أنت أ كلت بره ؟

لم يرد عليها .أغمض عينيه.حاول النوم. لكنه لم يستطع. خرجت منال من الحجرة ودقت الباب على أختها ، ثم دخلت ، وأغلقته وراءها. جلست على السرير وقالت :

– إيه بقى حكاية سى عادل ده . يعنى كده أنا مش هسيبك إلا لما تقوليلى .

– بطلى كلام فارغ يا منال وقومى حضرى الأكل لجوزك .

– جوزى جى مهدود. ما تقوليش كان بيحارب ونام .يعنى ما فيش حجة تطلعى بيها عشان تخلصى من الموضوع .

– لا موضوع ولا حاجة ، بس أنا مش هقدر أقولك حاجة إلا لما أرجع .

– ترجعى منين ؟!

– من أسيوط .

– أسيوط . مره واحدة . إش. إش . ماشيه معاك يا عم صموئيل هاتشوف ماجدة هانم . ولا أقول القديسة ماجدة علشان متزعليش.

– ربنا ما يجبش زعل وإذا كنت غلطت فى حقك . حقك علىّ يا "منال" سامحينى على كل حاجة يا منال .

– ما فيش حاجة دانت اللى مربيانى يا ماجدة وربنا يوفقك ، وأنا مستنية لما

تيجي من أسيوط . بس على شرط تحكي لي على كل حاجة .

– ربنا يسهل.أنا خايفة قوى أحسن القسيس"متى" بيقول تعبان ويجب أن يعود معى حتى يستريح ونبدأ حياة جديدة .

– ربنا يوفقك يا أختى ، إن شاء الله كل شيء هيبقى كويس ، وأدينى أهوه . بكره أفكرك لما تخلفي من صموئيل ده خمس عيال ، ثلاث صبيان وبنتين. بس أمانة عليكى إن كنت موجودة أومش موجودة البنت الأولى تسميها على اسم أمك ، والثانية تسميها منال. وحياة صموئيل.

لم تكن تعلم أن ماجدة سوف تسمى طفلتها الأولى منال. حين وضعت منال رأسها فى حضن أختها لم تكن تدرى أنها قد قرأت الغيب تماماً وأن أختها سوف تعود بصموئيل وسوف ترزق منه بخمسة من الأطفال.

حين دخلت منال حجرتها كان دخان سجائر موريس يكشف إدعاءه النوم. خلعت الجلباب ، وتمددت جواره دون أن تلمس جسده البارد حتى لا تشتعل أكثر. فى الصباح حين وجد ورقة موضوعة على الترابيزة الموجودة فى الصالة والمحاطة بستة من كراسى الخيرزان ، لم يكن يعلم أن ماجدة سافرت وأن منال تعلم. فدخل الحجرة مرة أخرى ومشى بيده على شعر منال التى فتحت عيونها بصعوبة ، وأجابت على سؤاله بخصوص ماجدة وأغمضت عينها مرة أخرى . ففكر أنها تريد أن تنام دون أن تخبره عن سبب سفر ماجدة . فضربها على رأسها وقال لها :

– بقولك ماجدة سافرت إلى أسيوط ! رفعت جسدها عن السرير وهى تصيح فيه:

– عارفة إنها سافرت زفت . عاوز إيه منى فى اليوم ده ؟

– سافرت ليه ؟

– علشان تشوف صموئيل ، حبيبها الأول والأخير يا أستاذ. فاهم. يعنى الأول والأخير . يعنى عمرها محبتك. لازم تعرف إنها عمرها .

رفع موريس يده ، وأنزلها على خد منال التى ارتمت على السرير من أثر الضربة ، ثم رفعت رأسها وقالت :

– إحنا لازم نسيب بعض يا موريس . أنا عارفه كل حاجة. أوعى تكون فاكرني هبلة . طول عمرى وأنا عارفة ، وبتضحك على نفسك . أنا يمكن كنت ساعات بصبر نفسي وأقول بكره يتحول بكره يفوق. لكن الظاهر أنك هتفضل كده ، لكن اللى أنت مش عارفه أني حبيتك قوى ، والمسيح الحى حبيتك أكتر من نفسي وكان نفسي أسعدك ومتفكرش فى الحاجات التانية . أنا ممكن أعيش معاك مية سنة من غير حاجة.

جلس موريس على كرسى ، ثم وضع يديه على أذنيه حتى لا يسمع الكلمات الخارجة من فم منال التى وقفت وأراحت يديها وهى تقول :

– اسمع طول عمرك قافل ودنك وقلبك عنى. أنا كان عندى استعداد أعيش معاك العمر كله تحت رجليك. وميهمنيش الهلس خالص ، ولكن من الأسبوع الأول عرفت هيامك بأختى وأنا اللى حبيتك أول ما شوفتك ، وقلت يمكن تكون مغرم بأعمال ماجدة الخيرة والصالحة فقط ولكن من الأسبوع الأول عرفت إن الحكاية مش أعمال خير ورهبنة ، رفع موريس رأسه ، واتجه إلى خارج الشقة و منال تقول له:

– أنت هترجع مش هتلاقينى إحنا لازم ندور على حياة جديدة .

لم تستطع ماجدة أن تنام ، فظلت ساهرة طوال الليل تنظر للساعة المعلقة على الحائط ، التى يخرج منها بلبل صغير كل ساعة. كانت تفكر فى "عادل" ، وكيف يلقاها ، وهل يصدقها ، وكيف هرب هكذا ، ولماذا لم يسألها عن أخيها وكيف مات لسانها فى تلك اللحظة ؟؟!

افتح فمك معى

أعتقد أن كثيراً منكم قد شاهد فيلم الرهينة ، وبالتأكيد ما زالت تلك اللقطة فى رؤوسكم حين أمسك بطل الفيلم بالطفل الصغير وأمه أمامه ، فى تلك اللحظة كان يجب على الأم أن تصرخ على الأقل ! ما الذى منعها من الصراخ ، ما الذى جعلها تقف كلوح الشمع دون حركة وهى ترى ابنها يخطف؟ كيف مات لسانها ، ربما خافت على ابنها الذى يمسك به ذلك المجهول بالنسبة لها ؟فكيف سكتت"ماجدة" حين رأت

عادل حبيبها يتعارك مع أخوها سمير؟ ، لماذا لم توضح لعادل ذلك؟ ربما لأن أخاها لم يعرف بالعلاقة التى بينهم ومن أجل ذلك تحاملت على نفسها ، وصعدت السلم؟ولكن تلك القصة تصنع فى الأفلام العربية القديمة. فكيف استطاعت رغم أنى من أشد الحانقين على تلك المشاهد التى يبحث فيها بطل الفيلم عن الشجرة التى يصطدم بها حتى يعود إليه بصره المفقود من البداية. لا أعرف ربما ذلك المشهد القذر ، هو ما أوحى لى بتلك الحالة.

حين خرج البلبل الصغير معلنا الرابعة صباحًا ، قامت من جلستها وخرجت على أطراف أصابعها ، ودخلت إلى الحمام وغسلت وجهها ثم نظرت فى المرآة ، كانت هناك خصلة شعر طولها أكثر من ست سنتيمترات بيضاء. ولم تفكر أنها رأتها قبل الآن؛ أمسكت بها تريد قطعها من جذورها ولكنها أحست بألم شديد ، فتركتها تسقط على باقى الشعر ليشكل مع الشعر الأسود منظرا بدا فى عيونها جميلا وضعت الماء البارد على رأسها ثم راحت تمشطه. تمنت أن توقظ "منال" لتأخذ منها علبة البودرة حتى تخفى تلك العلامات التى جاءت على مر السنين. سمعت صوت البلبل الصغير يخرج من الساعة معلنا أن الساعة الآن الخامسة ، فلبست الشراب ثم أخرجت ورقة بيضاء من الشفنيرة وراحت تكتب لأختها ملاحظات تستطيع منال بواسطتها إطعام الطيور الموجودة فى الدور الأول. وتتمنى لها يوما سعيدا وتخبرها أنه إذا لم تعد اليوم ، فلا داعى للقلق عليها لأنها لابد ستعود مع "صموئيل" ، ثم طوتها وأمسكت الحذاء ، وخرجت ، ووضعت الخطاب على الترابيزة وخرجت.

حين دخلت من باب محطة السكة الحديد ، كانت الساعة المعلقة تعلن السادسة والنصف والأضواء ترمى بظل الحركات المسرعة للمسافرين فبدت الخيالات طويلة جدا فى عيونهم ، حاولت أن ترى ظلها ولكن الخيالات المسرعة الكثيرة لم تتح لها الفرصة . دخلت من باب (٣) ونزلت السلمات الكثيرة ، ومرت من النفق البارد ذى الأنوار الباهتة إثر تراكم ذرات التراب فوق الغطاء الزجاجى الخارجى. نظرت خلفها ، وهى ترفع قدميها على أول سلمة فى الصعود ، فلم تجد أى خيال. استراحت لسماع صوت

الخيالات النازلة فى سلم الصعود. أخرجت النقود من الشنطة السوداء، وأعطت لبائع الجرائد ثمن جريدة الأخبار التى أشترتها لأول مرة فى حياتها. جلست على الكرسى، وراحت تتصفح العناوين الرئيسية التى لم تستقر فى ذهنها بمجرد المرور عليها. شردت كثيرا فى الأب "متى" الذى رأته للمرة الأولى فى حياتها منذ خمسة عشر سنة. يومها أرادت أن تعرف منه أسماء الرهبان الذين دخلوا الدير خلال الخمس سنوات الماضية، فلم يرد عليها، فقالت له عن ذلك الاعتراف الوهمى. أسكتها بسبابة يده، وراح يتحدث عن الرب الذى فى السموات والذى يعمل من أجلنا نحن - الأطفال - اللاهين بوقته الثمين، فلم تجد أمامها غير الحقيقة، فاعترفت بحضورها من أجل عادل حبيبها الذى دخل الدير منذ خمس سنوات، لما وجد أخاها سمير يحملها، ولم تستطع أن تصرح له أن ذلك الولد أخوها. وأنها ذهبت إلى أهله، ولكنهم رفضوا أن يعطوها أى معلومة، ثم حكت له عن حكايتها مع عادل من البداية إلى النهاية، وكيف أنها سمعت عن طريق الصدفة أنه دخل إلى الدير، فلم تنتظر أن تأخذ رأى أبيها وركبت القطار، واتجهت إلى هنا، وتمنت أن تقابله، ولكن الأب "متى" رفض ذلك وأخبرها بتقاليد الدير. فلماذا أتى لها الأمس ؟! وكيف يسمح لها الآن برؤيته ؟ وكيف تغيرت تقاليد الدير وقوانينه ؟! يبدو أن عادل مريض جدا. رغم أن قلبى يحدثنى أنه بصحة جيدة ولماذا احتفظ ذلك القس بعنوانها طيلة خمسة عشر عاما ؟ يجب أن أسأله حين أرى وجهه ولن أذهب معه.

وقفت ماجدة مذعورة حين وضع "متى" يده على كتفها. التفت الواقفون على صوتها. تغير وجه "متى" الذى لم يكن يعلم أن مجرد تلك اللمسة سوف تخرج ذلك الصوت الذى جعل مائة عين لخمسين إنسانا يحدقون فيه. جلس "متى" جوارها وهو يرفع عينيه فى الوجوه التى لم تستطع الوقوف أمام نظرته التى يملأها الإعزاز والإكبار.

- منذ متى وأنت جالسة هنا ؟

- من السادسة والنصف تقريبا.

– ألم أقل إن القطار موعده السابعة والثلث؟! أمامنا خمس دقائق حتى يفتحوا الباب.

– أتمنى أن يفتحوا ذلك الباب ، حتى أستريح من تلك العيون المحدقة .

– هل تسمح لى أن آتى بتذكرة ؟

– لا داعى ، فلقد حجزت من الأمس حين تأكد لى أنك سوف تأتين معى من أجل "صموئيل". كانت الأفكار تقتلنى وأنا أمشى أمام الأب نبحث عن أرقام الكرسى. دخلت وجلست جوار الشباك وجوارى جلس الأب "متى" ، كان يبدو على وجهه أنه يريد أن يقول شيئا خطيرا ، ورغم ذلك لم يفتح فمه. كنت أنتظر أن يبدأ ولكنه آثر السكوت. فسألته أنا عن سبب حضوره ، فقال:

– الأب بشاى أرسلنى رغم مخالفة التقاليد والتعاليم .

– من هو "بشاى" ؟ .

– إنه أب الدير الذى به صموئيل ، وهو يحرص على أشياء كثيرة تكسرت يجب أن نصلحها ومن أجل ذلك اعترفت له بما أعرفه عنك وعنه . اغفرى لى ذلك أيتها الأخت ولم أكن لآتى إليك إلا بعد أن قال نيافة الأب بشاى إن وشائج المحبة باقية عند المحبين.

حين ذلك نزلت دموعى دون أن أدرى. حاول "متى" أن يقول شيئا ، ولكنى كنت أريد لتلك الدموع أن تغسل عشرين عاما أو ما يزيد عن ذلك . وشائج المحبة باقية . من أخبر الأب بشاى بتلك الجملة .. وشائج المحبة. أغمضت عينىّ ، وأنا أقول من أخبر ذلك الأب بتلك الجملة ومن حكى له عنا يا عادل ؟!. أتذكر حين التقينا أول مرة كنت فى السنة الثالثة من معهد المعلمين كنت أعيش مع البنات فى القسم الداخلى. أمسكت بالحقيبة الثقيلة ونزلت السلم وجلست على الدكة الموضوعة جوار السور فى انتظار سمير . جلست أكثر من ساعة ، ثم أمسكت بالحقيبة مرة أخرى ، وابتدأت المشى .كانت الحقيبة ثقيلة جدا . على بداية الشارع وجدتك تمسك بالكتاب المقدس

وبعض الكتب الأخرى . لم أكن أعلق صليباً كما البنات الأخريات كنت أعيش كإنسانة عادية مؤمنة بعض الوقت بعيداً عن ذلك الصليب المعلق فى أطواق البنات . وكثيراً ما حدثت مناوشات بينى وبين قس الكنيسة على ذلك الصليب ، وعندما أراه يسألنى عنه كنت أقول له تلك الجملة التى تجعله ينسى الصوت الهادئ الرزين الذى يبدأ به معى لكى يقنعنى بارتداء الصليب ، ويبدأ فى تعنيفى من حفظى لتلك الألاعيب الشيطانية ، ثم يتركنى ، ويمشى ، فأمضى ، وانأ منتصرة على كل حركات التخلف التى يمارسها هؤلاء الذين يصلحون لإقامة مجتمعات الحلقة أو المنبوذين . يومها أمسكت أنت يا عادل بالحقيبة من يدى دون أن تخرج من فمك أية كلمة . ضحكت حين رفعت الحقيبة من يدى بعد خطوتين على كتفك وأعطيتنى الكتب التى كنت تمسك بها ، وخطوت خطوات مسرعة كادت أن تخرج صوتى للنداء عليك أو على الناس لكى يمسكوا بك لولا نظراتى الخاطفة على الكتاب الأسود الكبير. فوقع نظرى على الصليب حين ذلك بلعت ريقى وذلك الصوت الذى كاد أن ينفجر ، ويحطم علاقة ظلت عشرين عامًا أو يزيد حتى الآن. هل تذكر يومها يا عادل ، ذات الشكر قلت الشكر للرب ، ثم ألتفت لكى تتحرك ، ولكن الجملة التى قلتها بعد أن قلت الرب أعادتك إلىّ مرة أخرى. هل تذكر ماذا قلت لك ؟ الرب يسوع المسيح يحرسك. فى تلك اللحظة وقف عصفوران فى أعلى الشجرة يتسامران. أظن أن هذين العصفورين هما اللذان نفخا جناحيهما داخل قلبينا ليجلسا أعلى الشجرة ! لحظتها نظرنا إلى أعلى الشجرة معًا .فإذا بالفراشات البيضاء الصغيرة تنزل من فم العصفورين المتعانقين على رأسينا. فمضينا معًا ، وعرف البيت ، واستمرت علاقتنا أكثر من سنة وثلاثة شهور ورغم قصر المدة إلا أنها استطاعت أن تحيينى عشرين عامًا أو يزيد ممتلئة ، بل أقول لك دون أدنى شك أنها تستطيع أن تحيينى إلى نهاية العمر ، رغم ما مضى بى من أحزان كثيرة فى تلك المدة. هل تعرف أن أبى مات منذ عشر سنوات حزناً على أخى سمير وأمى كلهم ماتوا فى عامين ، وتركونى وحيدة مع أختى الصغيرة "منال". أنت رأيت سمير أليس كذلك ذلك الولد الذى كان يحملنى حين زلت قدماى وظننته أنت عشيقى. قل لى ياعادل ما الذى أتى بك فى تلك الساعة عند بيتى. هل تذكر "منال" يا عادل؟. كبرت الآن هى الوحيدة التى

عرفت علاقتى بك ، وهى الوحيدة التى عرفتها أنت من عائلتى. أتساءل الآن لماذا لم أحك لك عن سمير وأبى وأمى. لا أعرف ربما أراد الله ذلك حتى نفترق. هل تتخيل منال الآن كبيرة ومتزوجة منذ أربع سنوات ، يومًا ما سوف أحكى لك عن زوجها موريس ، ذلك اسمه.

انتبهت على صوت "متّى" يسألنى إن كنت أريد أن أفطر ، فتحت عينى وشكرته ولكنه ألح علىّ أن أشرب شايا ً بالحليب مع باكو بسكويت صغير فأومأت له برأسى موافقة . أغمضت عينى وأنا أقول أجوبة كثيرة يجب أن ترد بها على أسئلتى يا عادل.عشرين عامًا أو يزيد . طويلة جداً هذه الأيام.أنا الآن أبحث عن منمات وجهك وتضاريسه.حزينة كل العيون التى لم ترك . أتذكر يوم ذهبنا معًا إلى الحديقة اليابانية.كانت معنا منال التى ظلت أكثر من خمسة أعوام تسأل عنك وعن الشيكولاتة والفندام وعن الصور التى أخذتها لنا. وكانت هى جالسة فوق أقدام آلهة اليابان. يومها سألتك منال عن أسماء هؤلاء الجالسين فلم تجد مفراً من سؤالها المتكرر. وكنت لا تعرف غير بوذا فقط من أسماء آلهة اليابان . فرددت لها المقول الشائعة أن هؤلاء : (على بابا والأربعين حرامى). أين تلك الصور يا عادل ، هل ما زلت تحتفظ بها ؟ لماذا لم تسألنى عن الذى حملنى بين يديه بدلا من الهروب؟! هو أخى ، أما أنت ، فحبيبى.كان يجب عليك أن تتحرى الدقة من قلبك وليس عيونك. انتظرت عودتك كثيراً ، ولما يئست ذهبت إلى بيتكم. لم أشفَ من حزنى ، بل إن أهلك أشعلوا نيرانًا جديدة فى لحمى. ضائعة معك ومع أهلك يا عادل. ضائعة مع كل الناس . فتحت عينى على صوت الجرسون وهو يقدم الشاى بالحليب لى ، كان باكو . بعد هروبك تعمدت أن أرتدى صليبا كبيرا مع تايير أسود حتى لا يقترب أحد منىّ. دخلت عالم القس الذى كان يطلب منىّ أن أنسى تلك الجملة التى كنت حين أقولها يحمر وجهه . أنا الذى ظللت أكثر من عشر سنوات منها أربع سنوات كنت فيها أجرى إلى البيت فرحة وأكاد أطير حين أرى وجه ذلك القس. دخلت عالمه بكل يسر وسهولة فى أسبوع. كيف حدث هذا؟ لا أعرف !

كيف تمت تلك اللعبة .. فى البداية كانت ماجدة تذهب إلى الكنيسة مساء كل أحد لتتقرب إلى المسيح ، ولتكون مؤمنة فى عيون عائلتها المكونة من أب وأم وأخ كبير وأخت صغيرة. كان القس"ذو الصليب" قساً عادياً جدا يحب دينه ، ويحرص على عمل الخير ، ولكنه حين رأى ماجدة للمرة لأولى ارتعش جسده رعشة لم يعرف كيف أحرقت ذلك التابو المفروض على قلوب القديسين والرهبان. حينئذ أنتاب قلبه قلق ما. لنا أن نطلق عليه مسمى الماس الكهربائى الأنثوى. وسوف نعود إلى ذلك المسمى فيما بعد. المهم أن ذلك القس"ذا الصليب" لم يجد مكاناً يهرب إليه من عيون ماجدة التى راحت تتربص به حين يختلى بنفسه. ظل ذلك لمدة شهر أو شهرين قبل أن يفكر فى غزو روح ماجدة ، ولعبت الصدفة دورها فى تغير مسار تلك الغزوة التى استبطنها ذلك القس. حين وجدها تمشى فى رواق الكنيسة قبل الصلاة ، ستجمع كل روحه التى تنسحب إلى قدميه حين يلمح وجهها من بعيد ، ثم دنا منها وقال لها :

- لمٍ لا تضعين الصليب حول رقبتك أيتها الأخت ؟!

فى الحقيقة ذلك السؤال خرج منه دون رغبة ، ولكنه حين خرج ، نظرت إليه ماجدة بعيون صقر ينقض على فريسة. أكمل حديثه بعد أن ظن أنه أثار شعورها . رغم أنه علم فيما بعد أنه أختار بداية خاطئة ، وأنه أخفق ، وكان يجب عليه أن يضع حذاء فى فمه بدلاً من أن يعيد ذلك السؤال ، الذى ظل يندم على أنه طرحه أمام تلك الفتاة من الأساس.

- لماذا لا تضعين الصليب حول رقبتك أيتها الأخت الصغيرة ؟!

كانت تعلم أن هناك أساليب عديدة من الرهبان والقساوسة لغزو عقول الشباب ، لكى يرتدوا صليبا حسب تعليمات عليا جاءت لهم ، ولكنها لم تصطدم بأى منهم .رغم أنها كانت تحرص فى العام الأخير على الصلاة فى الكنيسة. لكنها لم تكن تعلم كيف يتم ذلك الغزو من القساوسة بتلك السذاجة والسطحية ، فراحت تحدق فى الفراغ ، وتتنقل نظرها بتلك التوهمات التى راحت تتخيلها لذلك الصليب الذى يطلب منها القس أن تضعه .

ربما كـان علينا فى تلك اللحظة التى أخطأ فيـها ذلك القس فى طرح سـؤاله أن نكتشف لمٍ سمى ب-" ذى الصليب " . حدقت ماجدة فى وجهه وقالت :

- الدين لله والوطن للجميع .

ولنا أن نتصـور مع تلك المقولة الاشـتـراكيـة التـى سـتكون مـحـوراً لتلك العـلاقـة الخاصة بين ماجدة والقس ، فقد فتح فمه ، ونظر إليها نظرة. سوف نطلق عليها "نظرة المطعون" ، ونظرة المطعون هذه جاءت فى فـيلم "أدهم الشرقـاوى" ، وهـى النظرة التـى نظرهـا "عـبـد الله غيث" حـين ضـربه صـديقـه الذى قـام بدوره "توفـيق الذقن" ، ورغم الاخـتـلاف الظاهر للعـين المجـردة بين المـوقـفـين ، فـحـين تلقـى " أدهم " الطلقـة أو الرصاصة من صـديقه ، كانت نظرته حين ذلك نظرة غير المصدق أن تأتى الصـفعة من هذا الصديق ، الذى سـهر عليه ، وأخرجه من مواقف كثيرة ، منهـا السجن على الأقل. أمـا تلك النظرة التى بدت فى عين ذلك القس فى تلك اللحظة فهى نظرة المتفـاجئ بذلك الرد من تلميذة صـغيرة لم يتعد عمرهـا الخـامسـة عشرة علـى أكثر تقدير. فمـا الذى جعلنا نطلق عليها نظرة المطعون رغم أن الموقفين غاية فى الاختلاف.؟!

فى الحقيقة ماجدة نفسـها ذهلت من الرد الذى خرج من فمها دون أن تفكر فيه ، ولم تتـخيله حـين كانت تتـخيل الصليب الذى يجب عليـهـا أن ترتديه لعيـون ذلك القس المعذب بهـا . ولكنهـا حـين رأت رد الفـعل على وجـه القس ، تمنت أن تمسكه من يده كالأطفـال الصـغار بقبضة شديدة لا يمكن الإفـلات منها وتقوده إلى ممر ضـيق ، وتقبله فى فمه ، ولكنها لم تفعل شيئًا من ذلك ، فظلت تنظر إليه. أمـا هو فقد فكر للحظات أن يمسك بيديها ، ويسحبها إلى غرفة فسيحة مليئة بالأنوار ويظل يرفع حزامًا منقوعًا فى الزيت لمدة سنتـين على الأقل ، وينزل به على جسـدها النحيف ، ثم يعـريهـا ويمـارس معـهـا الجنس أو التقبيل على الأمـاكن التى لمسـهـا ذلك الحـزام .وهنا لابد إلى الإشـارة إلى أنـه لوتم ذلك. رغم أن المـوقـفـين مـخـتلفـان. فـ-"مـاجـدة" عطفت على حـ . ذى الصليب" حين وجدته مفتوح الفم ، وقدمـاه ترتعشان ، أمـا القس"ذو الصليب" فكره رد مـاجدة. تذكروا هذا جيداً . كره الرد ولم يكره الذات . لست أعرف لماذا لعبت الأقدار

تلك اللعبة لتبعد محبين حقيقيين عن بعضهما. ربما لأن الأقدار شاءت أن تحب ماجدة عادل.الذى سوف يدخل الدير ، ويظل فيه مدة اثنين وعشرين عاما أو يزيد ، ثم تتزوجه كما هو مطروح فى الرواية ، أم لأن القس "ذا الصليب" هو الشخص الذى يُمكن أن نطلق عليه أحد أبناء الخطأ الرومانسى ، هؤلاء الذين يحبون دون أمل ما ، فالحقيقة المجردة أن هذا القس قد أحب تلك التلميذة ، وصارت هى كل حياته. ولكن ماذا عساه أن يفعل ؟ أما ماجدة فقد أرادت بذلك الرد أن تلعب ، ولكنها لم تكن تدرى أن ذلك اللعب سوف يؤدى إلى العدائية التى سوف تلازمها طوال علاقتها بذلك القس. رغم أن هناك بعض الفترات التى استطاع فيها ذلك القس أن يمتلك زمام ماجدة وذلك حين هرب حبيبها ، وتركها ووجدها القس لعبة سهلة ، راح يشكلها كيفما أراد ، أو حسب تلك الأوامر بتعليق ذلك الصليب على صدور النساء والبنات. فى البداية كانت الأوامر تخرج على استحياء من أفواه القساوسة والرهبان ، وذلك حين رأى أب الكنيسة الأرثوذكسية أن السياسيين أو العسكريين الذين يحكمون البلد يقيمون علاقات جيدة مع جماعة الإخوان المسلمين المناهضين للمسيحيين ، فأراد أب الكنيسة أن يلوى عنق هؤلاء ويريهم أنهم سوف يخسرون كثيرا لو لم يقيموا علاقة على نفس المستوى بهم.من أجل ذلك رمى الأب فى أحد اجتماعاته بذلك الطعم فى عيون آباء الأديرة والكنائس ، فما كان منهم إلا أن راحوا يبشرون فى أديرتهم بزمن الصليب. وما كادت تمضى فترة زمنية صغيرة ، حتى وجد ذلك الأب نتاج حلمه وبعث له هؤلاء العسكريون ببرقية" أن عليه الاستعداد لمقابلة رئيسهم فى الأسبوع القادم فى استراحة الإسكندرية ".

مضت عشر سنوات على تلك الفعلة التى فعلها ذلك الأب ، وانتشرت انتشارا كبيرا فى مصر ، ولكنها ما لبثت أن خمدت فى العامين الفائتين حين أمر الرئيس بنفى ذلك الأب إلى دير بعيد ، وعدم مغادرته لذلك الدير. وعندما طرح القس " ذو الصليب " على ماجدة ذلك السؤال ، كان يعلم أنه يضع عنقه تحت المقصلة ، لو سمع أحد العسكريين أنه يفعل ذلك ، وأنه يعيد تلك الدعوة مجددا ، ولكنه فعله وتمنى فى لحظات كثيرة أن يكون مثل القساوسة الآخرين الذين يبشرون بالإنجيل فقط ، دون

الوقوف على موضوع الصليب هذا ، لا خوفا منه على رأسه ، ولكن لأن "ماجدة" صارت تعامله بعدوانية فى السنين الطويلة التى تلت طرح سؤاله ، فلقد استشعر ذلك كثيرا فى اللقاءات الكثيرة التى تجمعه بماجدة ، كانت تستمع إلى عظته وكلامه ، ثم تضع يديها على عيونها. ولحظتها يتهيأ له أنه نجح ، فيدخل يده جيب سرواله ، ليخرج الصليب البلاستيك الجميل الذى اشتراه من حر ماله فى اليوم الثانى لطرحه ذلك السؤال على ماجدة ، وعندما يهم أن يدخله فى رأسها ، تنظر فى عيونه جيدا وتروح ترمى له جملتها التى تجعله ككلب أجرب ، يحاول أن يمنح كل الكلاب ذلك الوباء ، حتى لا يبتعدوا عنه ويتركوه وحيدا هكذا جوار الماء حين يمد فمه ليشرب ، حتى جاءت تلك اللحظة التى تمناها فى الأعوام السابقة ، وهى لحظة أن أمسكت من يده الصليب.الذى تغير لونه من كثرة إمساكه وصار لا لون له ووضعته فى رأسها ، ليسقط على صدرها ، لينام بين زوج الحمام التعس.

أشياء ساعدت القس ذا الصليب دون أن يدرى لكى ترتدى ماجدة الصليب الذى لم يعد له لون.

كان الأب كيرلس قد استعد تماما لذلك اللقاء. وارتدى جلبابه الأبيض الموشى بخيوط ذهبية ، ووضع على رأسه قلنسوة فى قمتها ماسة فريدة لا يوجد مثلها فى العالم. وقفت العربة فى السابعة صباحا أمام باب حجرة الأب ، وخرج معه بعض آباء الكنيسة ، ولكن ذلك الضابط الذى كان قد خرج من باب العربة الأمامى أوقفهم بإشارة من يده وقال للأب:

– نيافتك فقط الذى سيذهب للموعد .

قال الأب :

– هؤلاء آباء الأديرة ومعهم مساعدى.

فرد عليه قائلا :

– هذه هى الأوامر التى عندى.

حاول أن يبين موقفا بطوليا آخر ، وقال للضابط :

– اذهب إلى رئيسك وقل له : إما هؤلاء معى وإما لا لقاء معه .

فتغيرت لهجة الضابط وقال لنيافة الأنبا أن لديه أوامر أن يحمله هو فقط لا أحد معه.

عند ذلك قال أحد الآباء.:

– أذهب أنت يا أبانا ، وليكن معك المسيح والروح القدس ، فأصر على أن يصحب على الأقل مساعده ، فنزل الضابط على رغبته حرصا منه على لقاء الرئيس به. أمسك الأب بالصليب المصنوع من الأبنوس والمرصع بالياقوت والمرجان والأحجار الكريمة ، وجلس فى المقعد الخلفى للسيارة . كانت الاستراحة موجودة فى جزيرة بعيدة عن الشط بمقدار ثلاثمائة متر.

كان الموعد فى الثانية عشر ، والوقت لم يحن بعد. جلس فى حجرة كبير الياوران وراحوا يتحدثون بود مصطنع . وعندما حان الموعد فى الثانية عشرة وقف كبير مساعدى الرئيس على الباب يعلن لنيافة الأب أن عليه الاستعداد لمقابلة السيد الرئيس. كان الأب منذ علم بموعد اللقاء وهو يخطط ويدون الملاحظات التى سوف يتطرق إليها فى الحديث ، وأمر مساعده أن يذكره بأى شىء ينساه.

وقف الأب يحمل الصليب فى يده ، وجواره مساعده ، ولكن كبير المساعدين منع المساعد من الدخول.حاول الأب أن يتكلم ولكن الباب الذى يفصله عن الرئيس الجالس على المقعد الوثير أضاع عليه الفرصة الثانية لإظهار بطولته ، فدخل إلى الحجرة. كان الرئيس يجلس على مكتب طويل وخلفه صورة كبيرة له بملابسه العسكرية ، ولا يبين صدره من كثرة النياشين والأوسمة ، سلم عليه الرئيس وجلس بجوار المكتب.

كان الأب لا يعرف كيف يبدأ الحديث . تنهد بصوت عال ، فقال له الرئيس:

– يبدو أنك مهموم بشىء !

فقال الأب ، وهو يرفع يده الممسكة بالصليب :

- أشياء أيها الرئيس ، فأبتسم الرئيس وقال له لم لا تترك الصليب على الترابيزة . انتفض الأب حين سمع ملحوظة الرئيس التى قالها وعلى فمه شبه ابتسامة.

قال الأب:

- هذا الصليب لا يترك .

ضحك الرئيس ، وقال: يكفى الذى ينام على صدرك وهذه الصلبان الصغيرة المصنوعة من أسلاك الذهب فوق الرداء القيم الذى ترتديه. أم أنكم يجب أن ترفعوا علينا صلبانا كثيرة لتخبرونا أنكم أصحاب الحق فى هذا البلد؟! .

اشتعل الموقف تماما بين الأب والرئيس. كما حدث تماما بين ماجدة والقس "ذى الصليب".كان الأب ينظر إلى الرئيس والرئيس ينظر له دون إن يتكلم أحد منهم. وبالطبع تمنى الرئيس أن يرمى ذلك الأب فى الجحيم ، أو على الأقل يفصل جسده عن رأسه. والأب لم تبق لديه أمنية سوى أن يذهب إلى كنيسته ، ليرفع صليبه على ذلك الرئيس ولا يرى وجهه مرة أخرى.

كانت الأشياء التى ساعدت القس"ذا الصليب"على أن تستجيب له ماجدة تتلخص فى ثلاث نقاط.

النقطة الأولى: هروب عادل منذ ست سنوات.

النقطة الثانية : زيارة ماجدة للدير الذى دخله عادل.

النقطة الثالثة:انهيار الحالة النفسية لماجدة بعد وفاة أبيها وأخيها ووحدتها القاسية.

عندما أمسكت ماجدة بالصليب الذى تغير لونه من كثرة إمساك يد القس به أيام كثيرة ، وهو يحدثه كأنه إنسان يسمعه ، ويحكى له عن تلك الرقبة الجميلة التى سوف تزين به ، وعن مدى حبه وهيامه بها ويقول له:

– انتظر أيها الصليب وسوف تكون فى رقبة أجمل أنثى رأيتها ، ولابد فى يوم سوف تنام بين فرخى اليمام النافر فوق صدرها ، ولكن تذكر لحظتها أيها الصليب صاحبك المسكين وقل لليمام ، متى تحط فوقه يدى ؟

حين أمسكت ماجدة بالصليب من يد القس سمعت صوت القس وهو يقول للصليب بصوت هامس:

– لا تنس يا صديقى.

خذوا بالكم جميعا من تلك الجملة ، إنها مفتاح تلك الشخصية التى أطلقنا عليها : القس ذا الصليب ، فذلك القس يحب الصليب بشكل مرضى. حتى أنه ظل يحلم لمدة طويلة بحلم واحد لم يتغير. وقبل أن أحكى لكم عن الحلم يجب أن نتذكر سويا "باراباس" ذلك الرجل الذى ظل يتابع المسيح خلال الأيام الثلاثة بعد أن أطلقوا سراحه ، وقال له الحارس وهو يدفعه فى صدره ويصرخ فيه..

– لماذا تقف هكذا فاتحا فمك ؟ اخرج من هنا أنت حر .

أتدرون ماذا تعنى أنت حر لواحد حكم عليه بالصلب حتى الموت. أنا أتخيل ماذا حدث لذلك الرجل المدعو "باراباس"وهو الذى يعرف أنه لا أحد هناك فى انتظاره. لا زوجة تشق هدومها عليه ، ولم يكن له فى يوم من الأيام أخت تؤلم خدودها من أجله ، ولذلك أعتقد أن" باراباس" ظل يتبع المسيح لأنه وجد له أما . نعم لا تشبهه كثيرا ، وتبدو صارمة وحزينة ، ولكنها أم على أى حال.كما أن للمسيح هذا روحا خفيفة تجذب كل الذى ينظر إليه ، ولكن تلك الروح لم يكن لها وجود فى أن يتبع "باراباس" ذلك المشهد ، ولكن وجه تلك العذراء التى تمسح فمها وأنفها بظهر يدها رغم أن ابنها مصلوب هو الذى أبقاه ، وراحت الأفكار تلعب فى رأسه ، وكلما خطا خطوة ظهرت الدموع المجمدة لتلك الصارمة حين تنسى لحظة أن" يوسف النجار"يقف جوارها ، وتتذكر فقط أن المصلوب أمامها هو ابنها ، لحظتها سترفع الجلباب وتمسح المخاط الذى لم تعد اليد تعمل فيه ولكن الشىء الغريب أن" باراباس"عاش بعد ذلك المشهد

وتلك الأحلام التى لم تتحقق خمسة وعشرين عاما ، لم يفكر فى تلك العذراء مرة واحدة وظل وجه المصلوب هو ما يؤرق مضجعه.

هل تدركون نظرة ذلك الـ" بارا باس" حين وقف أمام الملك وعفى عنه بدلا من المسيح. تلك النظرة هى نفس النظرة التى نظرها ذلك القس" ذو الصليب" إلى ماجدة حين أمسكت من يديه ذلك الصليب الذى ظل يحلم أعواما طويلة أنه سيلبسها إياه .

حين ذلك فتح القس فمه مثل "بارا باس" ونظر إليها النظرة التى نظرها "بارا باس" للملك وللحارس وهو يدفعه فى صدره ويقول له:

- " أنت حر ". على أكثر تقدير . فما الذى جعلنا نطلق عليها نظرة ألم ؟!

الذى لم يقله نيافة الأب لمساعده

حين قال السيد الرئيس - لنيافة الأب :

- دع الصليب على المكتب .

وارتعش الأب كالمحموم ، لم يكن فى باله على الإطلاق أن الرئيس لم يقل تلك الجملة اعتباطا كما هيئ له ، فلقد أراد الرئيس أن يقول له ببساطة أنه يعلم تلك الدعوة التى انتشرت تلك الأيام وأن رجاله لا ينامون على آذانهم ، وأنهم مفتحون عيونهم لكل كبيرة وصغيرة ، ولذلك أخطأ الأب فى تلك الهمجية التى رد بها على الرئيس وهو يشير بالصليب فى وجهه ويقول:

- هذا الصليب هو حياتى ، وكل آمالى ، وفوق ذلك دينى الذى بعثنى الله عليه

سكت الرئيس قليلاً ثم قال له بعد أن أمسك بكوب العصير فى يده:

- ومن أجل هذا قلتم لكل المسيحيين ارتدوا صليبا .

ثم وضع الكوب على فمه. بُهت الأب ، وكادت روحه تفر منه ولم يجد ردًا ، ثم وضع الكوب على فمه.عندما وقف الرئيس حاول الأب أن يقف ، ولكن قدميه خانتاه قليلاً . وضع الصليب على الترابيزة القريبة منه ، ثم وضع يده ، وأقام جسده المثقل بالأحزان بصعوبة. لم يقل الرئيس إلا جملة أخيرة ، ثم ودعه دون أن يمد يده له ، وعندما همّ الأب أن ينزل بيده على الترابيزة ليمسك بالصليب قال له الرئيس :

- اتركه أيها الأب . فلن يلزمك.

في معرض كلامي عن القس" ذى الصليب " قلت لكم إن لهذا القس حلمًا وحيدًا ظل يلازمه فترة.ذلك الحلم هو حلمه مع تلك البنت التى أسماها ماجدة ، ولقد ساعدته الظروف أو النقاط الثلاثة التى تكلمنا عنها. ساعدت ذلك القس فى التقرب إلى ماجدة وترسيخ ذلك الحلم ، ولكن على مستوى ذلك القس"ذى الصليب" مع ماجدة .فأنا أطرحه الآن لأناقشه معكم ، بالتأكيد تعرفون متى جاءته اللحظة الفارقة ، ولكن متى تحكمت فيه وجعلت ذلك الحلم المرعب يستولى عليه لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر ؟هذا هو السؤال. وللإجابة عن ذلك السؤال يجب علينا أن نعود إلى تلك اللحظة التى قالت فيها ماجدة جملتها الشهيرة أول مرة ، وبعدها تمنت أن تمسك بيديه وتمضى به حيث لا أحد هناك وتقبله قبلة طويلة ، ربما بعدها يمارسون الحب أو لا. هذا لا يعنينا ، وبالضبط كانت أمنية ذلك القس الذى تمنى أن يمسك بها ويظل يضربها بذلك الحزام الذى تم نقعه فى الزيت لمدة لا تقل عن عامين ، وبعد ذلك يقبل الأماكن التى لامسها ذلك الحزام ورغم أن الحلم يكاد يكون له مدلول واحد فى النهاية ، وهو ممارسة الحب إلا أن الحالة النفسية التى يعيشها القس فى تلك اللحظة جعلت حلمه مليئا بالسادية تمامًا .

ولكن الشيء اللافت للانتباه هو أن تلك اللحظة قد أثرت على عقل ذلك القس بعد ذلك ، ولمعرفة هذا يجب عليكم أن تقرأوا عن الفوبيا.

أنواع عصاب القلق

فى هذه المقولة ينشأ القلق إما بوصفه استجابة لمثير محدد أو بوصفه حالة عامة من الخشية ، ونحن نسمى هذه الحالة الأولى بالخوف " الفوبيا " ، ونسمى الحالة الثانية باستجابة القلق .

وفى الاختلالات الخوفية يكون المريض فزعا إلى حد مريع من بعض الموضوعات أو المواقف المعينة ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم السبب فى خوفه .

فبعض المرضى يفزعون من القطط أو الكلاب ، كما أن منهم من يفر من الحشرات ، والكثير من المرضى ينشأ عندهم القلق البالغ من المبانى المرتفعة أو الأماكن المغلقة.

وأيا ما كانت الظروف ، فإن العصابيين من أبناء هذه المقولة يكونون قادرين على السيطرة على مخاوفهم غير المعقولة بمجرد تجنب المواقف الخوفية ، وهو الأمر الذى يجدون من الصعب تحقيقه فى أكثر الأحيان .

والخوف يمكن أن ينشأ كاستجابة لطائفة واسعة من المثيرات التى لا تكون مفزعة فى ذاتها فى العادة. وأنواع الخوف تستمد أسماءها من مصدر القلق ، مثال: "الخوف من الحيوانات" و" الخوف من المرتفعات " و"الخوف من الأماكن المغلقة والخوف من الأماكن المفتوحة .

ومن بين أكثر الأنواع الشائعة من الخوف ، نوع نجد له تصويرا فى كتاب "الإله المتحرك " ، الذى هو سيرة ذاتية عن " خوف الأماكن المفتوحة" ، كتبها أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة "ويسكونسن" ، اسمه " وليام ليونارد" والمؤلف هنا يقدم وصفا لخوف شديد من الأماكن المفتوحة ، خوف استمر عدة سنوات ، ومنعه من أن يبعد كثيرا عن بيته؛ وخوف البعد أو الابتعاد هذا - كما سماه - قد اضطره فى نهاية الأمر

إلى أن ينتقل إلى شقة عبر الشارع من الجامعة ، حتى يكون أكثر قربا من الصفوف الدراسية التى يقوم بتعليمها ، وفى فقرة قصيرة ، يصف ليونارد وصفا حيويا تلك الخبرة الانفعالية المرتبطة بالخوف عنده .

وسواء أكان المريض يخشى الأماكن المفتوحة أم الأماكن المغلقة ، أم أنواع العنكبوت ، أم الحيات والثعابين ، نجد أن من الممكن على الأقل أن نرد القلق فى الخوف إلى أشياء فى البيئة.

ولكن الأمر لا يكون كذلك بالنسبة لاستجابة القلق ، وإنما نجد هنا أن المريض يختبر القلق الشديد حقا ، ولكن المصدر يظل مع ذلك غير معروف . ومهما بذل المريض من جهد فى محاولة الكشف عن سبب ضيقه . تراه لا يوافق .

أما الذى نحن بصدده الآن ، أن تلك اللحظة هى التى اختزنها العقل الباطن لذلك القس ، حتى تم إفرازها فى ذلك الحلم الذى لازمه ثلاثة أشهر ولم يستطع أن يعترف به حتى أمام صورة أو على الأصح تمثال المسيح ذاته .

ذلك الحلم ملىء بالممارسة الجنسية ، حتى أن أحد الزملاء فكر أن ذلك القس الذى أطلقنا عليه القس"ذا الصليب" ، قد أخذ عهدا على نفسه أن يستحم كل صباح – رغم أن الجو بارد جدا – ورغم ذلك رفض أن يسأله عن ذلك العهد خلال الثلاثة أشهر ، ولكنه حين وجده فى صباح أحد الأيام يدخل إلى الصلاة مباشرة دون أن يسكب الماء البارد على رأسه. قال له :

– هل أنت حر الآن ؟!

وكان ذلك الصديق يعتقد أنه تحرر من العهد الذى أخذه على نفسه ورغم ذلك انظروا إلى تلك الجملة التى خرجت من فم صديق القس ، ونفس الجملة التى خرجت من فم الملك وفم الحارس لباراباس ...

– أنت حر ؟ !!

إيه يا أخت ماجدة كوب الشاى يكاد يقع من يديك !

أمسكت بالكوب ، ورسمت على شفتي شبه ابتسامة لذلك الوجه الذى سميته" وجه مانحى الحياة" وذلك قبل أن أعرف تلك الأشياء القذرة التى فعلها ليفوز بكرسى الدير. أغمضت عينى مرة أخرى لأبحث عن عيونك التى رغم ضياع ملامحها كنت أرسمها بدقة فى لحظات كثيرة. هل تعلم أن صورتك التى أحتفظ بها داخل إطار جميل ، أخرجتها من الكتاب الذى احتفظت به جميلا وأنيقا كما علمتنى. فأبت ملامحك فيها وبقيت عيونك. ما الذى يحدث عندما أخرج تلك الصورة ؟ هل تعرف يا عادل أن النظرة التى تلقيها عيونك علىّ تكفى لامتلائى ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال ! هل تعلم أنى أخرج تلك الصورة كل أسبوع مرة .. ورغم ذلك لو تعلم ماذا صنعت وأنا التى أغافلك فى الأسبوع مرتين. وأفتح ذلك الكتاب وألقى نظرة على عيونك. ورغم ذلك تصور ، أنا أسرق صوت زوج أختى العالى ، وأحتفظ به لأكثر من ساعتين. وأقتل الإوزات الصغيرة التى خرجت من بطة أختى. أنا أفعل ذلك. لا داعى لهذه الأشياء الآن .فإنى أكاد أموت عندما أتذكر ما فعلته ، أتذكر يوم اعترفت لى بأخطائك الصغيرة ؟ أنا الآن أريد أن أعترف بكل الأشياء القذرة. ولكنى لا أستطيع. فليس لى عيون كعيونك ، ولا لسان كلسانك. أحفظ كل جملة قلتها لى قبل أن تصرح فى النهاية إنك رغم كل أخطائك تحبنى . هل تذكر لحظتها . تمنيت أن أحضنك أمام الناس ، أدفس عيونك بين ثديى وأسقيك لبنهما حتى ترتوى. جلست جوارى ثم أخرجت ورقة ومنحتها لى. ما زلت احتفظ بها. أخرجها كل أحد ، رغم إنى أحفظها كأنجيل لوقا. خبرنى ياعادل كيف كتبتها ؟ هل أقولها لك مرة أخرى حتى تحل شفرتها التى أرقتنى اثنين وعشرين عاما ، هل أنت مؤمن أم كافر ؟! سوف أتلوها عليك الآن يا حبيبى ، ربما ارتعش صوتى قليلا فلا تؤنبنى لذلك . هكذا بدأت الرسالة " أنا الذى لم يعمد ، ولم يتناول خبزا مباركا أبدا ، كما أنى لم أعترف أمام كاهن من كان. رغم إننى لا أخلو من الشر البتة ، قبلت ابنة الجيران ست مرات ، حلمت بهند رستم فى موقف عرى كامل ، بصقت على وجه ولد بعث خطاب لأختى ، أجلست العجوز مكانى لمجرد الفوز بالدعاء . وأشياء كثيرة هكذا . دمعت عيناى لحظتها وأنا أسمعك . هل تسمح لى أن أبكى الآن ، ولكنى قبل ذلك أؤكد لك ، الناس تحب ، أخوتك تحب ، لا تحمل ضغينة لكائن من

كـان ، ترى الشـيطان بأم عـينيك ، تـتـجنبـه. ولما يحـول بينك وبين نفسـك ، تدعـو أمك الحنون. هـل تذكـر حين كنا نمر جـوار عـراك لبـعض الناس ، حـين ذلك أتذكر جـيـدا دعوت أمك الحنون ، وكدت تبكى لها ، يا أمـى الحنون يامريم العذراء ، ومـا إن أتممت دعاءك ، حتى قضت على العراك بعصـا تشبه عصـا الحوذى حين يدفع الطريق تحت أرجل حـصـان قـديم. وفى المسـاء حـين دخلنا الكنيسـة سـويا رأينا دمـوع أمنا حـين أشـعلنا لها الشـمـوع وخفت أن أقـول لك ، وخـفت أن تقـول لى. ترى يا صـمـوئيل لماذا بكت لأجلنا أمنـا ؟ ولماذا لم تقل لـى أنك رأيت دمـوعـهـا ؟ ولمـاذا لم أقل أنا لك ؟ ، أعلم أنك تحـمل وجع النـاس ، منذ رأيتك وأنا أعـرف ذلك. تفـرح حـين تجلس العـجـوز على الكرسى. أنت لم تخلق مـحض عـادى يا عـادل ، لك قلب يحس بارتـعـاشـة البكر والمرأة الثيب. ألا تتـذكـر حين أعطيت للسـائق سـيـجـارة لمجرد أنـه فتح البـاب الأمـامـى لرجل ضـرير ، وحـين داس الرجل ذو الشـوارب العريضـة علـى قدميك ، دهسـهـا تمـامـا أيـهـا الحبـيب. ورغم ذلك قلت له" هنـاك متسـع آخـر يا صـديق " ، دمـعـا كـثـيرا من عـينيك رأيت. دمعا أكثر لم أره. مبـاح لكل النـاس مـا فـى جيبك ، كل ذلك من أجل أن يمنحوك مـا تحت صـدورهـم ، كـمـا قلت لى حـين وضـعـت فى يد الشـمـاس المقطوع السـاقـين المركون فى زاوية مظلمة أمـام باب الكنيسة كل ما فى جيب سترتك الرمادية. ومشينا أكثر من سبعة كيلومترات على قدمينا ، ولكن مالا تعرفه أيها الحبيب أننى حين التفت للوراء لألقى نظرة على الشماس لأرى وقع كل مـا فى جيبك حين نام فى حـجره ، هل تعلم يا عـادل ؟ كانت عيونه مليئة بشفقة أم شريرة علـى أطفالها الذين لا تعـرف لهم أب. هل تتذكر مـا قلته لك حين اصطدمت عينىّ بتلك النظرة التى كانت فى عينى ذلك الشمـاس؟ أنا لا أتذكر يا حـبيبى. طريقا طويلا يـا عادل مشيت. فهل أيقظت الأنفاس الفاترة؟! ، لماذا تركتنى إذا أضـيـع وأعلق ذلك الصليب على رقبـتى ؟ ، وكيف سـمـحت لذلك القس – الذى ظللت عشـر سنوات أراه فى أحلامى كلبا أجرب يحاول امتـصـاص دمى – أن يدخل إلى حياتى. تصـور يا عـادل لم تعد هـنـاك أى علاقـة لى مع صـديقـاتى المسلمـات. لا أعرف كيف كرهتـهن كل هذا الكره! ، أنا التى تملأنى نظرة حبيبى التى أقـيم لها قـداس الجـمـعـة حين أفـتح ذلك الكتـاب لأرى وجـهك يحـاصـرنـى ، ويخـشنى

أصبحت أكره ، بل أصبحت أتعمد الإتكاء على وجع البنات المسلمات اللائى كنت أعرفهن. فهل أيقظت الأنفاس الفاترة وأمت أنفاسى ؟ يا حزنى عليك يا حبيبى . الآن أعترف لك ، أعرف أن كل ساعة تدق الآن ووجهها للسماء يرتفع ، ما أجهل اليهود بالله ، كيف يكون السبت عطلة الله لله ؟! وهو يفعل هكذا لنا نحن أولاده الخائبين ، والذين يفعلون الشر فى عيونه.

- إيه يا ماجدة خلاص إحنا قربنا .

فتحت عينى سمعت صوت"متّى" يقول تلك الجملة. كانت بقايا البسكويت على الجونلة السوداء وكوب الشاى ما زال فى يدى يحمل ذلك الدفء ، هل مرت خمس ساعات وأنا أحاورك يااه.. لقد مر اثنان وعشرون عاما ، فكيف لا تمر تلك السويعات القليلة؟!

- اعذرنى يا أبت فلم أنم .

كان يعلم إننى أكذب عليه ، ورغم ذلك رفض أن يمنحنى فرصة قول الحق كما كان يظهر لى .

- على كل حال نحن الآن أمامنا أقل من ساعة ونكون داخل الدير إن شاء الرب ، ويجب عليك أن تعلمى كل شىء .

عندما خرجت تلك العبارة من فم"متّى" ارتعشت قدماى وقلت له :

- أنك تخيفنى بتلك اللهجة الصارمة. هل حدث شىء لعادل ، أخبرنى بربك ماذا حدث؟

- لا شىء أيتها الأخت ، ولكن اسمعى منى دون أن تعلقى على شىء.

- تفضل يا أبت .

- الأخ العزيز صموئيل الذى عشت معه الآن أكثر من تسعة عشرة عاما ، كان فيها نعم الأخ الصالح ، لم يبد منه أى شىء تجاهى ، كما أنه عفا عن أخطاء كثيرة حدثت منى . ورغم ذلك أراه غير سعيد على الإطلاق . لا أزعم أننى أعمل الخير كله له ،

ولكننى أعمل لخيرى أنا. ويجب على أن أعترف لك أننى جد حزين من أجل صموئيل ، رغم أننى لا أحمل له حبا كبيرا ، ولكنى جئت بك من أجلك أنت ومن أجلى أنا. ويجوز من أجل صموئيل أيضا. الله أعلم ، كل ما فى الأمر أن الأب بشاى ، أب الدير على وشك ترك المنصب ، ويريد أن يرشح للدير الأخ صموئيل ، ومن أجل ذلك جئت لك. إن صموئيل لا يصلح أبا علينا ، فهو عاطفى جدا ، وحالم ، ولن يستطيع أن يقوم بالمهمة . ومن أجل ذلك جئت إليك. حين يراك ويعلم حقيقة موقف أخيك ، سوف يترك هذا الدير وإذا لم يتركه فعلى الأقل سوف يتنازل عن الكرسى ليعيش على اجترار ذلك الحلم الرومانسى. هل فهمت كل شىء الآن ؟

– فهمت كل شىء ، ولكن لن أذهب معك ليس من أجل صموئيل ، ولكن من أجل الرب الذى لابد اختار صموئيل لشىء أفضل من الزواج بى. هذا ما اعلمه أيها الأب.

– لا تكونى عاطفية أكثر من اللازم أيتها الأخت ، وتأكدى أننى أحب الرب جدا ، وإذا لم يكن أكثر منك فعلى الأقل مثلك. ولكن عندى أحلام أن أجعل هذا الدير شيئا ذا بال . هو بيت التبشير الذى حكى عنه تلميذ الرب "أشعيا " ، أريد لذلك الدير أن يصبح هو المكان الأول فى كل شىء. ومن أجل الرب أصنع ذلك فى عيونه . وتأكدى إن كان الرب يريد صموئيل ، ما بعثك لى ، وأخذت منك الاعتراف . فلقد كنت ممنوعا من تلقى الاعترافات أربع سنوات بالتمام. ثم إنه لو كان يريد صموئيل داخل الدير فإنه لن يأتى معك ، ولحظتها أقسم لك ، وهذا قسم يشهد عليه الرب:سوف أكون عونا من عند الرب له .

أومأت برأسى وكنت أتمنى أن يكون صادقا ، فأكمل هو دون أن يتركنى أتحدث عن ذلك.

– عليك أن تدخلى الدير وتسألى عن جرجس الشماس ، ثم قولى له إنك تريدين الاعتراف لأب جيد داخل الدير ، وسوف يهديك إلى صموئيل أحكى له كل شىء. أحك له عن لحظة العراك بينه وبين أخيك . ودعى كل شىء ليسوع المسيح يفعل ما يشاء. وعلى كل أعتقد أن صموئيل قد أفرط فى قراءة سير القدسيين مع إنه من الأفضل له أن يتزوج .

عندما سمعت تلك الجملة من فم ذلك الأب. انتفضت وجرى قلبى كأرنب برى يريد الانقضاض على فأر حيوى الحركة ، وقلت لذلك الأب:

– نحن فى حاجة أن يكون كل المسيحيين مثله .

تغير وجهه وهو يرى انتفاضة جسدى وقال بود مصطنع :

– أعرف ذلك أيتها الأخت ، نحن فى حاجة إلى أمثاله. ولكن ليس فوق الكرسى الدير. فهؤلاء المستعدون تماما للبرهنة على إيمانهم كما كانوا يصنعون فى عهد الوثنيين ، هؤلاء الذين يغلب على طبعهم تفانيهم المغرور من أجل الحقيقة التى يؤمنون بها. ويجب أن تعلمى هذا جيدا. فكثيرا ما يصيح بك أحد الجالسين أمام المدفأة." مت من أجل المسيح " ، وحين تدعينه أن يشاركك فى ذلك يلتفت إليك ثم يقول بصوت جميل " لدى أشياء على أن أرعاها ، ولن أموت الآن .

– إنك غريب أيها القس. تذكرنى بذلك القس الذى ظللت عشر سنوات أمارس الاتكاء على وجعه ، وكان قلبى يمتلئ بالحب حين أعود ، وأنا منتصرة عليه ، ولا ألبس ذلك الصليب الذى يحمله فى جيب جلبابه. هل تعلم إننى الآن – وذلك بسبب هروب عادل – قد انزلقت إلى عالمه والآن أنت تمارس نفس اللعبة معى مرة أخرى.

– هل على أن أنتظر عشر سنوات مثله أيتها الأخت حتى أقنعك؟! أمامنا الآن أقل من نصف ساعة وليس عشر سنوات وعليك أن تحددى إما أن تموتى من أجل المسيح أو تقولى لا .

صليب داخل متاهة

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أدخل فيها هذه المتاهة. فلقد مارسها على ذلك القس واستطعت أن أهزمه عشر سنوات ، أتدرى كيف فاز على ذلك القس. لقد دخلت عليه بعد هروبك بسنوات طويلة كان مازال يتذكرنى رغم أننى كنت ارتدى رداءً أسود ،

وعلى صدرى ذلك الصليب المصنوع من البلاستك الأسود ، والذى ينام فيه المسيح بطريقة تجعل ذلك الأسد الذى يتصدر إنجيل مرقص بوحشيته وهيبته أسدا خائبا تماما وعاطلا عن فتح فمه الملئ بالأنياب الحادة . أن أنا كنت تماما كذلك أيها الأب"متّى" ، عاطلة عن فتح فمى أمام ذلك القس الذى لا يشبه المسيح المصلوب فى ذلك الصليب الأسود المصنوع من البلاستيك على الإطلاق .على الإطلاق لا يشبه المسيح أيها الأب ، ورغم ذلك ، رغم أنه بعيد عن المسيح فلقد أصبحت عاطلة عن الاتكاء على وجعه مثل الأسد الذى يتصدر الإنجيل الذى أعطاه لى عادل وقال إنه من مستشرق أجنبى ، ولتعلم أيها الأب لا شيء يبعث على الشجاعة لدى الخائف قدر خوف الآخرين ، ولقد أحس ذلك القس. خوفى فاندفع نحوى. وكما قلت لك إننى كنت عاطلة عن الاتكاء على وجعه مثل الآن تماما أيها القس.

ابتسم"متّى" حين قلت له ذلك ، ثم قال لى كى يجعلنى أكمل :

– بل متحدة مع ذاتك " يا أبنائى عندما يأتى الحب المجنون لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئا. فعندما تخطف الروح تكون الفضيلة الوحيدة فى حب ما تراه ، وتكون السعادة العظمى فى امتلاك ما هو لك وما هو مهيأ من قبل المسيح لك. "

– أنت مثل القس أيها الأب"متّى"." مثله تماما لا يفصل بينكما إلا المكان ، فكلاكما فى مكان مختلف.كان يجب على أن أعرف ذلك منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها ، ولكن يبدو أن قلبى ليس مليئا بالقدر الكافى لتعقب العلامات ، كل الحيوانات رديئة الصنع من قبل الله.

كانت الجملة مفاجئة لـ"متّى" بمقدار لم أعرف كيف تقبلها وإن كنت أعتقد أنه كاد أن يرفع يديه ويهوى بها على وجهى وهو يقول لى إنك عاهرة ولكنه سكت قليلا ثم قال:

– لست سيئا بهذا القدر يا أخت ، ولكنى أعلم مقدار ذاتى ويجب أن يجلس على كرسى الدير راهب عليم بالحياة وليس فوق الحياة ، رجل يملك القدرة على إصدار أوامر وتصحيح أوضاع. أنا ذلك الرجل أما صموئيل حبيبك لو جلس فوق الكرسى كما

يحلم ذلك الأب المخرف وهو يعلم جيدا أننى أنا الذى سوف يجلس على الكرسى ومع ذلك يناورنى ، فقط أعتقد أنه لو جلس صموئيل لرأيت كاثوليك كثيرين يصلون صلاتهم داخل الهيكل وسوف يخزنون حبوبهم داخل قلالى الرهبان حين يفيض الحب عن مخازنهم ، ويجب أن تعلمى أننى راهب أحب المسيح وأستطيع فيه كل شىء ، وللمحافظة على ذلك الدير. يجب أن أجلس على كرسيه ، ليس من أجل الأموال التى اعتقد أنها كثيرة ، وليس من أجل ذلك الرداء الجميل ، ولكن من أجل أن يظل ذلك الدير فقط أيتها الأخت ، ولن يدخل أحد من الكاثوليك ذلك الدير طالما كنت على رأس الكرسى.

حين ذلك انتبهت إليه فقلت له دون أن أنظر إلى وجهه:

– اسمع أيها القس الملىء بالأوحال والقانورات مثل الذين نتحدث عنهم:أنا لا يعنينى كل هذه الأوحال ولا يهمنى رأيك على الإطلاق ، ولكن يجب أن تعلم أن"مدرسة الحب الكبرى التى تحدث عنها المسيح وقبله موسى وإبراهيم " يجب أن تستمر. ليس من أجل شىء ، ولكن من أجل بقاء الإنسان على ذلك الكوكب وستنهض مدارس الحب الكبرى على الأرض ، وتوقف المعرفة الحسية والمعرفية وسوف تدفعهم إلى بعضهم البعض غدا وإن لم يكن غدا فبعد غد على أكثر تقدير. سيطلق سراح الحيوان البشرى وقد تطهر من كل تفاهته الثقافية القذرة وكل غائطه الحضرى المتحجر الرافض لكل معتقداتكم. ستسطع الروح البشرية التى تشع ضياء وحبا ، ولتعلم أيها الأب أننى سأتزوج صموئيل ، وسأضاجعه وأنجب أطفالا لا يضعون ذلك الصليب على ياقات القمصان ، ولكن فى قلوبهم وسوف يكونون ملائكة وشياطين ، سيتعلمون الرياضيات وعلم اللاهوت. فكم هو رائع حين ذلك أن يخوضوا صرا ع الجسد والتحرر من قيود أمثالكم المتمسكة بالتوراة. رغم أنكم لم تنقذوا يسوع من يهودا. لتعلم أن روحى تنتفض بالفرحة وأنا أتأمل ذلك البيت الذى سيشع نورا. إننى أرى بوضوح أكثر الآن أن تلك الحياة هى التى قال عنها المسيح.

الحب هو مُدلل تلك الروح اللاهثة من ألاعيب الشيطان ويجب على أن أهيئ

لصموئيل استرخاء الروح حتى يستطيع أن يتبول بصورة أكثر سهولة على أمثالكم من حاملى صليب الخطايا والضلالات مع إنهم أوغاد ، أو على وجه التحديد إنكم تحملون فى نفس الوقت وصفات صناعة خبز الملائكة ابتداء من الراحة عند نهاية البحث ومرورا باللين والرعب والراحة إلخ. ما أسوأكم أيها الأب حين يقف الواحد فيكم ، ويصر على الاستمرار فى تغذية آمال كاذبة لذلك الحلم الأزلى ، ليتحمل خطايا الآخرين كما فعل المسيح.يجب عليكم أن تعلموا أن المسيح صُلب وانتهى الأمر.لن يكون هناك مسيح جديد.عند ذلك وجدت يد"متّى" تربت على فخذى ، فانتفضت ونظرت إليه نظرة حقد لم يره قبل ذلك ، فقال لى:

– إهدأى أيتها الأخت ، نحن متفقان تماما ، ليس بيننا أى اختلاف وباستطاعتى أن أقول وأنا مستريح البال " متفقان تماما . أليس كذلك ! " .

كان " متى" لا يدرى ماذا يقول لى حتى أنه قال أليس كذلك ست مرات دون أدنى سبب واضح. أخرجت المنديل من حقيبتى السوداء ومشيت به على وجهى ، ونظرت إلى الشباك المسدلة ستائره المعدنية ، فوجدت من خلال بعض الفتحات أننا على وشك الدخول إلى المحطة فقال لى "متّى":

– استعدى أيتها الأخت التى أحسد صموئيل عليها ، ولتعلمى يا ماجدة واسمحى لى أن أدعوك ماجدة دون ألقاب أنه لو كانت هناك واحدة تنتظرنى بكل هذا الجمال ، فأنا على استعداد أن أفقد رأسى وليس كرسى الدير فقط .

ابتسمت له ابتسامة تشبه إلى حد بعيد تلك الابتسامة التى احتفظت بها فى الذاكرة من فيلم"ليلى بنت الأكابر" لتلك الممثلة التى تمنيت أن أعرف اسمها يوما ، ولم أستطع ذلك ، كل ما عرفته عنها أنها ظهرت فى فيلم آخر وكان المنظر الذى يسطع فى ذاكرتى لتلك الممثلة التى كان يجب عليها فى الفيلم أن ترمى برأسها على كتف الممثل الجالس جوارها حين تدخل "ليلى مراد" تغنى أغنية لكى تحمس هؤلاء الجالسين على التبرع للهلال الأحمر. فقط ترتمى برأسها على كتف الجالس بجوارها وهى ضاحكة وعلى" ليلى مراد أن تأخذ من يد ذلك الرجل مبلغا من المال ، ثم تمرر يدها على وجه

تلك الممثلة لتجعل الجالس جوارها يدفع أكثر كما فعلت مع الثلاثة الآخرين ، وتظل هى مبتسمة فقط وفى انتظار تلك اللمسة التى نسيتها " ليلى مراد" فى لحظة أندماجها وقد قلت لـ"عادل" بعد انتهاء الفيلم لرابع مرة إن"ليلى مراد "تعمدت إذلال تلك المرأة ، لأنها مرت ثلاث مرات أمامها ولم تلمس وجهها كما فعلت مع الآخريات ، حين ذلك التفتت تلك الممثلة لـ" ليلى مراد " ونظرت إليها تلك النظرة التى احتفظت بها دون أن أدرى لذلك القس ، قال لى الأب"متّى":

– بمجرد أن تدخلى الدير. ادخلى على الشماس – اسمه جرجس واطلبى منه أن تعترفى أمام أب الدير أو مساعده ، وهو سوف يدخلك على صموئيل. أنا أعلم ذلك.

قال شيئا لم أتبينه ، ثم أضاف :

– أطلقى لعيونك الماء حتى يسمع قلبه. فقط أيتها الأخت يسمع قلبه. هذا ما أريده ، والآن أتركك ، وعليك أن تأتى إلى الدير بعد ربع ساعة ، أتمنى لك التوفيق أيتها الأخت العزيزة.جلست على قهوة بجوار محطة القطار ، ولأول مرة داهمنى إحساس بالموت والتلاشى. رحت أفكر فى الكيفية التى عشت بها تجربتين كلتيهما مريرة وأليمة . أحسست بروح قدسية قد تلاشت فى رؤيا الإله ولكنها لم تكن تعرف أى التجربتين هى التى تلاشت فى رؤيا الإله وإن كانت تلك التجربة حلما يأساً دائما وبوامة ذكريات مليئة بالإحباط وقلبا أشبه ما يكون بقلب ثور.إلا أن بها عفة روحية لا يمكن التنازل عنها. ولذلك فهناك شبه يقين أن تلك التجربة لم تكن تجربة تلاشٍ فى رؤيا الإله . أما التجربة الأخرى التى كانت تتجرد فيها من ذلك الصليب الموضوع على الصدر وإن كان هناك دائما فى المرحلتين صليب داخل القلب . كانت تلك التجربة مليئة بالحب والتناول والاعتراف ، كانت لا تفعل شيئا أكثر من وقفتها فى الكنيسة تطلب المصادقة مع الرب. بعد الاعتراف بأتفه الخطايا ، كانت تطلب كما قال لها عادل ذات صباح تفسيرا سليما للكتاب المقدس. لم تفهم ما قصد إليه عادل بتلك الجملة التى ظلت تسعة عشر عاما تؤرق نومها ، وتخترق تلك الأمسيات التى تجتمع فيها مع راهبات مدارس الأحد ، وهن يضعن برنامج الشهر. متى ضاع ذلك التفسير يا الله ؟ ومتى كنت أملكه وأستطيع بامتلاكه رؤية الرب فى جوهره. إننى أعترف أن الأرواح

المنفصلة عن الأجساد والمطهرة تصعد إلى السماء ، إلى الفردوس مع الملائكة ومع عيسى المسيح . وإنها ترى الرب بوضوح وجها لوجه. وروحى انفصلت تماما حين ذلك. إن شبه اليقين الذى أحسست به كان يقينا تاما فأراحت تلك الفكرة عيونى ، وأطلقت تنهيدة عالية ، استقدمت بها روحى الغائبة عنى منذ اثنين وعشرين عاما . أحسست للمرة الأولى منذ تلك اللحظة التى وقع فيها أخى سمير على الأرض و عادل فوقه أن قلبى يرفرف وروحى عادت إلىّ.

ركبت العربة " التويوتا" المتجهة إلى الدير. كانت الشمس حارقة ، ورغم ذلك أحسست بطراوة روحى العائدة إلىّ. على الباب استوقفنى شاب صغير ، وسألنى عن اسمى ووجهتى. فقلت له أريد أب الدير. مشى أمامى ذلك الشاب الذى لم يتجاوز السابعة والعشرين ، ولم أكن أعلم حين ذلك أن هذا الشاب هو الغلام الصغير الذى دخل بعصير الليمون فى المرة السابقة منذ أربعة عشر عاما.

حين دخلنا من الممر المؤدى إلى الكنيسة وجدت أمامى الشماس العجوز جرجس الذى ما إن وقف أمامى حتى أحس بأننى لست غريبة عنه وقال للشاب :

- ماذا وراءك أيها الشماس الصغير ؟ ، فقال الشاب :

- لاشىء أيها السيد. هذه السيدة تريد نيافة الأب .

- لماذا يا سيدتى ؟

- أريد الاعتراف .

حين سمع صوتى فرح ، وتأكد حدسه أنه يعرفنى .

- هل أنت من أبنائه ؟

- لا ولكن اعترفت هنا منذ ما يقرب من أربعة عشر عاما أمام قس لا أحب أن أراه.

- لابد تقصدين الأب"متّى" .

- لا أعرف اسمه ، ولكنى لا أعتقد أنه يصلح لتلقى الاعترافات .

– هذه أنت ولا شك .أنت السيدة التى أتت منذ خمسة عشرة عامًا ، أتتذكرها يا إبراهيم ؟ ، تلك السيدة التى قلت لى إنها أشبه ما يكون بالسيدة العذراء أليس كذلك؟

ثم ضربه بيده على كتفه ، وهو يعيد جملة أليس كذلك أكثر من مرة.

– تذكر يا إبراهيم تلك الحكاية وراح ينظر إلىّ ، ثم يغمض عيونه ويعاود النظر ، كنت أقف أمامهما وهما يحدقان فىّ ، ثم قال إبراهيم" :

– نعم يا أبت .هى بضحكتها العذبة التى كثيرا ما استرجعتها. ولكن ما أسوأنى يا أبتى ، كيف عرفتها أنت من مجرد رائحتها ولم أعرفها أنا ! ! ، وراح يحدق فى مرة أخرى فقال له الشماس:

– لا تقف كثيرا هكذا فاتحا حنكك كالمخبول ، واذهب إلى الأب "صموئيل" ، وقل له إن فى الحجرة الغربية سيدة تريد الاعتراف أمامك ، ومعها الشماس الكبير. ثم مشى أمامي وأنا أتطلع إلى حركات عيونه وإلى عيون إبراهيم . فتح جرجس الحجرة الغربية أمامى ثم دعانى للدخول. جلست على الكرسى. أمسك جرجس بالستارة السوداء ، وأراد أن يزيحها بعيدا فقلت له:

– دعها يا أبت.أريد الاعتراف من وراء ستارة.حتى لا تعوقنى نظرات الأب صموئيل أليس اسمه كذلك ؟

أومأ الشماس برأسه ، فسألته عن أخبار ابنه " مينا " الصغير . فتذكر أنه حكى لى عنه ، وراح يخبرنى أنه الآن شاب جميل. وفى الطريق إلى الجامعة. وظل يتكلم دون أن يعلق شيء مما يقوله فى أذنى ، فلقد راحت قدماى تتحركان وبسرعة وقلبى ينتفض حين قال لى الشماس :

– هل تريدين أن آت لك " بمينا " ضحكت وقلت له :

– لا داعى أنا فقط أريد أن أخبرك أننى مازلت احتفظ بصوتك رغم مضى كل هذه السنين. تماما كما تحتفظ أنت برائحتى.

دخل إبراهيم يحمل صينية عليها كوب من عصير المانجو ، فأخذته من يده ، ثم وضعته على الدكة ، حين سمعت أقدامًا هادئة تأتى من أمام الباب. ثم جاء صوته الذى ما زالت فونتاته فى أذنى يسأل الشماس.

– هل يكون ملاكنا جاهزا الآن لتلقى ذلك الاعتراف ؟

فرد عليه جرجس.

– أعتقد أنه جاهز يا سيدى وإلا لما بعثك الرب إلينا الآن .

أخيرا جاءت ضحكة صموئيل التى كثيرا ما بكيت لأبى المسيح أجل أن يذكرنى بها . كانت كما هى عذبة ورقيقة ، وتحمل الذى يسمعها فوق السماء السابعة ، آه . يا عادل. لماذا حرمتنى من تلك الضحكة وقبل ذلك حرمتنى منك أنت. جلس صموئيل على الكرسى ، وانسحب جرجس وأغلق الباب وراءه وهو يدعو لى. مرت فترة ، وأنا أفكر فى رنين تلك الضحكة التى أعادت عشرين عاما بضربة واحدة. أحسست أننى ما زلت فى السنة النهائية فى معهد المعلمين وأننى على موعد معه وأن أبى فى البيت يسامر أمى وأن منال تنتظر الحلوى التى يعطينى إياها عادل لها ، وأن سمير لابد سيقول لى لماذا تأخرت هكذا ؟ وأنا أضحك له وأقول حودت على الكنيسة. أخيرا جاء صوته حنونا كالعادة وقال :

– من أين تبدأ السيدة ؟

حاولت أن أخرج صوتى ، ولكن قلبى الذى كان فى تلك اللحظة يقف فى ميدان العتبة يربت على هؤلاء المساكين ، ويعيد إليهم روحهم. لم يرضَ بخروج صوتى. سمعت صوت عادل مرة أخرى وهو يقول لى :

– يبدو أن السيدة لا تعترف كثيرا ، ومن أجل هذا يخونها صوتها الضعيف !

هل خرج منى صوت يا حبيبى . أنا أتنفسك فقط ، أشم صوتك ووجهك وجسدك. أنا معك فقط الآن ، لا أريد لصوتى الخروج لقد سمعته طيلة عمرى. فماذا أفادنى صوتى ، احكى يا حبيبى. فقط احكى وسوف أكون لك نعم السامع .

– يبدو أن السيدة لم تعترف من قبل على الإطلاق؟ ولأخفف عنك احكى أى شيء تحسين أنك قد أخطأت فيه فقط . حتى نبدأ سويا . هيا الآن أيتها الأخت. خرج صوتى ضعيفا وأنا أقول له :

– أحس أننى فى امتحان قاس .

– أنت بالفعل فى امتحان قاس مع الشيطان أيتها الأخت ولكن لا داعى للخوف .

حين ذلك دخل إبراهيم يحمل صينية عليها كأسين من عصير الليمون المخلوط بالنعناع ووضع كأسا أمام "صموئيل" ثم وارب الستارة قليلا ، وترك الكأس لى على الترابيزة التى تجلس أمامى ، كنت أهتز كالمحمومة ، وكنت على وشك الموت وأريد أن أمسك تلك الستارة اللعينة التى تخفى وجه حبيبى وأضع رأسى فى حضنه الدفىء وأبكى ، ولكن كلمات القس"متّى" كانت تتردد فى أذنى . " ضعى على قلبك لتر ماء مثلج عندما تسمعين صوت صموئيل ، تمهلى حتى تستطيعى أن تفوزى به . جاء صوت صموئيل مرة أخرى يعلن أننى علىّ أبدأ ، قلت له :

– إن الشيطان قد ملك قلبى تماما أيها الأب. تركنى حبيبى ومضى منذ سنوات بعيدة. ظنا منه أن الولد الذى كان يحملنى بين ذراعيه حين التوت قدما عشيقى وليس أخى. هكذا يا أبى ضاع منى حبيبى. ومضت الحياة على وتيرة واحدة يوم يمضى ليأتى يوم جديد. مات أخى بعد رحيل حبيبى بست سنوات ، واستطاع ذلك القس الذى سوف أظل أكرهه أن يستغل ذلك الفقد الروحى الذى أحسست به وأدخلنى إحدى الجمعيات الخيرية ، واستمرت حياتى تمر حتى مات أبى . ولم يبق لى غير أختى. وجدت نفسى مسئولة عنها ، ومرت السنوات رغم ذلك. حتى تزوجت أختى منذ أربع سنوات ، ولك أن تتخيل مدى العذاب الذى عانيته حين يدخل رجل غريب فى بيتك. مرت أيام كنت أسمع صوتها ولكنى لا أعرف كيف استمالنى الشيطان تماما هكذا وأنا الذى أملك صورة الحبيب. أنظر إليها كل أسبوع مرة ، فتكفينى أكثر من شهر. تملأنى. فكيف استمال هذا الشيطان قلبى ، وأنا الذى أغافل ذلك الحبيب وأخرج

صورته وأنظر إليها وسط الأسبوع .أنا أفعل ذلك لا أعرف ما الذى حدث لى. لم أستطع أن أتمالك نفسى ، ورحت أبكى. كنت أريد أن أغسل نفسى من تلك الذنوب وعمرى الذى ضاع فى البعد عن حبيبى الذى أعارنى صورته فى عامى السابع عشر. أخيرا مسحت دموعى ورحت أكمل ما بدأته حتى أستطيع أن أطهر نفسى تماما. قلت له تصور أيها الأب أنا الذى أمتلك عيون ذلك الحبيب أفعل ذلك ، أنا يا أبت أفعل ذلك. أضع لتر ماء مثلج على رأس كلب أختى ، وهو عائد من الخارج فى ذلك الجو البارد. وأنا لا أعرف ما حدث لى. أنا التى أحمل الصليب على صدرى . أنا أفعل ذلك . لابد أن الله سوف يحرقنى. أنا التى أخرج صورة ذلك الحبيب كل يوم جمعة ، أسرق ملابس زوج أختى الداخلية وأقطعها ، أنا افعل ذلك ، أنا التى أريح العجوز فى الباص وأخفف الألم عن العجائز ، أنا التى تبرعت بأكثر من عشرة لترات من دمائى على مدار عامين فقط. رغم أن القس الذى وضع الصليب هذا على صدرى لم يتبرع بربع لتر. تخيل أيها الأب ما حدث منى بالأمس القريب فى بيتى المكون من طابقين . الطابق الأول المخصص لتربية الفراخ والأرانب والبط ، حين رأيت أوزة أختى تخرج ثلاث أوزات جميلة . انتظرت حتى أغلق زوج أختى الباب ولما سمعت أصواتهم المتداخلة كالعادة فتحت بابى ولم ألبس خفا أحمى به قدمى العارية إلامن جورب صوفى ، ونزلت الدور الأول ، وأمسكت الإوزات الصغيرة ونظرت فى عيونها طويلا ثم أدرت رقبة الإوزات بيسر وسهولة دون أن تهتز شعرة واحدة أو يختلج قلبى.هل تصدق أيها الأب أننى أحسست بسعادة غامرة ونمت للمرة الأولى منذ زواج أختى مستريحة وهادئة. ماذا تقول لتلك المرأة الخبيثة أيها السيد الجليل. لا تسألنى لماذا لم أعترف لأبى فى الكنيسة منذ اليوم الأول لزواج أختى .إننى يا سيدى لا أحب قسيس كنيستى ، فهو رجل همه الأكل ولبس الصليب فقط ، ويكاد المرء يتقيأ وهو يسمع عظة الأحد. فكيف أعترف له! ولا تؤاخذنى أيها الأب المحترم إن قلت لك إن الكنيسة أصبحت ملجأ لذوى البطون المليئة بالفاصوليا.

ثم لم أعد استطيع الكلام. رحت أفكر فى الكلام الذى قلته. ما الذى أدخل القس! ، مالى أنا وهؤلاء القائمون على الكنائس! ، ثم أكملت وقلت :

– ماذا تقول لامرأة تبلغ السابعة والثلاثين ؟

حين ذلك سمعت وقع خبطة لم أكن أعرف مصدرها . سكت قليلا وقلت :

– ماذا تقول أيها الأب لتلك المرأة التى تبلغ كما قلت الثامنة والثلاثين ؟

فسمعت تلك الخبطة مرة أخرى ، فقلت:

– تبلغ التاسعة والثلاثين على أكثر تقدير وتعرف تعاليم يسوع جيدا . ابتداء من افقأ عينك إن نظرت إلى عورة أخيك ، ومرورا بإذا صفعك أحد على خدك الأيمن اعطه الأيسر ، ذلك لازم أو ينبغى ذلك . كما يقول ذلك القس ، كما إنها تعرف وصايا " موسى " أو على وجه الدقة تحفظها كاملة . كيف لامرأة مثل تلك تحس بالغيرة من أختها الوحيدة التى تزوجت من أربع سنوات ، وقلبها يكاد يشتعل منذ اليوم الأول الذى أغلق الباب عليها ، ولا تنام الليل وهى التى عندها حبيب كما قلت لك. تفعل ذلك !. نعم تركها ومضى منذ اثنين وعشرين عاما ، ولكن عندها صورته يا سيدى. والنظرة الصغيرة إلى صورة ذلك الخالص فيها سعادة أربعين يوما أو ثلاثة آلاف كيلو على حصان عاطل عن الشباب ، ثم أنها كما قلت لك تنظر إلى تلك الصورة مرتين فى الأسبوع فيسبب أشجانها لستة آلاف كيلو فى الأسبوع. ولتلك السيدة كلب " وولف" ، كلب جميل خالص. ينبغى لكل الكلاب أن تنام على قدميه كما قال لها ذلك القس الذى لا تحبه حين رآه. فكيف تمسك بسراويل زوج أختها ، وتمزقها تماما . لتر ماء مثلج على رأس كلب أختها الهزيل ، وهى تدعى أنها لا تعرف الشر البتة. هل هذه السيدة يجب أن تعيش ؟

ثم رحت فى البكاء مرة أخرى. حين ذلك جاء صوت صموئيل ليقول للملاك:

– أيها الملاك الطيب احصِ عدد الدمعات ، ولا تسقط منك أيما دمعة صغيرة. ينبغى ذلك أيها الملاك ثم اطرحهم من عدد الذنوب ، واحسبها ، وأعتقد أنه لن تكون هناك سيئة ، سوف تخرج بها هذه السيدة. وعليك أنت أيتها الأخت بالبكاء فالإنسان

لا يستطيع أن يهرب من نفسه كما أنه لا يمكن أن يظل وحيدا لمدة تسعة وثلاثين عاما. منهم اثنين وعشرون عاما بتلك الصورة فقط .. ثم راح يتلو الصلاة بصوت عالٍ. عندما انتهى من الصلاة جاء السؤال الذى انتظرته طويلا ، وكنت خلال تلك المدة أفكر فى الإجابة عن ذلك السؤال.

– أين حبيب تلك السيدة الآن ؟

– غاب عنى إثر سوء فهم منه حين فكر ذلك الحبيب أن الذى يحملنى بين يديه حين التوت قدمى عشيقى مع أنه أخى فقط ، ولكن عادل وذلك اسمه يا سيدى لم يفكر لحظة وحيدة . فهل يسامحنى من أحبه قلبى ؟ ، وهل ستشقى أختى إذا علمت شيئا عن سراويل زوجها ؟

– لن تشقى أختك بما فعلت يداك. فما أكثر سراويل الأزواج ولكن اعلمى أن بالفضيلة تحمل الروح التى فى الجسد لا بالرزيلة ولا بالنار المقدسة أو الغيرة وعليك أن تذهبى الآن لتغسلى عيونك جيدا ، وتعصرى أصابع يديك من الماء العالق بها وتعودى لى سريعا ، ريثما أصلى صلاة الغفران.

وحين ذلك دخل جرجس يسأل عن إبراهيم فقال له صموئيل إنه فى أحد قلالى الرهبان يصنع شيئا فقال له :

– أرِ ضيفتنا طريق الحمام بعد أذنك ، أيها الشماس الطيب .

فأزحت الستارة قليلا ، وخرجت مع جرجس الذى أشار لى على الحمام ، ففتحت صنبور الماء ، ومشيت بيدى على وجهى.عدت سريعا . كنت لا أريد الماء .. فقط أريد صموئيل أن أكون فى حضرته. وفى الممر كنت أفكر فى ما سوف يحدث حين يتأكد أننى حبيبته . ولكن شيئا دخل رأسى فى لحظة واحدة وهى تلك الخبطة التى سمعتها قبل أن أدخل الحجرة فتحت حقيبتى ، وأخرجت زجاجة البرفان ، ورششت ذلك العطر الذى كان يحبه عادل كثيرا. ثم دخلت إلى الحجرة ، كان يعطينى ظهره ، كدت أن أجرى إليه وأحضنه ، ولكنى مشيت إلى ما وراء الستارة ، وجلست ، جاء صوته يسألنى عن مدينتى. فقلت له القاهرة . حين ذلك وجدت الستارة تلم بضربة واحدة من يد صموئيل ، ووجدتنى فى حضنه لا أعى غير رائحته التى افتقدتها اثنين وعشرين عاما.

القسم السابع

فهمني في أي شيء ضللت! وإلى متى تشبع روحي قلقا؟!

حين أمسكت بتذكرة القطار ، لا أعرف لماذا ارتعشت أعصابى. كانت المرة الأولى التى أركب فيها قطارا متجها إلى الجنوب. لم أنس مطلقا أن عمى قال : إن الصعيد هو بلدنا الأصلى ، وإننا طردنا منه منذ ما يقرب من ستة آلاف سنة ، حين جمع ذلك الملك أشقياء الصعيد ، ونفاهم خارج طيبة ، ولقد أصبحت تلك الكلمات ملاذ كل منوفى حين يضطر أن يدافع عن هويته ، بل إن عمى ذات يوم قال لرجل من محافظة الغربية حين عايره بانتمائه للمنوفية ، قال إنها سميت بهذا الاسم لأنها كانت منفى لكل من يبحث عن العدل فى مصر القديمة فى عهد الهكسوس ، وعندما تأكد له أن ذلك الرجل لا يعرف القراءة أخرج من درج مكتبه ذلك الكتاب القديم الذى حاولت قراءته كثيرا ولم أستطع ، وأشار له إلى بعض الكلمات والصور القديمة الرجل يفتح فمه ، وهو يصلى على النبى ويقول لعمى "العلم نور يا مقدس" ، وعمى يغالى فى القراءة للرجل بلغة لا نعرفها.

- رصيف عشرة فين يا أستاذ ؟

كانت السلالم الرخامية ناصعة البياض ، والممر رطب وبارد ، وأضواء النيون تستطع. عندما تحرك القطار رحت أفكر فى ذلك البلد الذى حكى لى عنه راعى دير العريان ، حين أمسكت فكرة دخول العالم الكهنوتى ، وأمضى سبعة وعشرين عاما وأنا أتخبط بين الدراسة التى لا أحبها والعمل ، ودخول الكنيسة التى صممت على الدخول إليها نهائيا حين ماتت أختى الصغرى " مريم " ، وجاء ذلك الراهب الصغير بلباسه الأسود الموشى بخطوط من الحرير المذهب ، ودخل إلى المندرة وجلس بين المعزين الذين كانوا قبل دخوله يتحدثون فى أمور شتى ، وعندما جلس وضع كل منهم لسانه فى فمه ، ولم يعد هناك غير تنفس هادئ وابتسامة منكسرة بين الحين والحين . يذكر الرب أحد الجالسين ، فينظر إليه الراهب بود ، وعندما دخل جدى الكبير الذى تجاوز السبعين خريفا ، وقف كل الحاضرين يسلمون عليه بإكبار وعندما وقف أمام

الراهب ترك جدى العصا التى يمسكها بيده اليسرى ، وقبل يد الراهب ثم صافحنى ببرود ، وجلس جواره وراح يرحب به ، ولما وقف الراهب وأعطى عظة الموت بكى أبى كثيرا ونكس كل الحاضرين رءوسهم إلا جدى وضع يده على العصا وأراح صدغه عليها ، وراح ينظر إليه بإعجاب. فى المساء قلت لأمى سوف أدخل الكنيسة ، فلم تلتفت إلىّ ، وراحت تبكى ابنتها. بعدها بأسبوعين دخلت دير العريان واستطعت خلال ثلاث سنوات أن أتلقى شهادة الوعظ ، وعندما جادلت أبا الدير فى موضوع الرهبنة ، أوصانى أن أذهب إلى الأب"بشاى"بدير الأنبا "صموئيل" المعترف بأسيوط ، لكى أتلقى على يديه تعاليم الرسل. القطار يمضى بطيئا ورائحة النيل تتخلل مسامى ، فأشعر بالرهبة والخوف. بعض الوجوه مألوفة يكاد الواحد ينادى عليها بأسمائها. أعطانى ردائى الكهنوتى بعض التبجيل من المسافرين ، وأشعرنى بالضيق من آخرين ، جلس جوارى رجل فى الأربعين من عمره بدأ يتملل فى جلسته ، جاء صوته ضعيفا وهو يقول :

– أنت منين يا مقدس ؟

أحسست بضربة فوق القلب أصابت موضعها تماما ، قلت :

– من الغربية ، أول القصيدة كفر ؛ كما كان يقول أبى لأمى ،حين توقظه فى الظهر وتقول له أعطنا نقودا ، لتحضر لنا الإفطار. ضحكت بصوت يسمعه الرجل فقال :

– إيه . أنت ضحكت يا مقدس خير إن شاء الله

– أبدا افتكرت حاجة.

– منين من الغربية ؟

– من " السنطة " .

– أنا لى واحد قريب هناك اسمه " إبراهيم عبد الكريم " ، أنت تعرفه ؟

– السنطة كبيرة وفيها كتير اسمهم إبراهيم

– ده فاتح دكان فى الميدان ، دكان كبير أنا ما رحتش هناك ولكن ابن عمى راح

وبيقول ع العز اللى هو فيه.

كنت أستمع إليه وأنا أفكر فى الأب"بشاى"وكيف يكون اللقاء ، هل سيدخلنى الدير ويعلمنى؟! أنا الذى لم أُعمد ، ولم أتلق نفحة البركة من ذلك الرجل الذى تسبقنى سمعته السيئة دائما .

– لسه بدرى على أسيوط ؟

– إحنا لسه فى مغاغة يعنى قدامك بالميت ثلاث ساعات ، أنت رايح فين فى أسيوط ؟

– دير الأنبا "صموئيل" المعترف .

– على العموم يا (أبو خالو) أنا من القوصية وليا أصحاب كتير ، متأخذنيش نصارى ، لكن والله العظيم أنا عمرى ما قرفت منهم ، باكل معاهم وبروح معاهم البيت ، يعنى أنا معاشرهم ، وعشان تعرف أنا رحت الكنيسة دى بيجى سبع مرات فى فرح وفى موت وتغسيل العيال الصغيرين لما بيجوا يتنصروا .كنت أستمع إليه وأجز على أسنانى من كلماته ، هكذا دائما عندما تقابل شخصا مسلما يشعرك أنه يحبك ، وعارف كل حاجة عنك . كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة حين دخلت من باب الدير الذى كان يتكون من دور واحد ومبان قديمة ، والكنيسة قبابها عالية والحوش ملئ بالأشجار الجميلة ، لمحت شابا يرتدى صديرى على سروال أبيض جوار السور ، ناديت عليه فجاء يهرول ، سألته عن الأب "بشاى" ، مشى أمامى وهو يسألنى عن سبب الزيارة فقلت له :

– أريد أن أرى الأب.

فى الممر الذى يفصل بعض الحجرات طرق الباب وانتظر دقائق. فتح الشماس لنا الباب ، ودخلنا على الأب الذى تجاوز عمره الخامسة والستين ، وقبلت يديه. سحبها بتواضع ، وأمرنى بالجلوس ، ثم جاء صوت جرجس يسألنى ماذا أشرب ، فقال له الأب : " اصنع له شايا ريثما أتعرف عليه عن قرب " . أغلق جرجس الباب ، وخرج ، فسألنى الأب عن بلدى أخبرته وأخرجت له خطاب راعى كنيسة العريان. فتح

الخطاب فى تُؤدة ، ثم قربه من عينيه كثيرا ، وراح يقرأ بصوت عال. طوى الورقة ، ووضعها على المكتب. رجع بجسده للوراء ، ورحب بى. سألنى عن الأب"متّى" راعى كنيسة العريان. طمأنته على أحواله ودعوت له بطول العمر. دخل جرجس يحمل صينية عليها كوب شاى وكوب نعناع وماء بارد وقال للأب :

– كوب النعناع قبل الحمام ينعش جسدك أيها الأب .

– ابتسم بشاى وهو يُثنى على جرجس الذى وقف وعيناه مثبتتان إلى أسفل ، ثم أطلق ساقيه وقال :

– الماء لابد فار ، سيكون الحمام معدا لك بعد عشر دقائق .

تكلم الأب فى أشياء كثيرة ، وأوصانى بجرجس ، وأهمية الاعتماد عليه فى كل شىء. دخل جرجس ، ليخبر الأب أن الحمام جاهز الآن ، فقال له :

– الآن يمكن أن تذهب بمنير إلى حجرتك وليشاركك الغطاء ، ريثما يرضى الرب عليه فى فترة الاختبار ، ويدخل قلالى الرهبان .

– خرج جرجس ومشى أمامى ، ثم قال لى دون أن يلتفت إلىّ :

– ما رأيك أيها الأخ منير لو شربت من العين المباركة ؟

كنت أفكر فى الأب بشاى. فلم أرد عليه ، ولكنه حين رفع كوب الماء اعتذرت له. فقال :

– اشرب أيها الأخ. اشرب أيها الأخ. إنها من عين ماء " مارية " المباركة .

وارتعش جسده. انسحبت للوراء دون أن أمد يدى إلى يديه المرتعشة ، لم أكن أدرى أنه أعمى ، ولم أكن أعلم عن عين مارية شيئا ، وكان على ذلك الأعمى أن يتريث قليلا حتى أطلب منه الماء. رفع "جرجس"كوب الماء إلى فمه وشربه مرة واحدة ، ثم أدار جسده واتجه إلى الممر المؤدى إلى حجرته. دخل الحجرة دون أن يتكلم معى. اخترت السرير المحطوط جوار الشباك. فتحت الحقيبة الصغيرة ، وغيرت الجلباب الأسود. ارتديت جلبابا فضفاضا. جلست أفكر فى المكان ورائحة الجنينة تأتينى طازجة. دخل

عليّ شاب وسيم يرتدى رداء الرهبان ، عرفنى بنفسه. كان صموئيل ولما وجدنى أجلس على السرير جوار النافذة قال " هذا سرير جرجس ، أحسست أن جرجس هذا سيكون قدرى الذى هربت منه ، فكرهته. نزلت من على السرير وبدأت أعيده كما كان. دخل جرجس وجدنى أرتبه ، قال :

– ماذا هناك أيها الأخ الصالح ؟!

– ضحك صموئيل وقال :

– إن الأخ منير اختار سريرك ، ولم يكن يعلم فأخبرته. انتفض جسد جرجس وقال :

– ليأخذه ، لا أحد هنا يمتلك شيئا ، غير يسوع الرب ، ربت صموئيل على كتف جرجس الذى دائما ما يضع رأسه فى الأرض. خرج جرجس ، وبدأ صموئيل يحدثنى؛لم أكن أسمعه. كانت عيون جرجس تخربش فى رأسى ومواقفه الكثيرة معى غير هذا الموقف ، قال صموئيل :

– مالك يا منير ، هل تشعر بالحنين لقريتك ؟

– لا كنت أفكر فى المستقبل .

– لا تقلق فالأب بشاى رجل طيب ، وأنا وجرجس معك ومعنا أيضا واحدٌ وعشرون راهبا فى القلالى ، وسوف تحبهم جميعا ، ولكن يجب عليك أن تجتاز التدريب الروحى. هو جد صعب ، وعليك أن تحفظ تعاليم الرسل جيدا؛وقد اجتزت الاختبار ودخلت القلالى ولم يمض على وجودى فى الدير سوى خمسة شهور ، فلا تقلق ولا تتعجل .

أخرجت له الشهادة التى أعطيت لى فى دير العريان تثبت أننى أمضيت فيه ثلاث سنوات . أمسك بها وقال :

– ثلاث سنوات فى دير العريان يجب أن يعلم بها الأب بشاى ؛ لأن هذا سيرفع قدرك عنده.أخذ الشهادة ، وخرج. تركنى أستريح قليلاً بعد هذا التعب ، وأكد على أن أحضر معهم صلاة ما قبل النوم. لأن الأب بشاى لابد قد أنهى حمامه ، ودخل قلايته

، لكى يتعبد فيما قبل صلاة الساعة السادسة كعادته كل يوم أحد . أرحت جسدى على السرير وبدأت أفكر فى جرجس و صموئيل ولا أعرف لماذا ظلت تلك العادة تلازمنى على مدار خمسة عشر عاماً ، ما إن أفكر فى صموئيل حتى يقفز جرجس إلى ذهنى ، بل إن السنة الأخيرة لجرجس حلمت حلماً يؤرقنى لم يتغير على مدار العام كله حتى يوم موت " مينا " ابن جرجس ، استيقظت فى حوالى الساعة الثامنة مساءً كانت الحجرة الواسعة مليئة بالهوام والناموس ، والجلباب الذى أرتديه مشبعًا بالماء المالح ، كانت شفافية الفراغ فى الحجرة المتسعة تسحب روحى من ذلك المكان. غيرت الجلباب ، وخرجت إلى حوش الدير. كانت القلالى الخاصة بالرهبان خلف الكنيسة لا تبين إلا إذا مشيت بحذاء السور أو نزلت من سلم الهيكل ذى الخمس درجات . وكانت أشجار السرو والجزورين والصفصاف تنتشر بجوار سور الدير وعين مياه تخرج من هذا السور .على مرمى البصر من جهة اليمين كانت تكعيبة العنب تتدلى منها ثريات صغيرة ، تنيرها أنوار خضراء وحمراء. كانت بنانى الحمام تظهر من خلف سور الدير . سرت قليلا فى اتجاه تكعيبة العنب ، كانت القلالى تظهر بوضوح وترسم بشكلها البسيط مربعا غير مكتمل الأضلاع. فى الوسط يقف سارٍ كبير موضوع عليه صورة المسيح المعلق على الصليب . لم ألمح تلك البنت إلا حين جلست على الدكّة الموجودة تحت التكعيبة. كانت تستند إلى عمود خشبى ، تلتف حوله جذور عنبة كثيرة الظلال كانت تبدو حزينة وفى العقد الثانى من عمرها ، وإن بدا عمرها أكبر من ذلك كان قد مضى على أكثر من أربع سنوات. لم أكلم فيها امرأة إلا العجائز. كنت قد قطعت علاقتى" بدميانة " ابنة عمى قبل أن يأتى ذلك القس يوم وفاة أختى الصغيرة ، لا تنس يا منير. إنك هنا من أجل الرهبنة ، لا تدع الشيطان يركب رأسك . كانت الجملة تتردد فى رأسى وأنا أنظر للفتاة؛ لم تكن جميلة ولكن بشرتها كانت رائعة ورقيقة ، وقفت وحاولت الابتعاد. تأكد لى أن الشيطان قد يستميل عقلى ، التفتّ إلى وجهها جيدا ، وسألتها:

- ما اسم السيدة ؟

- تريزا.

– ماذا يجلسك هنا يا تريزة؟

– أنتظر موعد صلاة ما قبل النوم .

كان شعرها الأسود القصير وطريقة كلامها يشيان بأنها نالت قدرا من التعليم ، انسحبت للوراء دون أن أتكلم ، واتجهت إلى الداخل. من بعيد رأيت جرجس جوار الإيوان المخصص للوعظ. كان صحن الكنيسة كبيرا يتسع لأكثر من مائتى مصلى ، وسقف الكنيسة موشّى برسومات تكاد تكون تكوينات حقيقية للمسيح والحواريين ويوسف النجار. كان جرجس ينظر فى اتجاه المسيح. كانت عيونه مليئة بالحياة . أستطيع فى المسيح كل شىء .من قال تلك العبارة التى تتملكنى وجعلت الطريق فى نظرى يبدو سهلا ، ويحتاج لبعض الوقت وبعض الصبر. حين دخلت الكاتدرائية الأم الموجودة فى العباسية ، ورأيت الصور البديعة ، تمنيت أن أعود إلى دير العريان لأمزق الصور البسيطة الموضوعة بعناية فائقة فى الكنيسة التى كنت أنظفها كل صباح لمدة عامين كاملين. كنت على استعداد أن أنظفها طوال حياتى دون أن أرى هذه الرسوم التى تنطق بالحياة لولا تلك الجملة التى قالها ذلك الراهب الذى دخل علينا ذات مساء وأكل وشرب ورحل دون أن يترك شيئا سوى تلك الجملة " أستطيع فى المسيح كل شىء " .

فى اليوم التالى حين استيقظت فى الصباح ، وجدت جرجس مازال ينام على المصطبة التى أصبح ينام عليها منذ أن شاركته حجرته. كان ينام ، وظهره للحائط. نزلت من أعلى السرير ، وتحركت فى اتجاه الباب. وجدت "جرجس"يلم ساقيه ويفيق من النوم .

– لم تنم اليوم أيها الراهب. يبدو أنك فى شوق إلى الشمس التى لم تخرج حتى الآن.

لم أكن أعرف أن الشمس لم تظهر ولم أكن أعرف أن الفجر لم يحن موعده. خرجت إلى الممر ، ونظرت إلى فناء الدير والحديقة. كان الفجر على الأبواب ، خرجت إلى حوش الكنيسة ، وجلست تحت تكعيبة العنب. نظرت للسماء التى تنيرها تلك النجوم الكثيرة. لم أنتبه لخروج جرجس إلا حين سمعت صوت مياه عين " مارية " وهو يتساقط ، وهو يغسل رأسه ووجهه ، ثم اتجه إلى حيث أجلس. لم يتكلم لمدة

طويلة. كان ينظر إلى السماء ، وأنا أفكر فى أى شىء. كان يفكر ويحلم . هل كان يحلم بالنجوم التى بدا عددها يتناقص بعض الشىء؟ أم يفكر فى الشمس التى سوف تخرج بعد قليل ؟!

لا تخف أيها الراهب منير ؛ فالحياة سوف تكون أفضل حين يمنحك الله معرفة.

صحوت على تلك الجملة تخرج من فم جرجس فى الحلم ، لم يكن فى مكانه . غيرت ملابسى ، وذهبت إلى عين" مارية ". شربت ، وغسلت وجهى ، وطلبت من صاحبة العين " مارية " المباركة أن تقف بجانبى فى يومى الجديد بتلك الحياة التى لابد منها ، حتى أصبح فى يوم ما رجل الله ورجل الحياة. بعد الصلاة طلب منى جرجس أن أدخل حجرة الأب بشاى ، كان الأب يوقع بعض الأوراق. جلست ، حتى ينتهى. دخل جرجس يحمل صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاى بالحليب ، ثم جلس أمامى على الكرسى. وضع الأب بشاى القلم ثم قال لى :

– إيه أيها الأخ الصالح . يجب أن يغير اسمك فماذا تريد أن تكون ؟

وضعت رأسى فى الأرض ثم قلت له :

– بيشوى يا أبت. كان حلمى الأول أن أسمى بذلك الاسم .

أمسك الأب بشاى بكوب الحليب المخلوط بالشاى ورشف رشفة وقال :

– اختر اسما آخر أيها الابن.

فقال جرجس

– ليكن اسمه " بيشوى " أيها الأب .

حين ذلك انتفض الأب من مكانه وقال لجرجس:

– تعال اجلس مكانى ، وامنحه من الأسماء ما شئت.

احمر وجهه ، وكادت دموعه تسقط ، فقلت للأب:

– أنا أحب ذلك الاسم يا أبت.

ولكنه صمم أن يطلق على اسم أب دير العريان"متّى" ، ليكن"متّى" يا بنى. ثم قال

– هيا يا"متّى" اذهب لتتعرف على الرهبان الذين سيشاركونك القلاية التى سوف يختارها لك الأخ جرجس ، مضى جرجس أمامى ، وقدماه لا تستطيعان حمله من غضبة الأب ، نادى الأب عليه ، وطلب منه أن يعود . انتظرت بالخارج بعض الوقت ، وإذا بالأب يخرج ويلف ذراعيه حول جسد جرجس الذى تنير وجهه الأسمر ابتسامة كبيرة. كرهت جرجس والأب أكثر ، وبعد مضى سنة وشهرين من دخولى الدير حدث موقف أردت السخرية فيه من جرجس لا أكثر. كاد هذا الموقف يحطم أحلامى فى الاستمرار داخل الدير . لقد غيرت كتاب تعاليم الرسل فى المكتبة ، وطلبت من جرجس أن يأتى به ، فجاء بكتاب آخر ؛ كما قلت لصموئيل الذى كان يدافع عنه ويقول : إن المسيح أعطاه يدين وقلبا مبصرين. أردت أن أخبره أن جرجس هذا أعمى تماما ، ولكن الأب بشاى تدخل بعد أن أسمعنى ذلك الأعمى بعض النصائح وكاد يخرجنى من الدير لولا بكائى واعترافى .

ظلت هذه العبارة تتردد فى ذهنى وأنا أقول : " أستطيع فى المسيح كل شىء " ، ولكن محاولاتى كانت ضعيفة. كان الهيكل كبيرا جدا ، ويساوى ثلاثة أضعاف الهيكل الموجود فى وسط كنيسة دير العريان. فطوله يتعدى المترين والنصف وعرضه يوازى طوله وإيوانه الذى يمسحه مرصع بالصدف ومكتوب عليه بالأرابيسك ، مُهدى من المقدس " عوض الله شكرى " رغبة فى وجه يسوع المسيح وتباركا لكنيسة دير الأنبا "صموئيل" المعترف ، ورغم وجود الأنوار الساطعة إلا أن الشمعة الموجودة فى الطبق ترمى بظل للكتاب النائم بجوارها على سور الإيوان الداخلى أمام المذبح بقوائمه المصنوعة من خشب الأرو الخالص .

حين دخل صموئيل والأب انتبه جرجس الذى كان يمر على الهيكل بيده المدربة على رفع الأتربة بنيل المنشفة البيضاء ، رحب بى صموئيل وقال إنه حكى للأب بشاى عن شهادة الوعظ وقد قال إن هذه الشهادة ستقصر مدة قبول طلبى كما أنها

ستعيننى على مشقة مدة أيام الاختبار القادمة ، شكرته على تعبه معى ، ثم نادى على جرجس الذى نزل السلمات الثلاث بتؤدة واتجه إلى صموئيل وعيونه تنظر إلى أسفل وقال له :

– كل شىء معد للصلاة الآن .

ثم اتجه ناحيتى دون أن يرفع عيونه وقال لى :

– مرحبا بك يا سيد متى فى دير ألأنبا "صموئيل" المعترف وندعو الله أن يعينك علينا ، وعلى تحمل المشاق التى فى انتظارك .

ثم أمسك صموئيل بيدى ، وخرجنا إلى حوش الدير حتى يأتى الأب والمصلون كانت أنوار النيون تضئ الحوش ورائحة الأشجار تعبق المكان حكى لى عن " مارية القبطية " وعين الماء التى رفضت أن أشرب منها فى الصباح .انتفض جسد جرجس لرفضى ، رفع صموئيل يده وهو يحكى عن معجزات تلك القديسة ثم راح يرسم علامة الصليب رسمت علامة الصليب أنا الآخر ، وبدأت جملتى الأثيرة تتردد داخلى أستطيع فى المسيح كل شىء علا صوتى بها ؛ فسكت صموئيل ثم طلب منى أن أعيدها ؛ فأعدتها بصوت هامس أستطيع فى المسيح كل شىء ، أكمل صموئيل كلامه قال :

– إن شماسنا العظيم جرجس استطاع بفضل مياهها المباركة أن يزرع أرض المعلم رياض التى وهبها للدير ، وأصبحت تعطينا خيراً كثيراً ، فلم نعد نشترى أى شىء ببركة ذلك الشماس الذى عرفت يداه أين تقع بَرَكِة " يسوع " .

أمسكت بالكوب البلاستيك الموضوع على حافة الحوض الأسمنتى ، لأشرب . قال صموئيل :

– اغرف بيديك لا تجعل بينك وبين الماء حائلاً .

غرفت بيدى ، ولكن لم يكن يعلق بهما إلا القليل من هذا الماء الزئبقى أعدت المحاولة كثيراً ، بل أكثر من عشرين مرة و صموئيل يبتعد قليلاً . أعدت كم الجلباب الذى طاله الماء إلى موضعه ، ومشيت الخطوات القليلة التى ابتعدها عنى صموئيل

وقلت :

- لماذا تركتنى ، وابتعدت عنى ؟

كنت أفكر فى جرجس ، وكيف أنه كما حكى الأب بشاى اغترف بيده سبع مرات فقط ! فقط سبع مرات يا منير.

مرة ثانية فى هذا اليوم يا صموئيل طعنة فوق القلب تمامًا لم تخطئ موقعها ماذا لدى جرجس وليس لدى؟ ماذا عنده وليس عندى؟ وما هو السر فى السبع مرات ؟

كانت تريزا قادمة باتجاه صحن الكنيسة . سلم عليها صموئيل ، وعرّفنى بها ، ثم اتجهنا إلى الممر الضيق. بعد دخولها إلى داخل الكنيسة ، قال :

- هى تميل إلى الشماس.

هذه البنت التى تبدو فى ردائها البسيط جميلة بعض الشىء تحب ، وتميل إلى جرجس! أبانا الذى فى السماء ، هل هذا هو يوم الفزع ، لماذا هذا اليوم يا مسيح ؟!

انتهينا من الصلاة . نادى الأب"بشاى"علىّ ، ودعانى أن أقرأ " مراثى إرميا "هذا المساء ، و" سفر الخروج" . لم أعرف لماذا " مراثى إرميا " مع " سفر الخروج"؟ ولكنى وعدته بقرائتهم. حين دخلت الحجرة المخصصة لجرجس ، جلست على السرير الآخر ، وخلعت جلبابى . ارتديت الآخر ، ثم أمسكت بالكتاب المقدس . رحت أقرا " سفر الخروج" . كنت قد قرأته عشرات المرات قبل الآن ، ولكنى أحسست أننى أقرأه لأول مرة . كان هناك موقف لموسى يكاد يجعلنى أبكى. عرفت أن الأب بشاى أراد أن يخفف عن قلبى اليوم الأول بذلك الخروج الذى كنت أحس به حين خرجت فى صباح اليوم من البيت ، وقبل أن أبدأ فى قراءة المراثى. دخل "جرجس"يحمل صينية عليها طبق من العدس ورغيفين. كنت فى حاجة إلى الطعام ؛ فشكرته وابتدأت فى الأكل فقال لى :

- لماذا لم تتل صلاة الطعام ؟

– قلتها أيها الشماس .

– خلتك لم تقلها .

ثم خرج بعد تلك الجملة ، وبالفعل لم أقلها ، ولا أعرف ما الذى أنسانى الصلاة والدعاء . أكملت طعامى ، ثم أمسكت بالكتاب المقدس. كانت " مراثى إرميا " جميلة ورائعة. دخل "جرجس"مرة أخرى بكوب الشاى. ذلك الـ "جرجس"رائع لا شك. من أخبره أننى أفضل الشاى بعد الأكل مباشرة. يجب أن أحبه على ما أظن. عندما اقترب منى قال بصوت ضاحك:

– اليوم أنت ضيفنا ، ولكن غدا لن تكون ضيفا ، سوف تصنع الشاى حين تريد . لا تعتمد على أحد ، فلن يرفع ذلك البرغوث النائم تحت إبطك إلا يداك.

شكرته ، ووعدته بذلك . مضى علىّ خمسة عشر يوما أمارس الصلاة والتعبد فقط . لم ألتق بالأب حتى الآن غير مرتين أحدهما صدفة على باب الكنيسة . تحدثت كثيرا مع صموئيل ذلك الراهب الطيب. فى صباح اليوم العشرين طلب منى جرجس أن أذهب بعد الصلاة. غسلت وجهى ، وخرجت إلى حوش الكنيسة ، وهناك رأيت تريزة من بعيد . تلك البنت التى رأيتها فى اليوم الأول لدخولى الدير ، وعجبت كيف لم تأت على بالى طوال هذه الليالى ، وحين دنوت منها تذكرت كلمات صموئيل . سلمت عليها ، وشربت من ماء مارية ودخلت إلى الصلاة. بعد الصلاة ذهبت إلى حجرة الاعتراف . لم أجد أحدا بها ، فجلست على الكرسى وانتظرت .بعد قليل دخل على جرجس بكوب من عصير المانجو الطازج ، وقال إن الأب سيدخل بعد قليل. لا أعرف لم جاءتنى صورة أمى وصوتها حين رفعت ذلك العصير من يد الشماس. يخيل لى أن جرجس هذا يصلح أما لأطفال الملاجئ بصوته الحنون وحبه الجارف. أمسكت بكوب العصير من أجل خاطره ، وحين دخل الأب بشاى وضعت الكوب الفارغ على الأرض ، ثم قبلت يديه. لم يسحبها منى كأول مرة جلس على الكرسى ثم قال:

– يجب أن أعرف أشياء كثيرة عنك قبل اجتماع الكنيسة فى الأسبوع القادم ، للنظر فى الطلبات المقدمة عن الأبناء الصالحين .

كنت أرتعش هل هذا اعتراف أمام أب الدير أم أمام عسكرى. لا أعرف ما الذى جعل ركبتى ترتعشان من أثر تلك الجملة حين استقرت فى عقلى. حدثته عن كيفية دخولى كنيسة العريان ، وعن علاقتى بالإخوة هناك ، وعن حبى للرداء الكهنوتى. لم أبق شيئا لم أحدثه عنه فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ؛ ولكنه وقف ثم عاد إلى كرسيه مرة أخرى وقال :

– أيها الابن الصالح .. كل شيء يجب أن أعرف علاقتك بأمك وأبيك وأبناء عمك .

من أخبره بك يا منير من الذى وضع علاقتى بابنة عمى فى رأس ذلك الأب الغليظ القلب ، لم أجد أمامى مفرا ، حكيت له كل شيء . أستمر الاعتراف أمام الأب أكثر من ثلاث ساعات ، لم أدخر أى شيء لنفسى.صرت أمامه عريانا تماما وقف الأب بشاى ، ثم مسح على رأسى ، ثم قال:

– سوف يكون لك شأن كبير لو أسكنت قلبك أعمال الخير ، واحذر من ذلك الشيطان الذى عرفته عندك ، ولا تجعله يخرجك من طريق الرب ، وانتظر الأيام ، ولا تأكل اللحم النيئ .

ثم رسم علامة الصليب على رأسى وخرج . مرت أيام كثيرة لا أعرف عددها ، وذات مساء كنا نصلى صلاة النوم وبعد الصلاة قال الأب :

– انتظر يا "متى" ، سوف تدخل القلاية الخاصة بالرهبان ؛ فلقد تم ترشيحك الآن .

– كدت أن أطير ، وأنا اسمع ذلك الكلام . معنى هذا أننى سوف أصبح قسا عما قريب . قبلت يد الأب . خرجت وأنا لا أرى شيئًا ، ودخلت حجرتى وجرجس. بدأت ألملم أشيائى. وضعتها فى الحقيبة السوداء التى أحضرتها من المنوفية. دخل "جرجس"علىّ ، وعلى فمه ابتسامة . هنأنى ، وشكرته ، ودعوت له .

ثم تبعت "صموئيل" . كانت أيام الاختبار صعبة وقاسية ، ولكنى استطعت أن اجتازها بشق النفس. لم يعكرها إلا تلك الأشياء التى كانت تعتمر فى نفسى من الخوف. بعد سنة وشهرين أصبحت قسًا . كانت فرحتى طاغية ، وأنا ارتدى الرداء

الكهنوتى الجديد. طلب الأب بشاى أن أكون مسئولا عن المكتبة الخاصة بالدير وأن أحاول أن أجعلها كبيرة أنا والشماس جرجس الذى كان يحتفظ بالمفتاح معه . حاولت أن أفهمه أن الكتب يجب أن ترصّ بترتيب أبجدى ، ولكنه رفض أن يغير طريقته التى تعتمد على الذاكرة. شكوت للأب بشاى ، ولكنه طلب منى أن أتبع جرجس فطلبت منه أن يبحث لى عن دور آخر فى الحياة داخل الدير ، ولكنه رفض وقال : إننى أمين المكتبة ، والمكتبة تابعة للشماس ، ومن الواضح أن ذلك الأب قد أعطى ذلك الشماس صلاحيات تفوق مكانته الحقيقية. بعد يومين من تلك الشكوى كان عيد تنييح وقف ذلك الأعمى يلقى عظة ذلك الرسول ، وقد فاض بى الكيل من ذلك الوضع الغريب الذى يجعل شماساً كهذا يلقى عظة "مارى جرجس" الرسول بما يحمله ذلك الاسم من وقع فى قلب كل مسيحى ، وحين انتهى ذلك الأعمى من تلك العظة التى لابد تلاها عليه ذلك الأب أو "صموئيل " وقفت لأعلن رأى فيما حدث ، ولكنه جعلنى أبدو فى عيون المصلين كابن لقيط من أبناء البروتستانت وعدو له . فلم أستطع فعل شىء . فى اليوم الثانى طلب منى الأب أن أعترف أمام المذبح ، وأن أنقى قلبى قليلاً. فى خلال تلك الفترة عرفت ما يدور فى الدير . أصبحت أعى الأمور جيداً . عرفت أن أهم شخصيتين فى الدير هما الأب و صموئيل. كنت أقرأ كل ما تقع عليه يدى. تمنيت أن أقف يوم "أحد السعف " وألقى للناس بعض ما عرفت من قراءة سيرة الرهبان وسيرة الآباء ، وبعض الكتب التى تأتى من الخارج بعد ترجمتها والإنجيل باللغة المصرية ، وقبل موعد رسم جرجس بيومين خرجت إلى فناء الدير ورأيت تريزا جالسة عند تكعيبة العنب ، دنوت منها ، فسمعت صوت نحيبها . سلمت عليها ، فلم ترد سلامى ، وراحت تمسح دموعها. عرفتها أننى أعلم مدى حبها للشماس ، فودعت رأسها فى الأرض قلت لها :

– لا داعى لذلك الإحباط ، يجب عليك أن تعترفى لجرجس ، عله يعلم أنك تحبيه ، ولا تتركى أحدا غيرك يحمل البشرى .دعى يدك تحصد ما تزرعها ولا تنتظرى الحبوب وأنت جالسة فوق الجمل .

- أسمعى أيتها الأخت ، بعد غد يوم رسمه يجب أن تعترفى له .

- لا عليك .

- فقط قولى له كم أنت جميل اليوم. فقط يسمعها واتركى كل شىء لله .

كيف أحبت "تريزة" " جرجس "

مبلغ علمى أن الرب يعطى لهؤلاء العميان قلوباً جد نظيفة وآذانا خالية من الشعر الذى يعوق السمع عند المبصرين ، ولهذا أحبت أن ترى بعينيها تلك التحركات الكثيرة لحواجب الشماس ، وتلك المقدرة الفائقة لتمييز الأموال ، فلقد ظلت تلك الحركة التى يقوم بها جرجس حين يخرج حافظة نقوده هى الأثيرة لدى تريزة وكثيراً ما حاولت تضليله بإعطائه مبلغاً أقل وهى تقول له :

- ذلك هو الباقى أيها الشماس

عند ذلك كانت ترتسم علامات الحزن على وجه "جرجس"وهو يقول بصوت متهدج :

- ليس هكذا يُعامل الأعمى .

وفى تلك اللحظة تفر من عيونها دمعة ساخنة تحاول ، إخفاءها عن تلك العيون غير الموجودة على الإطلاق ، ولكن صوتها يفضحها تماماً ، كما يمس مشرط صغير حافة جسد عند ذلك يترك علامة تخرج دماء ، ربما لا تكون ساخنة ، فيحس بها ذلك الذى كان يمر بالمشرط فيرميه بعيداً عن أيدى الأطفال الصغار . أنا لا أجزم أن تريزة بما تحمله من حب لذلك الأعمى كانت تلعب تلك اللعبة معه من أجل أن تضحك عليه ، أو تظلمه ، فى اعتقادى أنها فقط تريد أن تكرر ذلك الموقف ، لا تعرف ماذا تختبر به ، لكنها تكرره ، وربما ستظل تكرره . ولكنها كارثة ضخمة على ما أظن تريزة تعامل جرجس على هذا النحو أظن أن ذلك" فوبيا " مثل فوبيا الأماكن العالية والقوارض ويجب علينا أن نعرف لماذا عاملت تريزة جرجس بتلك الطريقة خلال أول شهرين فى

حياتهما الزوجية ، لنعلم ذلك يجب علينا أن نقرأ الفوبيا السابق مرة أخرى

فى صباح ما دخل علينا أحد الحجاج الذين يجوبون الأرض شمالا وجنوبا. كان ممسكا بعصاه فى يده. حين علمت أنه أتى من دير الإسكندرية ، جاء إلى قلبى سؤال أعتقد أن الشيطان قد أدخله قلبى بمكره. لماذا يجوبون طوال حياتهم أطراف المعمورة ، وعصيهم دائما فى أيديهم . إنهم يجتازون آلاف الأميال من دير إلى دير ، ومن كنيسة إلى كنيسة ، محرومين من المأوى بصورة مرعبة . غرباء عن كل فرد وعن كل شيء ، ليس لهم إلا الله كما يزعمون . هل يعلمون أيضا أن الله ليس لهم . فهم يرفعون صلواتهم إليه من قبيل العادة. فى حين أنهم فى داخلهم يكرهونه أشد الكره ، فهو الذى يجرجرهم فى أرجاء الأرض. لماذا لا يعرف واحد فيهم ، حين سألت ذلك الحاج ذلك السؤال ، ابتسم بخبث ، وقال ادع الله إلهنا أن يمنحك فرصة اللقاء به والتوحد معه. ثم راح يلقى عظته عن مدى الراحة فى تجنب الناس وأن يعتبرهم الواحد فينا كجذع شجر أو حجر ملقى على الطريق ، يتعثر المرء فيها ، وأحيانا يؤذى نفسه من جرائها ، فقلت له :

– كيف تستغنى عنهم أيها الأب؟ !

– بأن تتوحد مع أبيك وإلهك.

– كل الناس ؟

– الأشرار منهم .

– كيف تعرفهم ؟

– يمنحك أبوك علامات فيهم .

– قلها لنا .

– لا أستطيع .

وهكذا انتهى الحوار بيننا ، فقلت له :

- أعتقد أنك تمتلك أشياء كثيرة تثير خشيتك.

فلم يرد عليّ ، وانصرف إلى قلاية الأب بشاى ، الذى كان مريضا فى ذلك الصباح . أحسست أننى انتصرت عليه ، وعلى تلك الأفكار الغريبة التى يطرحها هؤلاء الذين يسعون إلى بشك. كما يزعمون . مع أن الله موجود فينا. رسمت علامة الصليب وقلت أمام الرهبان الذين كانوا ينظرون إلىّ بشك .

- ارحمنا يا الله

- ما كان لك أن تحدث ذلك الراهب الجليل هكذا.

- أنت لا تعلم شيئا عن هؤلاء. اجلس مثلى فى المكتبة ، واقرأ أخبارهم تجد أن كلهم ادّعوا الجلوس مع الإله ، لا لشىء إلا ليقولوا لك انظر أيها الراهب الصغير إلينا. إننا نحبك ، إن أمسكت بعصاك ، وهمت فى البرية ، لكى تجد الرب إلهك. هل الرب فى البرية فقط أيها الراهب؟ لم يجب أحد علىّ ، وانسحبوا واحد وراء واحد . حين خرج ذلك الراهب السواح من قلاية الأب ، مشيت بخطوات مسرعة ، ولكنه دنا منى ، وقال :

- فكر كما يطيب لك ، لكن كن مطيعا للرب إلهك .

ثم مضى دون أن يلتفت إلىّ. أحسست بسهامى ترد إلى عنقى. كيف أعاد على كل سهامى بتلك الجملة الصغيرة؟ يا الله على هؤلاء العجائز الذين يفوزون بحكمة الحياة . أظن أن ما كان علىّ أن أسدد سهامى إليه.

هكذا بكل بساطة أقول ما كان على أن أسدد سهامى عليه ، يالك من أحمق يا"متّى" . تسقط من جملة ، كيف لا تمنحنى الاستطاعة حتى أتجنب تلك العثرات الكثيرة إننى جد حزين أيها الأب الإله فلم تسيرنى فى الظلام ، ولم تضع أمامى جرجس ذلك الذى أحس بأنه يرى قلبى تماما ! ؟

كان جرجس فى ذلك اليوم يبدو كالذى جففه الحزن على فراق أبيه ، واحترق قلبه ، فبدا أخف وزنا ، وأكثر عراكا مع الحياة داخليا. غدت عيناه أشد حدة ، رغم

أنهما لا تعملان على الإطلاق ، واتجاه وجهه أكثر تغلغلا فى الاتجاه الصحيح. كان يرهف السمع فى انتباه ، ويلوح كمن يتذكر شيئا طال نسيانه ، أو ينتظر فى يأس شيئا جديدا مجهولا. فبدا فى عيونى رجلا يعرف كل شىء عن نفسه ، وكذا ليس ما ينبغى أن يعرفه عن الآخرين.

حين وجدته جالسا على مقعد التكعيبة تحت فروع العنبة الرامية بظلها الممتد ، كان ناحل العود ، رمادى اللون ، ورغم ذلك يشبه كثيرا إلها من آلهة الإغريق الذين قرأت عنهم ، ولكنه كان كإله متعب ويحاول أن يتلهى بتقليد أصوات العصافير النائمة بين أوراق الخضرة الداكنة الكثيفة. كانت الأصوات تخرج من بين شفتيه ثقيلة ، وغير معبرة عن حالة التماهى التى يحياها فى تلك اللحظة مع تلك العصافير . كان يجهد نفسه حتى الجنون فى التغريد ، قلت له:

– هل تعلم أيها الشماس أن تلك العصافير تظل طيلة عمرها تردد أغنية واحدة لا غير فى الصباح والمساء؟

اتجه بوجهه إلىّ ، ثم خرج صوته المبحوح من أثر الإجهاد فى تقليد صوت العصافير.

أنا لست عصفورا أيها القس ، ويجب أن تعلم أنك حين تريد أن ترتكب معصية مع الرب ، فعليك أن تختار فتاة موفورة الصحة والجمال ، لا تذهب إلى فتاة فاسدة ، ثدياها أشبه ما يكونان بضرع جاموسة ترضع عجلين.ذلك لازم أيها الراهب .

كانت تلك الكلمات التى خرجت من فمه على شكل عظة ، ظللت أحتفظ بها فى قرارة نفسى حتى اليوم الأخير ، واعتبرت هذا اليوم هو يوم العلامتين ، ففى الصباح قال لى الراهب السواح ما قاله ، وعند الظهر قال جرجس خبرته أيضا ، وفى المساء حدث ما جعلنى أسمى هذا اليوم بهذا الاسم حين قابلت تريزة وقلت لها :

– مبروك على ذلك الحمل المزعوم ، فنظرت إلىّ وقالت :

– اسمع أيها الأب ، المرأة فى الجسد تخلص كثيرا . ولكن دموعها وأفكارها

كاذبة ولكنها حين تكذب لا تصدق نفسها. ولكن الرجل حين يكذب يصدق نفسه " أنا حامل أيها الأب العزيز ".

أتذكرون (باراباس) الذى تكلمت عنه في معرض حديثي عن ذلك القس " ذى الصليب ، إنه الشخص الذى صلب بالفعل ، لأنه حين أطلقوا سراحه نظر إليه المسيح حين ذلك ، ونفث روحه فيه حتى لا يموت أو حتى يستطيع المسيح أن ينتقم لنفسه من الشخص الذى اختاره الملك ليطلق سراحه بدلا من المسيح .ورغم أن المسيح قد نفث روحه في مدينة بعيدة بعد أن رحل (باراباس) فإننى أظن أن المسيح ذلك استعان بأحد الملائكة الذين يعملون تحت أمره ، وطلب منه أن يأتى بـ (باراباس) أمامه ، وعندما وقف ذلك الناجى أمامه بالضبط نفث روحه ، ولحظتها فقط تقمصته روح المسيح ، وربما لو عرف أنه مات ، وأن المسيح هو الذى عاش فى جسده وأن روح المسيح هذا التى تمكنت منه لا تريد به خيرا ، ربما لو علم ذلك لوقف على أعلى مكان فى صخرة الناجى بعد أن يربط نفسه بالصليب جيدا ، وقذف بذلك الجسد الذى يحمل روح المسيح من فوق تلك الصخرة . هكذا أحس الراهب"متّى" بهذا الإحساس الذى لو علمه (باراباس) لقتل نفسه ، حين قالت له "تريزة" إنها ستمنح ذلك الأعمى طفلا عما قريب ، وإنها لم تضحك عليه حين قالت له فى المساء .

– أنا حامل أيها الشماس الجميل .

ثم مضت في اتجاهها ، وعند الباب وقفت مرة أخرى وقالت :

– الأرض أرض الله والفيض منه أيها الراهب"متّى" .

خنقة الغيظ

- أنا لا أطيق مجرد التطلع إليه .

جاءت تلك الجملة لتريزة عندما قدمت لأخيها رياض طعام العشاء بعد أسبوعين من موت أبيها وإدمانه للخمر . وكانت عندما تنظر فى عيون أخيها تأتيها حالة من القرف والخوف عليه. وهكذا تأكدت تلك الجملة فى رأسها بعد مرور الأيام ، وداومت على النظر فى الأرض بعد ذلك ، حتى جاءت تلك اللحظة الفارقة التى وقفت فيها أمام القس"متّى" والتى حدثتكم عنها قبل ذلك ، وأرادت أن ترفض ، ولكن"متّى"لم يشعر بذلك ، وتركها ، ومضى. راحت تبكى لأبيها الذى فى السموات من أجل أن يمنحها طفلا فى أحشائها لكى تستطيع النظر فى عين ذلك الذى أعاد إليها تلك الجملة التى نسيتها على مر الأيام ." أنا لا أطيق مجرد التطلع إليه ، وظلت شهرا قمريا تبكى وجرجس يتساءل عن سبب تغير رنين صوتها ، وهى تقول له فقط مرهقة أو تعبانه حتى منحها الله علامة تأكدت لها أن يسوع يراها ، وعند ذلك قالت فى نفسها " متى هذا بمثابة الألم فى رقبتى ، ورغم أنى لا أطيق النظر إليه. فإننى سوف أواجهه " ، وتعمدت أن تقف أمامه بعد أن اختفت عن الظهور ، وعندما أراد أن يشكرها فأجابته بالنظر فى عيونه وإلقاء القنبلة التى استعدت كثيرا من أجل أن ترميها أمام عيونه بالتمام وتركته يمضى وهو يضرب كفا بكف ويقول باراباس .. باراباس .

ثم اختفت ، هكذا إذن ثلاث علامات فى يوم واحد ، ولم أكن حتى تلك اللحظة التى قالت فيها تريزه جملتها ، واختفت أدرك أنها علامات من قبل الرب ليعلمنى . ولكن فى المساء حين اختليت بشيطان رأسى ، وضحت لى تلك الصور والعلامات. نمت مستريح البال ، وأنا أقول جملة قرأتها فى تلك الكتب الصفراء . تلك الجملة التى تقول " حصلنا على الحياة بشرط لا غنى عنه؛ أن نناضل بقسوة فى سبيلها حتى آخر نفس

" ، كنت قد تعودت أن أضع خطا خفيفا بالقلم الرصاص على أية جملة أحبها فى أى كتاب ، و أروح أرددها مرات كثيرة ، حتى أحفظها . لا أعرف لماذا أتت تلك الجملة فى تلك اللحظة ، فأغمضت عينى .أنا أشكر الرب على العلامات التى لابد يضيعها جرجس وصموئيل والأب بشاى ذاته ، ولم ينتبهوا لها وإن انتبهوا لا يفكرون فيها فى المساء مثلى تماما .

حين خرجت من صلاة الصبح كانت الشمس ترمى نورها على حوش الدير ، والأب بشاى يمسك بيد جرجس وصموئيل جوار عين " مارية ". اتجهت إليهم مشيا فى اتجاه الشجرة التى زرعها الأب بشاى وسميت باسم جرجس أو " أبى مينا " الذى جاء إلى الحياة منذ شهرين . يوم أن أمر الأب"بشاى"بألا أتلقى الاعترافات من أحد ، بعد أن أفشيت سر أحد المعترفين لراهب من الرهبان. كنت قد رأيت وجه المعترف ، فجرى من أمامى واصطدم بجرجس حين هروبه ، وخفت أن يقول ذلك للأب. وشاءت الظروف أن يُسرق شىء من الدير ، فأشرت عليه ، ولكن لسوء الحظ لم يكن هو السارق وهنا اعتبرها الأب إفشاء لسر المعترفين ، فنهانى عن تلقى الاعترافات . وقف الأب و جرجس و صموئيل أمام الشجرة وقال لى :

– انظر يا"متّى" إن غرس جرجس ينمو سريعا.

ثم نظر إلى الأشجار الكثيرة الواقفة فى حوش الدير وقال :

– انظر يا الله الطيب إلى هذه الأرض ، وانظر إلى تلك الروعة التى صنعها الأب الصالح جرجس. أنت ألقيت بها حجرا كان يدور فى السماء وجعلها جرجس هكذا ، انظر إليها ، وليفرحن قلبك ، انظر كيف تشع اخضرارا تحت الشمس ، كنت فى الماضى انظر إليها ، وأقول لك : اعطنى يدا كيدك أو فلتأخذها من أمام عينى ، الآن هى أثيرة لدى حقا أيها الأب .

ابتسم جرجس الذى تغير كثيرا بعد أن منحه الرب " مينا". صار يعمل ، ويضحك ، ويتلقى اعترافات كثيرة من الأبناء الصغار. درّب الأطفال على أغانى الأم الحنون ،

ورسائل الرسل جميعا. أصبحت خزائن المؤن والطعام مملوءة على آخرها فى مدة شهرين .

كنت فى هذا الوقت أجلس مع الكتب أكثر مما أجلس بين الناس . أظهر فى الصلاة فقط. كنت أريد أنه أحفظ كل شيء عن حياة الرهبان وأخبار الرسل ، وقراءة القرآن ، كتاب المسلمين. كانت الأيام تمر ورأسى يكاد ينفجر من هذه الكلمات التى أضع تحتها خطا رفيعا. أرددها كثيرا. وفى صباح أحد الأيام ، وأنا خارج من المكتبة نادى علىّ الأب بشاى ، وكان يبدو مريضا ثم قال لى:

– اذهب إلى الغرفة الغربية وتلقى اعتراف تلك السيدة ، وإذا سألك الشماس عمن أمرك ، قل له الأب مريض ، وطلب منى أن آخذ ذلك الاعتراف. كان قد مضى على أكثر من أربع سنوات ، وأنا لا أتلقى أى اعتراف ، وكنت قد انتهيت تماما من أن الرب قد خذلنى فى عين أب ذلك الدير. ولن أفعل شيئا طالما هو جالس على رأس العمود. دخلت الحجرة فوجدت جرجس يقف جوار السيدة الجميلة ، ويتحدث معها. لم يلتفت إلىّ ، وهو يعمل تلك الحركات الضاحكة ، ولكن حين سمع صوتى انتابت عيونه تلك الحركة التى عرفتها على مر الأيام ، حين يفقد حالة التأقلم مع المحيطين به ، قال بصوت متهدج :

– هل أخطأت الحجرة أيها القس العزيز ؟

كنت أريد أن أصفعه على وجهه ، ولكنى أمسكت أعصابى جيدا وأنا أقول:

– هذه أوامر السيد الأب بشاى ، والآن هيا بنا إلى العمل.

حين ذلك قال لى إنه متعب بعض الشيء ، وإن إبراهيم الصغير سيكون معى ، ثم مضى إلى حجرة الأب.

هكذا اعتقدت. كانت تلك الأعوام هى أعوام الجدب بالنسبة لى ، ورغم أن جرجس كان خلالها يكاد أن يكون ميتا ، ولا أعرف لذلك سببا فإننى كنت أتمنى أن يموت أب ذلك الدير وليس هذا الأعمى .

طلبت من السيدة أن تأتى باعترافها ، فراحت تحكى عن أشياء بسيطة تشف بها مقدرتى ، فأغلقت أذنى دونها ثم قلت لها:

- عليك أن تعلمى أن الرب يعمل من أجلنا نحن - اللاهيين - بوقته الثمين ، فأرجو أن تعترفى بأخطائك ، وتحكى لى عنها ، حتى أستطيع أن أمنحك ردا يطمئن نفسك .

راحت تحكى عن حبيبها الذى تركها منذ ست سنوات ، وأنها علمت أنه يعيش هنا وأنها تريد أن تراه .

كادت المفاجأة تحطم قلبى. فلم أكن أريد أكثر من ذلك. كانت أوصاف حبيبها تنطبق على صموئيل. كنت أحدث نفسى ، وهى تمنحنى عدة علامات ، وعرفت منها كل شىء عن صموئيل. ناديت على إبراهيم مساعد الشماس الصغير. طلبت منه المبخرة. مضى سريعا ، ثم عاد يقول لى: إن الأب جرجس يقول إن المبخرة جوار قدم السيدة. أحرجها ، وراح يملؤها بالنار والبخور. استطعت أن أكبح جماح ماجدة تلك السيدة الصغيرة والتى لا يتعدى عمرها خمسة وعشرين عاما أو يزيد أو يقل ، حين ألحت فى رؤية صموئيل من بعيد. رفضت حسب تقاليد الدير ، كما زعمت لها. ودعتها بعد أن أخذت عنوانها فى القاهرة ، ووعدتها بزيارة وخطابات تطمئنها على صموئيل الذى تحول التقاليد دون مشاهدته . كنت أعدو ، وأنا عائد من عند باب الدير الخارجى. " هكذا تكون علامات الرب " قلتها بصوت سمعه إبراهيم الصغير فلم ينتبه إليها. دخلت إلى المكتبة ، ووضعت كل كتب المذهب الكاثوليكى التى كانت تملأ المكتب الذى أجلس عليه. وضعتها مكانها ، وأنا أضحك على تلك الحالة التى كنت عليها بالأمس فقط. "أستطيع فى المسيح كل شىء" *تلك الجملة التى غابت عنى ما* يقرب من أربعة أعوام . عادت ترن من جديد فى أذنى. كيف كدت أن أضيعها وتضيع منى . صغيرة هى العصافير ، ولكنها تبنى لنفسها أعشاشا . هكذا يجب أن أكون ، ذلك لازم يا"متّى". مضت أكثر من سنة ، حتى منحنى الرب علامة جديدة ، وكانت عبارة عن الذهاب إلى اجتماع مجلس الأديرة الذى وكّلنى بشاى بالذهاب عنه حين مرض.

كنت لأول مرة أجلس مع نيافة الأب" شنودة " ، وفى أقل من عامين جمعت أكثر مما خسرته فى أربعة أعوام أو خمسة . كنت حذرا جدا مع المعترفين كما كانت العلاقة دائما بينى وبين صموئيل الذى بدا فى الأعوام الخمسة الأخيرة شديد التوجس منى ، رغم أنى لم أفعل معه شيئا غير الاعتكاف الذى فرضته على نفسى. كانت الأحداث تمر دون أن أجد أى دليل منه على بلوغى آمالى ، ولكنى منذ جلست جوار آباء الأديرة فى حضور الأب "شنودة". أصبحت الآمال كثيرة والعلامات أكثر. حتى جاء ذلك اليوم حين كنت أصلى صلاة الصباح ، وكان موعد العظة التى ألقيها. وقف جوارى طفل صغير لم يتجاوز السادسة أو السابعة على أكثر تقدير ، وهو يمسك بيده صليبا مصنوعا من الخشب ، فنظرت إليه دون أن أعيره بعض الانتباه ، وابتدأت فى العظة ، وكانت حول موقف يهوذا الحوارى الثانى عشر ، الذى باع المسيح بعشرين قطعة من الفضة أنفقها كلها فى التراب ، حيث رماها حين أحس بخطئه ، وحين تقلت فى الأرض كانت عيون الصبى معلقة بعيونى ، فأمسكت من يديه الصليب الخشبى ، ورفعته . لم أكن اعلم حين ذلك أن الرب قد بعث هذا الطفل ، لأمسك من يديه الصليب ، وأرفعه عاليا ، دون أن أعرف أن تلك الفعلة من أسرار الكنيسة التى لا يعلمها إلا القليل ، فوجدت الأب بشاى يقف ، ويطلع السلالم الثلاثة ويأخذنى فى حضنه أمام كل الحاضرين وسألنى كيف علمت هذا؟ فلم أكن أعرف ماذا يريد بالضبط ، فقلت له ونفسى يكاد يتوقف :

– من عند الرب ، ولم أكن أعنى تماما ما هذا الذى من عند الرب ، وبعد أن مضى كل الرهبان والمصلين ، وقف الأب بشاى وأمر صموئيل أن يحضر خبزا ، ليقيم عليه صلاة تناول من أجلى ، ثم قال لى :

– هل تعلم أيها الراهب أن ذلك السر هو ضمن سبعة أسرار للكنيسة !

فلم أدر بنفسى إلا وأنا أمسك الغلام الصغير الذى كان ما يزال يقف فى انتظار الصليب الخشبى ، وقبلته ، وسألته عن اسمه ، فقال جرجس:

– هذا " مينا " ابنى أيها الأب .

وأنزلته وقلت لجرجس:

- بارك الله لك فيه أيها الشماس .

كيف كبر ذلك الطفل؟ومتى ؟ وكيف مضت تلك السنوات الطويلة منذ أوحيت لتريزة أن تقول لزوجها إنها حامل ، ومن قبلها قالت له تلك الجملة التى جعلته لا يستطيع صبرا ، وأخذها فى حضنه بعد ثلاثة أسابيع. كانت الأفكار فى رأسى تكاد تفور.وأنا أحسب الأيام التى ظللت فيها حبيس المكتبة. أنهيت كل هذه الأفكار بعد أن أعدت على نفسى بعض الجمل والأحداث خلال تلك المدة. وجدت أن الأيام لم تمر هباءً. وأن وجودى فى المكتبة كل هذه السنوات كانت علامة أخرى من تلك العلامات التى أعرفها بعد ضياعها.

استرحت كثيرا لذلك الناتج الذى وصلت إليه ، ولكن كيف أنسى ذلك الطفل الذى حين عُمّد بالماء لم يبك ، واستطاع أن يملك أفكارى أكثر من شهر ، كيف سقط منى ذلك. لابد أن أُعيد ترتيب أفكارى فى رأسى ، حتى لا تضيع منى الأشياء . كان الأب على حق حين قال لجرجس:

- اعتن بذلك الطفل ، فلقد أوصى به الإله هو والآخرين الذين لم يبكوا حين ولكن كيف يكون هذا الأعمى أبا ذلك الغلام الذى أوصى به الرب خيرا ، وكيف لتريزة تلك الدميمة أن تكون أما لذلك الغلام الجميل. لابد أن هناك شيئا يمت بصلة لصموئيل ، صاحب العيون الجميلة . كيف لم أكتشف ذلك . لابد أننى أعمى تماما ، لأنى لم أنتبه كثيرا للشبه بين ذلك الطفل و صموئيل . انتبهت على يد الأب ، وهى تقف أمام فمى لتناولنى جزءا من الذبيحة ، فتحت فمى ، فوضعها الأب ثم شد يديه بسرعة ، حين انتهى الأب مشينا جميعا. كان الغلام يمسك بيد صموئيل ، أمسكت بيديه وبصوت عال أخرجت ما رماه الشيطان بعقلى وفمى وقلت لـ " مينا " الصغير :

– أنت تشبه صموئيل كثيرا أيها الغلام . لابد أن أمك كانت تنظر له كثيرا .

وما إن قلت هذا حتى تغير لون وجوه المتحركين جوارى بداية من الأب وانتهاء بـ جرجس. وقف الأب بشاى ، ونظر إلى طويلا ثم قال :

– إن الشيطان رجيم أيها القس. فما أن تشرع فى عملٍ صالح إلا ويأتى ، ويضع أنفه فيه ؛ فيفسده. ثم قال صموئيل :

– كيف تقول ذلك على امرأة صالحة ، ورجل كلنا يعرف أنه جد طيب . ما أسوأ ما خرج من حنكك أيها الأخ الضال !

كانت دموع الله التى نزلت من عيون جرجس أقوى من تلك الكلمات التى خرجت من أفواه الآخرين. أمسك الأب به ، ومشينا فى الاتجاه الآخر. وقف جرجس ثم قال :

– عليك به يا الله . هو سبنى أمام كل هؤلاء ، وأنت تمنحه من خلال يد ذلك الطفل – الذى يشكك فيه – بعض أمجادك ، لتظلم نجوم عشائه ولا يفرح فى أيام السنة.

ثم اختفى صوته ، كادت الأرض أن تسقط من تحت أقدامى ، وأنا أحاول الوقوف. حين دخلت إلى قلايتى رحت ألعن الشيطان ، ذلك الأجرب الذى أضاع العلامات بهذه البساطة من ذيله النجس. فقط ضربة صغيرة من ذيله أضاعت ما اكتسبته فى عام . كيف حدث ذلك لا أعرف ! مر شهر قبل أن يطلبنى"بشاى". كنت خلاله أذهب إلى المكتبة لا أخرج منها حتى فى أوقات الصلاة ، ذهبت إليه. كان جالسا على مكتبه العريض ومن خلف نظارته أطل على حين دخلت ولكنه تركنى أضرب أخماسا فى أسداس نصف ساعة ، دون أن يطل على بنظره من وراء تلك النظارة ، ثم أمسك بالنظارة ووضعها على الأوراق التى أمامه ، ثم قال بصوت يملؤه الحقد :

– أيها القس لقد أخطأت ، وعليك أن تطهر نفسك الآن . وسكت. أردت أن أقول له كيف أيها الأب ؟ ولكن نظرات عيونه لم تمنح للسانى محاولة التحرك فى فمى.

– اذهب الآن إلى قلايتك ، وسوف تجد أن بعض الرهبان قد أعدّوا لك عصا مربوطًا فيها منديل موضوع فيه بعض الخبز الناشف. امسك بها ، واطلع إلى الجبل ، ولا تعد إلا حين تحس أنك كفرت عن أخطائك جميعا ، حتى ترجع إلى ذاتك. هل تفهمنى ؟

أومأت برأسي موافقا . كنت أعلم أن فى يديه أن يأمرنى بالذهاب خارج الدير ، ولا أعود إليه ، ولكنه يبدو أنه كان فى لحظات صفوه القليلة. أمسكت بالعصا– ورفعتها على كتفى ، وخرجت من الباب. كانت الشمس قبل منتصف السماء بقليل. كنت أعلم أن هناك بعض الرهبان الشباب فى الجبل يستعدون لرسمهم قساوسة. اخترت مكانا أعلى الجبل ، يبعد كثيرا عن هؤلاء الرهبان. أمسكت بالكتب الثلاثة التى حملتها معى ، ووضعتها على صخرة عالية ، ثم فتحت قربة الماء ، وشربت بعضا منها. ظللت أسبوعا أقرأ فى الكتاب الأول ، وأصلى إلى أبى"الذى لا أستطيع فيه شيئا" خلال تلك الأيام ، كنت خلال الأسبوع أذهب كل مساء إلى أحد الرهبان ، وأمنحه قربة الماء الفارغة ، ويعطينى أخرى مملوءة. لم آخذ كسرات الخبز من أحد خلال ذلك الأسبوع ، ورغم أن قطع الخبز الناشفة كانت قليلة ، ولا يمكن أن تكفى أكثر من ثلاثة أيام أو بالكاد أربعة فإن نفسى التى زهدت الطعام ، جعلت تلك الكسرات لمدة ثمانية أيام أو تسعة لا أعرف لأننى فى اليوم السابع كنت أقرأ فى بداية الكتاب الثانى حين أحسست بلسعة خفيفة فى قدمى ، فمددت يدى دون أن أنظر لأكحت مكان تلك اللسعة ، فوجدت تحت يدى شيئا أملس ، جعلنى أقف كالملسوع وأرى ذلك الثعبان الصغير يمر من تحت قدمى ، وأنا أرتفع فى الهواء ، وصوتى يقذف داخلى الرعب أكثر من شكل ذلك الثعبان الصغير. لم أحس بشىء إلا بعد يومين أو ثلاثة كان أحد الرهبان يجلس جوارى ، ويمسك بيديه منشفة صغيرة ، ويمسح القطرات الثقيلة التى تنزل على عينى فتجعل الرؤية مشوشة بعض الشىء مضى أسبوعان قبل أن أعود معافىً . كنت تعودت على شمس السماء ، وصقيع المساء . كنت أنتهى من الكتاب فى خمسة أيام ، وأعيده إلى أحد الرهبان ، وأطلب منه آخر. مضى على فى ذلك الجبل مدة ، ولم أكن أعلم أنها خمسة أشهر ، وتسعة وعشرون يومًا قبل أن أعيد إلى أحد الرهبان الجدد الكتب ، وأطلب منه آخر ، فقال لى :

– الأب بشاى يقول لك أما آن الأوان أن تُرسم بزيت النيرون .

لم أتمالك نفسي من الفرحة كان قد مضى عليّ فى الدير أكثر من عشرة أعوام أو أحد عشر عامًا ، ومازال ذلك الأب يتذكر تلك الجملة التى قلتها فى الاعتراف الأول . دخلت إلى الدير ، وأول ما فعلت أنى دخلت إلى حجرة الشماس الذى كان يجلس جوار الحائط وجواره "مينا" الصغير يمسك بأحد الكتب المدرسية ويقرأ فيه. وقف بمجرد أن سمع صوتى ، وتركت حذائى على باب الغرفة ، وجريت إليه ووضعته فى صدرى. كنت أريد أن يغفر لى. لا أعرف لماذا أجعله أو أتخيله حجر الزاوية فى ذلك الدير. كنت خلال الستة أشهر قد تصالحت كثيراً مع نفسى ، ودعوت أبى أن يمنحنى يديه الطاهرتين . وضعت رأسه بين يدى ، ورحت أسكب ماءً لا أعرف من أين أتى إلىّ بكل هذه الطاقة ، ونزلت على الطاقية التى لم يغيرها منذ أن دخلت الدير ، ورغم ذلك ، فهى تبدو كالمشغولة اليوم فقط جلست على المسطبة ، ثم أمسكت بـ"مينا" ووضعته على فخذى وأنا اقبل رأسه ، وأحاول أن أجعله صديقى ، وأطلب منه أن يعاملنى بحب ، وأن يطلب منى أى شىء يقف أمامه فى كتب الدين والمدرسة ، فرد على " مينا " قائلاً :

– السيد الأب صموئيل يشرح لى كل شىء .

فقلت له اجعلنى معه ، كانت الأيام التى نمتها تحت السماء ملتحفاً بحرام مقطع من كل اتجاه قد أخذت منى تمامًا. اهتم بى جرجس وصموئيل فى الغذاء فى الأيام الأولى ، حتى استطعت أن أعيد تلك الشحوم القليلة التى فقدتها ، وأصبحت علاقتى بـ"مينا" هى محور علاقتى بكل شىء داخل الدير ، حتى اعتقدت أن " مينا " هو علامتى الأخيرة التى لابد أن أحتفظ بها ، حتى أستطيع فى المسيح أى شىء . كان الطفل يكبر كل يوم فى عيونى. صرنا أصدقاء جداً كان يحكى لى عن المدرسة ، وما يصنعه هو وأصدقاؤه المسلمون الذين يحبونه كثيراً ، وهو أيضا يحبهم كثيراً. رحت أحدثه عن دينهم حين يطلب منى أن أشرح له شيئا سمعه أو رآه. بل فى أيام كثيرة كان يجلس معى نصف ساعة لأشرح له شيئا ثم يستأذن ، ليذهب إلى صموئيل ليشرح له شيئا آخر. أصبحت أحبه كابن لى . حتى فى لحظات التوتر التى أصابت

علاقتى مرة أخرى بصموئيل وجرجس ، كان هو خارج تلك الحالات . كنت أنتظره ، فيأتى ، رغم أنى أعلم أنه يعرف ما دار بينى وبين أبيه و صموئيل ، حين دخل المدرسة الثانوية كان عليه أن يقلل كثيرا من التواجد داخل الدير . كنت أذهب إلى الحديقة الخاصة بالدير ، وأقف جوار السور لأراه ، وهو عائد أو وهو ذاهب قبل صلاة الصباح. وفى صباح يوم وأنا أقفُ تحت شجرة جرجس التى نمت أكثر من جميع الأشجار ، وأصبحت كأم للشجر وجدته يأتى إلىّ. وضعته فى حضنى ، فسألنى عن سر الشجرة التى أقف تحتها ، كنت أعرف أنه يؤنبنى على ما أفعله مع أبيه ، فقلت له حكاية عن الأشجار ، تقول الأسطورة أنَّ شجرةً ما كان يعبدها الناس.مَرَّ بها حكيمٌ ذات يومٍ .سألها لماذا تُضلُّ الناس؟! قالت إنَّها خُلقتْ ، لتُعْبَد ، ولا تعرفُ لها عملاً آخر. مضى الحكيم فى طريقه ، حتى دخل إلى الصحراء ، فوجد راهبًا مؤمنًا متفرغًا للعبادة .حكى له الحكيم عما رآه أثناء بحثه فى الحياة .طلب الراهب المؤمن من الحكيم أنْ يُحدد له مكان الشجرة ، فحدده له. أمسك بالبلطة ، وذهب إلى حيث أشار الحكيمُ الذى نصحه أنْ يظلَّ يعبد الله ، وألا يُدخل نفسه فى تجربةٍ ، لكنَّه اتجهَ إليها .خَبَر شيطان الشجرة ما فى قلب المؤمن ، ولهذا أخرج امرأةً جميلةً ، لتقابله ، وحدث ما حدث بينهما ، وليس لذكره قيمةٌ ، لكن المؤمن صمم على قطعها مهما كلّفه الأمر .أخرجت له كل ما يُمكن إثنائه عن عزمه ، لكنه كان ذا عزم أكيد .غَلَب إيمان الرجل شيطان الشجرة ، فرفع بلطته ، وهمّ أن يقطعها ، فبكت له ، وهو واقف أمامها ، وهى عارية من أوراقها ومن شيطانها الذى ضلّت كلُّ تدابيره وحيله وألاعيبه.قالت الشجرة ، وقال المؤمن أشياء كثيرة خلاصتها أن الشجرة الناقمة على شيطانها الذى تخلّى عنها ، تعهدت للمؤمن ألا تترك إنسانًا يعبدها بعد الآن ، وأنها فقط تريد العيش دون أوراقٍ أو أى شىء ، ولسوف تمنحه كلَّ يومٍ طعامه وثلاثة دنانير يجدهم تحت الصخرة التى ينام عليها .عاد المؤمن يعبدُ اللهَ أكثر ، ولكن بلا عملٍ من يديه. لقد كَفَلته شجرة الشيطان. مضت الأيام ، وعلم أنَّها عاودت سيرتها الأولى ، فأمسك بالبلطة ، ورفعها بقوة إيمانه ، لكنَّ يده ضعيفةً. وقف أمام الشجرة التى أثمرت وأينعت وكَثُرَ المؤمنون بها .رفع يده بالبلطة ، وضربها أمام أهل القرية عدة ضرباتٍ ، لم تُسمن عن

شيءٍ فى لحائها السميك. كلّت يده من الضربات القليلة ، فقالت له الشجرة : لن تستطيع أنْ تقطعنى ، لأنَّك لم تعدْ تعمل شيئًا بيدك. تواكلت عليّ ولن تستطيع أبدًا أنْ تقطعنى بإيمانك فقط . عاد المؤمنُ حزينًا ، وأصبحت الشجرة أكثرَ قوةً ، وازداد عدد المؤمنين بها . ما أن انتهيت من قصتى حتى نظر فى عينى وتركنى ومضى دون أن يعلق بشئ. كان الأب بشاى قد أوصى فى العيد الأخير أن يتم رسم صموئيل كراهب أكبر داخل الدير ، وأن يكون نائبا له فى العيد القادم . ولم يتبقَ على ذلك إلا شهر. كانت الأفكار تتناطح فى رأسى كل يوم ولا أفعل شيئا والأيام تمر ، وأنا أجد صموئيل قد بدأ فى ارتداء الثوب الأبيض حسب التقاليد ، وفى مساء أحد الأيام قبل العيد بعشرة أيام كنت أعيد ترتيب الأفكار فى رأسى حين عثرت على ماجدة فى أحد الأركان الغائبة من ذاكرتى (زمن التحولات).

رحت أبحث عن عنوانها فى الأوراق الكثيرة حتى عثرت عليها، كانت الساعات الباقية على الصباح تمشى فى بطء ، حين أطلت الشمس قليلا من السماء. وقفت أمام قلاية الأب بشاى ، وخبطت عليها . جاء الصوت من بعيد يعلن الوقت مازال مبكرا وأن أمامه نصف ساعة أو يزيد ، ثم أنهى كلامه إليّ على أنى جرجس فقلت له :

– أنا "متّى" أيها الأب. فقال :

– انتظر ، وسوف أخرج لك .

انفتح الباب ، وظهر ورأسه عاريا .كان الشعر الباقى فوق رأسه مجعدا ، ولم تعد هناك فى ذلك الجزء الصغير شعرة واحدة سمراء. وعيونه منتفخة. لم أره على تلك الحالة فى يوم من الأيام. لابد أن الأب يستعمل بعض الدهانات ، ليبدو فى عيوننا صغيرا أكثر من ذلك بعشرين عاما على الأقل. وقف أمامى وهو يرتدى الصديرى والسروال الأبيض وتحت الصديرى يظهر قميص آخر يبدو أنه من خيش النخيل. قلت له إننى أريد الذهاب إلى بلدى فى زيارة للأسرة التى لم أعرف عنها شيئا منذ دخلت الدير ، وأن العيد لم يبق عليه إلا عشرة أيام ، ولابد أن أذهب وأعود قبل العيد لانشغالنا فى أيامه بأشياء كثيرة.

وافق الأب ، وطلب منى أن أسلّم على جميع الأهل. وعدته أن أعود فى الغد على أكثر تقدير. سلّم علىّ ، فتحركت قليلا ثم سمعت صوته ينادى على ، فرجعت تلك الخطوات القليلة التى تحركتها فى اتجاه الباب فقال لى :

– هل ذلك لازم أيها الأب ؟

– أى شىء لازم أيها الأب؟!

– ما أنت ذاهب إليه .

انتفض قلبى ، وكدت أقول ليس لازما ، وأعود إلى قلايتى ، ولكنى جمعت كل قواى التى تنهار أمام ذلك الأب وقلت :

– يبدو لى ذلك أيها الأب

– اذهب ، وليفعل الله ما يريد ، فلن أستطيع شيئا إذا كان الرب يريده. اذهب ولكن ادفس ذلك الشيطان فى حجرك ولا تجعله يرمى بك إلى النار ، فأنت صالح فى بعض الأوقات ، ولا تعرف كم هو قاتل ذلك الكرسى !

انسحبت من أمامه ، وقدماى تتعثر كنت أعرف أن ذلك الأب يقول الحق ، ورغم ذلك مضيت إلى حيث ماجدة ، التى تستطيع أن تعيد حلمى الذى سأفقده بعد عشرة أيام . كان الطريق طويلا عكس الرحلة الأولى. كيف مضى بى القطار فى الرحلة الأولى وأى الأحلام كانت؟ وماذا تغير فى عن تلك الرحلة؟! كان القطار يمضى وتلك الأسئلة تمضى فى رأسى عابرة كل السنوات العشرين أو الواحدة والعشرين التى قضيتها فى الدير . كل شىء تغير . هكذا حدثت نفسى وأنا أضع يدى الباردة فى جيب الجلباب ، القطارات تغيرت ، والوجوه تغيرت ، كل شىء تغير. كان بين الحين والحين يأتى أحد المسافرين ويسلم على ويقبل يدى. كنت أرد بحميمية مصطنعة دون أن يعلق من وجه ذلك الماسك بيدى ولو مجرد لون شعره . حين وقفت أمام البيت انتابنى يأس كبير؛ ماذا لو دخلت على ماجدة ووجدتها قد تزوجت ؟ لماذا لم أفكر فى ذلك . رحت أنفض الأفكار السوداء عن رأسى الذى كاد ينفجر من صوت

عقلى.ضميرى يؤنبنى ويرمينى بأحط الشتائم . أخيرا أمسكت برأسى ودخلت إلى البيت ، خبطت على الدور الأول فلم يرد أحد . كادت البقية الباقية من روحى تنسحب منى ، ولكنى عزمت أن أطلع إلى الدور الثانى ، وضربت الجرس ، بعد قليل خرجت سيدة جميلة تضع على وجهها مساحيق عديدة الألوان ، قلت لها:

– الأخت ماجدة موجودة ؟.

أومأت برأسها ..

– أريدها .

– من أنت ؟

– قولى لها الأب"متَّى" من دير الأنبا صموئيل بأسيوط .

أدخلتنى إلى حجرة الجلوس. جلست على كرسى فوتيه أمام ترابيزة صغيرة ، ثم أغلقت الباب وراءها ، وذهبت. رحت أنظر فى الحوائط . كانت خلفى.صورة لعروسين . وقفت مفزوعا ، وأنا أمسك قلبى بيدى . كانت العروس هى تلك التى أدخلتنى ، والرجل الواقف بجوارها وجهه منير بعض الشىء ، ورأسه فارغة من الشعر ، ضحكت وأنا أدقق فى وجه ذلك الزوج ، وأقول فى نفسى كيف ارتضت تلك الجميلة بذلك الخالى الرأس من الشعر . لابد أن الرجل يمتلك قلبا جيد أو خالى من الحقد تماما وإلا ما استطاع أن يمتلك تلك الرائعة لولا مساعدة الرب الإله له. ، دخلت ماجدة بسرعة. كانت ما زالت تربط الإيشارب ، سلمت على بود أعاد بعض التوازن إلى قلبى. سألتنى عن "عادل" . فقلت لها :

– اسمه "صموئيل" ألا تتذكرين ؟

– كيف حاله ؟

– أمازلت تحبينه ؟

– ليس لى غيره .

– ألم تتزوجى ؟

– لن أتزوج غيره. وليكن شاهدا على العقد الرب هناك .

وأشارت إلى السماء .

– ولماذا السماء! ولم لا يكون على الأرض؟!

ضحكت كثيرا وسألتنى عن صموئيل ، حين ذلك دخلت تلك السيدة التى أدخلتنى وجلست . كنت على وشك أن أحكى لها ، ولكنها قالت لأختها :

– ألا يجب أن تحضرى لضيفنا كوبا أو فنجانا من القهوة !

فقامت ، وهى متضررة من تلك الأخت ثم قالت لى:

آسفة أيها الأب. هذه منال أختى متزوجة منذ أربع سنوات وهى الصغيرة والتى لم يعد لى غيرها.

رحت أحكى لها عن صموئيل وأنه لابد أن يعرف أنها ما زالت تحبه ، وأنها لم تخنه لأنه مريض هذه الأيام. دخلت منال ، وهى ممسكة بصينية عليها فنجان قهوة فقط . فقالت لها ماجدة :

– لماذا لم تأتى بماء أيتها الأخت ؟!

فخرجت وعادت مسرعة بعد أن وضعت زجاجة وكوبا فارغا ، على الترابيزة بحركة همجية ، فقالت ماجدة :

– هذه منال أختى تزوجت منذ أربع سنوات كما قلت لك ، ولكنها لم تأت لنا بطفل حتى الآن ، فادعُ لها الرب أن يمنحها طفلا .

فوقفت ، ورحت أتلو صلاة على رأسها ، ولكنها انتفضت واقفة ، وهى تقول:

– لن يستطيع ذلك اليسوع أن يسمع منك لأن أذنيه قد صدئتا تماما عن صوتك الملىء بالمياه الآسنة .

وقفت أفكر فى كلامها دقيقة أو يزيد ، من أخبرها عنك أيها المسكين؟! ، يبدو أن العلامات السيئة قد عادت إليك. كان يجب عليك أن تفهم ذلك منذ الصباح الباكر. حين قال ذلك الأب ما قاله. أمسكت بتلك الأفكار ، وخلعت الصليب الخشبى ووضعته على رأس تلك السيدة القذرة . فسكنت ماجدة التى كانت تعتذر لى عن تلك الكلمات التى خرجت من فم تلك العاهرة. التى كانت قد جلست فوقفت مرة أخرى وهى ترفع يديها وتشير إلى وتقول:

– لم أقصد إهانتك أيها الأب ، لم أهرب من حظيرة الرب كما تزعم أنت وهؤلاء القساوسة الذين يصلحون لأى شىء غير أن يتلوا كلام الرب دوننا نحن أولاد يوسف النجار ، ولكنى فقط أقول لك ولها ، وأشارت على ماجدة. موريس زوجى التى تحسدنى النساء عليه كما قالت لك الأخت العزيزة ماجدة ، نعم إنه يصلى فى الكنيسة دائما. لكن مالا تعلمه أو تتناساه أختى الطيبة ماجدة ليس له فى النساء ، لا يملك عضوا جيدا أيها الأب . ثم خرجت إلى . وقفت ماجدة لا تدرى ماذا تصنع ، أمسكت بزجاجة الماء الموضوعة على الترابيزة ، ووضعت بعضا منها على المنديل ومشيت به على وجهى ، فأحسست أن النار فى رأسى. خلعت تلك الطاقية ومشيت بالمنديل على رأسى . كانت ماجدة ما زالت تقف وأنا أنظر إلى تلك الزهرية المملوءة بالورود الصناعية الموضوعة برقة التى وضح أن أحشاءها لم تخربها يد طفل فقلت لها :

– اذهبى إلى أختك ، واسألى الله أن يضع يديه على يدك لتشيلى عنها أحزانها .

انسحبت فى توتر وتركتنى بعض الوقت كنت قد حدثتها عن ضرورة سفرها معى لزيارة صموئيل لمرضه. قالت إنها سوف تذهب معى اليوم . مر الوقت ثقيلا وأنا أعيد كلمات تلك الفاجرة التى تتمنى عضوا جيدا . دخلت ماجدة واعتذرت عن عدم قدرتها على السفر اليوم ، ووعدتنى أن تسافر معى غدا فى الصباح. قلت لها القطار موعده السابعة والثلث فقالت إنها سوف تكون هناك من السادسة والنصف. خرجت من عندها وذهبت إلى كنيسة العباسية.

كنت قد حضرت إلى ذلك الدير مرتين قبل اليوم؛ المرة الأولى حين ختمت طلب قبولى بالدير . والمرة الثانية حين حضرت بالعربة المكيفة لأحضر اجتماع أساقفة الأديرة . كنت قد عرفت بعض القساوسة ، سألت عنهم ، ودخلت على أحدهم الذى قابلنى بمودة وحب. تركته ودخلت إلى حجرة الاعتراف وحدى. ثم رحت أحكى لأبى الذى فى السموات عن كل ما أصنعه ولأى شىء . كنت أحب أن يكون ذلك الدير هو منارة العلم لأى مسيحى حقيقى لا ملجأ للضعفاء كما جعله ذلك الأب المتكاسل عن العمل من أجل رفع قيمة أخرى للدير ، الذى يظل بالشهور معتكفا فى قلايته. وشرحت له كل شىء وكل خططى من أجل ذلك الدير. لم أكن أريد ردا منه ، ولكنى فقط طلبت منه أن يوفقنى إن كان يرضى عنى ، ثم دخلت حجرة القساوسة واخترت سريرا .أرحت جسدى عليه. كان المساء طويلا. كان وجه ماجدة يتشكل أمامى خلال خمس عشرة سنة ، ذلك الوجه الذى لم يصبه الزمن إلا ببعض مسوح من الكآبة والألم ، وكيف ظلت كل هذه السنوات تحتفظ لرجل واحد بكل هذا الحب رغم أنها لم تتعرف عليه أكثر من سنة ونصف. فكيف لسنة أو سنتين أن يأخذا منها اثنين وعشرين عاما أو يزيد؟! وكيف تحمل هذه الشهور كل هذه السنوات؟! لم أنتظر صلاة الصباح ، خرجت متسحبا على قدمى ، ولبست الحذاء خارج الكنيسة ، عندما رأيت ماجدة جالسة ، وتلك العيون تحدق فيها ، لا أعرف لماذا أحسست أننى أتمنى أن أكون أنا صموئيل أو أن تكون هى"أم كلثوم". دنوت منها ووضعت يدى عليها لأسلم ، فخرج من ذلك الفم الصغير صوت كاد أن يعيد راكبى قطار الإسكندرية إلى المحطة مرة أخرى ، أكثر من مائتين من العيون تحدق فىّ. أكرهكم جميعا أيتها العيون القذرة ، وقفت تعتذر ، وأنا أكاد أقع من تلك العيون على الأرض. أفسحت لى مكانا ، فجلست. رحت أحكى لها عن كل العيون المتلصصة ، ومضى الوقت كأنه عام. فُتح باب القطار. حين دخلت من الباب لا أعرف لماذا كنت متوترا هكذا. أجلست ماجدة ، وجلست ، وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف ماذا سأقول لها ، حين تداهمنى بالسؤال الذى فكرت فيه كثيرا ، ولم أصل إلى رد مناسب. فاجأتنى ماجدة بالسؤال ، فقلت لها: إن الأب بشاى هو الذى بعثنى من أجل راحة صموئيل النفسية لأنه غير مستريح ، وأن الحب الذى

يحمله لابد أنك تحملينه ، ولا تؤاخذينى إن كنت حكيت عن اعترافك للأب بشاى. أغمضت عيونها فأحسست أننى تورطت أكثر من اللازم ويجب أن أعترف لها بالحقيقة وإن كنت أريد من أبى المساعدة ، فانتظرت أقرب فرصة تفتح فيها عيونها ، وسوف أقول لها كل شيء دون خوف. يجب أن أكون أبا صالحا خيرا من نيافة أب فاسد. على الأقل يجب أن تعلم جزءا من الحقيقة لا الحقيقة كاملة.

حين فتحت عيونها كان قد مر أكثر من أربع ساعات. اعتذرت عن نومها المزعوم ، فقلت لها لا شيء ، ثم رحت أحكى لها كل شيء. لم أخفِ عنها أى شيء. تكلمت كثيرا عن الحب فى الكنيسة ، وكيف يكون. أحسست من كلامها أنها تؤنبنى. رحت أرد عليها ، وأفند لها كل سهامها التى ترشقها فى صدرى. قلت لها عن أملى فى ذلك الدير ، وكيف سيكون حين أجلس على الكرسى. أقسمت لها أننى لو أملك واحدة مثلها ، وتنتظرنى ما تأخرت لحظة واحدة عنها ، ثم قلت لها : إن فشلت فسوف أقف مع صموئيل وأكون عونا له فى مسئولية الإدارة. ثم اتفقنا فى النهاية على كيفية دخولها الدير كما حددت لها .

تركتنى بجوار المحطة. حين دخلت الدير كانت الشمس فى منتصف السماء. رحت أنظر بين الحين والحين على باب الدير. كانت الوساوس قد بدأت تنخر فى عظامى ، ربما تكون قد عادت من حيث أتت ، وأننى فشلت تماما وعلىّ أن أعترف. كان إبراهيم مساعد الشماس ينظر إلىّ ، فأحاول الالتفات بعيدا عنه. حين رأيتها تدخل أمسكت روحى الزائغة عنى من يد عزرائيل الذى كان على وشك الإمساك بها. مضى أكثر من ساعة ، وأنا أمر فى الممر الضيق ، وأحاول التنصت دون أن يرانى إبراهيم أوجرجس. حين وجدت صموئيل يمسك يد ماجدة خارجا من الحجرة. دخلت إلى حجرة الأب الذى لم يكن موجودا بها ، لمحت ظلهم من الشباك وهما يقفان جوار إبراهيم. رفعت يدى ، ورسمت علامة الصليب. دخلت قلايتى ولم أخرج منها إلا فى صباح اليوم الثانى. كان المصلون يدخلون إلى الكنيسة واحدا. واحدا ، حين وقفت بجوار الرهبان لمحت يد الأب تشير إلىّ ، فتحركت قدماى فى اتجاهه عابرة ظلالا لرءوس كثيرة . بعد أن انتهت اللحظة قال لى بشاى:

– كيف حال الذين ذهبت إليهم ؟

– بخير .

– أتمنى أن يريحك الرب ، ويريحنى أيضا أيها الأب "متّى" المسكين. المسكين لا شك ثم نزلت دموع كثيرة على ذقنه متغلغلة الشعيرات الكثيفة لتسقط فوق صدره . ثم أمسك بيد جرجس ومضيا . تركنى أفسر ما لا يُفسر ، كيف عرف ذلك الأب ؟ ومن أخبره بك أيها الأب الجديد ؟ هل تراه إبراهيم ؟

خرجت إلى الحوش كان إبراهيم يمسك بعود من عناقيد النخل وينظف الحوش من الأوراق. ناديت عليه فدنا منى على استحياء وقلت له :

– ماذا حدث بينك وبين الأب "صموئيل" ؟

ارتعش صوته ، وهو يقول :

– أعطانى خطابا للأب بشاى و جرجس ولكن الخطابين ضاعا منى ولا أعرف أين.

ابتسمت وأنا أقول له :

– لا تخجل من نفسك فأنت ولد صالح وغدا تكون شماسا عظيما ، فقط اتبعنى أهيئ لك ذلك . أمسك إبراهيم بيدى وقبلها بنهم .

– هل حكيت عن الخطابين للأب ؟

– لم أستطع ، كل ما قلته له: إن الأب صموئيل قد ذهب مع المرأة التى دخل من أجلها الدير ، وأنه لم يستطع أن يقول له ذلك أمام عيونه .

– ماذا صنع الأب حين قلت له ذلك ؟

– لم يقل شيئا . كل ما هنالك أنه بكى فقط أيها الأب ، بكى حتى احمرت عيناه ، ثم دخل قلايته ، ولم يتناول شيئا. حتى الصلاة لم يخرج إليها .

طبطبت على رأسه ، وغيرت اتجاهى. و مشيت .جاء صوته من بعيد يسألنى بخبث :

– هل تعلم أيها الأب أين أجد الخطابين ؟

التفت إليه. كانت عيونه باسمة ، فضحكت ومشيت. حين طلبنى الأب"بشاى" ، ارتديت الجلباب الأبيض ، وذهبت إليه فى كامل حليتى. كان يبدو كالخارج من القبر بوجهه الشاحب ، وعيونه الغائرة .

جلست أمامه وأنا أكاد أموت من أجله ، كيف فعل به غياب صموئيل . خرج صوته الوهن وهو يعلن لى أنه قد بعث بخطاب إلى المجلس الملى يعلن فيه تقاعده عن الخدمة واعتكافه وأنه قد رشحنى للقيام بتلك المهمة من الآن ريثما يتخذون قرار بالموافقة عليك أو انتداب أحد الآباء ليقوم بذلك العمل ، فقلت له :

– أمامك كثير من العمل ، وإذا كان غياب صموئيل قد فعل ذلك فلتمنحنى تلك الفرصة حتى أستطيع أن أسد العجز أيها الأب الجليل .

أومأ برأسه ، ثم نظر إلى السقف وقال :

– عليك الآن أن تقوم بوظائفك أيها الأب . فإذا كان ذلك هو عمل الرب فلتصنع خيراً

ثم وقف وسلم علىّ. كانت عروق يديه تنتفض انتفاضات المهزوم. شددت عليها علنىٍّ أستطيع أن أمنحه بعض القوة ، ولكنه سحبها سريعا دون أن يترك لى فرصة تقبيلها . عند الباب قال :

– العيد على الأبواب أيها الأب . فاعمل بكد من أجل أبينا الذى فى السموات .

من بعيد لمحت " مينا " الذى لم أره منذ أسبوع أو أكثر ، ناديت عليه ، فجاء متكاسلا ، سلم على ببرود ، وسألنى عن صحتى. طمأنته علىّ ، ثم قلت له :

– أين كنت أيها الطالب الراهب ؟

تحجج بدراسته ومسئولية الدخول إلى الجامعة. سألته عن ذلك الجرح الذى فى القلب وهل اندمل ، فقال إنه ما زال يراها فى الحلم تبكى ، ولا يعرف ماذا يصنع لها؟! طلبت منه الذهاب معى إلى المكتبة. مشى جوارى فى هدوء حتى دخلنا حجرة المكتبة.

وجدنا أحد الرهبان يقوم بتنظيفها ، ويرفع الأتربة عن الكتب . طلبت منه أن يذهب إلى إبراهيم ، ويأمره بصنع كوبين من الشاى المليء بالنعناع الأخضر. انسحب ، وأغلق وراءه الباب. كانت عيون " مينا " مليئة بالأسئلة والتوجس . حاولت أن أبدو عاديا ، ولكن إصرار عيونه ، أضاع تلك المزاعم .

كنت أمام ذلك الولد أفقد كل أحلامي ، وبعض الكهنوت الذى أحتفظ به للشيطان ذاته الذى لا يقتضى منى أكثر من إشعال البخور ، وحين يشم تلك الرائحة يدوخ ، وينزل على الأرض ، فأمارس عليه بعض الألاعيب الصبيانية. أما ذلك الولد ، فإنىَ أقف أمامه عاجزا عما أفعله بالشيطان. منذ أن أعطانى الصليب الخشبى منذ اثنى عشر عاما ، أرتعش بمجرد أن يرمى عيونه ، ليصطاد بها عيونى.

– أين الأب صموئيل أيها الأب"متّى" ؟

خرج السؤال من فم "مينا" معبأ بعلامات كثيرة للاستفهام ، ليس أين فى الزمان أو فى المكان ، ولكن أين فى كل المعانى. قلت له هوحيث يريد.وقبل أن يبدأ فى السؤال قلت له سوف أحكى لك حكاية الدير والداخلين فيه والخارجين منه والشروط الثلاثة التى ينبغى أن تكون فى الراهب الحقيقى أو الراهبة ، ولكن قبل ذلك هل تعرف الشروط الثلاثة.

أومأ براسه دون أن يتكلم ، مما جعلنى أقول :

– اسمع ياسيدى هى ثلاثة شروط :

أولها الفقرُ ، ثم الامتثالُ و أخيرا !العفّةُ ! تقول الأسطورة أنّ امرأةً جميلةً اسمها " ليل " مات زوجها يونان سيد القرية. لم تكن قد وضعت طفلتها. كان موعد وفاة السيد قبل أن تولد الصغيرةَ بأربعة عشر يوماً . مضت السنون .تزوجت المرأة" ليل" بأكثر العالقين بذيلها. جعل خده مداساً لها هذا الرجل .كان اسمه فلحاس.لم تكنْ تعرف الوجه الآخر له. كان فلحاس يُحبُّ امرأةً اسمها "ريمة " علّمتْه فنون الهوى كما ينبغى. ومن أجلِ ذلك لم يُحبّ غيرها. الأيام تمُرّ و خدود " ليل " تزداد اصفراراً .الطبيب يروح ، ويجئ مئات المرات ، ولم تُعْرَفْ العلة.

كانت الصغيرة قمر ابنة "ليل" والسيد الراحل يونان تَكْبُر.يظهر التوت الأحمر فوق شفتيها ، كما يظهر التفاح فوق صدرِها ، والأم تزداد اصفرارًا . لم يكنْ أحدٌ يعلم أنَّ الزوج فلحاس المتفانى فى حُبِّ زوجته كما يظهر لعيون المحيطين بهم هو الذى يضع لها السمَّ الزعاف بمقدار يميتها واحدة واحدة وعلى مهلٍ . كانت نساء القرية يَحْسُدن " ليل "على ذلك الزوج. حين تتعثر قدم الحصان وهو فى طريقه إلى الطبيب يحملها بين يديه ، ويجرى بها فى الحقول. كما كان الرجال ينظرون إليه ويقولون لبعضهم البعض : صحيح ! الحُبُّ بهدلة !

عندما أكملتْ الصغيرة الحاديةَ عشرة كانت " ليل " على فراش الموت. جميع خدامها والعاملون لديها يرون الموت يقف على رأسها ، ويرون مدى تأثر السيد فلحاس ، حتى كاد أن يُجنّ لموتها الذى يزحف إلى روحها ببطءٍ وقسوةٍ . يا له من ممثلٍ عظيمٍ والله ! ماتت المرأة " ليل" وأتى السيد الجديد بعد أسبوعٍ بالمرأة الدميمة " ريمة ".ها هو يرفعها بيديه ، ويضعها فوق سرير ومكان السيدة فى القصر. إنَّ كل أهالى القرية المنكوبة فى سيدتهم ، التى كانت تعطف عليهم جميعًا ، تأكّد لهم سوء اختيارِها فى فلحاس .هناك حكاياتٌ كثيرةٌ ترددها الألسنةُ عن حقارته ، وقسوة قلبِه .قال ظريف القرية جملةً مشهورةً تلوكها الألسنة :" فلحاس طرْمَخ على مال قمر بنت يونان وداس ولم يترْك لها فى قاع الجبِّ غير المداس".كما قال حكيم القرية " شيطانٌ ماهرٌ وسوس فى قلب " ليل "الجميل ، كما فعل منذ زمنٍ بعيدٍ مع أمنا حواء " . قال جملته بعد أنْ أمسك بيديه قمر ابنة سيدهم يونان وسيدتهم ليل ، وهى باكيةٌ أمام قصر أبويها الكبير ، الذى حُرّم عليها و ألحقها بالدير . لقد أدخلها السيد الجديد فلحاس إلى خدمة السيد الدائم.

هكذا علق الحكيم ذاته قبل أنْ تطأ قدماه باب الدير ، ليلحق بالضوء الباقى ، الذى يُنير الطريق .

ما أنار الطريق لخير سالكيه مثلما أنار الله. هكذا همستْ شفتا قمر أمام صورة العذراء. وهكذا مضتْ الحكايةُ. من رحمةٍ تتملك قلب الصغيرة ، إلى قسوةٍ تتملك قلب

السيد فلحاس وزوجته الدميمة ريمة ، من ساعاتٍ طويلةٍ تَظَلُّ فيها قمر واقفةً بين يدى المخلص إلى وقوفٍ متكررٍ فى وجه المخلص وأعوانه ، من حُبٍّ ينبت للمخلص فى قلب الفتاة التى أينعت ، إلى كرهٍ يظهر فى قلوب رعايا السيد الجديد ، من نورٍ ودموعٍ فى عينى العذراء إلى جشعٍ وجبروتٍ فى يد فلحاس .كان للسيد القديم يونان ابنًا من سيدةٍ فقيرةٍ تُوفيت إثر مرضٍ ما ، قبل زواجه من قرة عين أبيها " ليل " التى ورثتْ عنه كلَّ شيءٍ . هذا الأخُ غيرُ الشقيقِ كان مريضًا وشُفى .

يقول الناس إنَّ اسم هذا الشقيقِ هو مينا . عرف كلَّ شيءٍ عن حكاية ميراث أخَته وميراثه أيضًا.

وبمعاونة أهل القرية أمكن لشبيه يوسف النجار مينا أن يلتقى بأخته قمر فى الدير. كان لقاء تدمع له العين كلما تذكّره من حضره من أهل القرية . بكثيرٍ من اتحاد الأيادى ، وبكثيرٍ من الحيل والألعاب ، والعملِ لكل المخلصين الذين ساعدوا مينا وأخته قمر أمكن اليتيمين الحصول على ميراث الأجداد. وتُختم الحكاية بأنَّ الحقَّ ظهر ، ودخل الشرير وزوجته الدميمة إلى سجن العزيز.عادت قمرُ مع مينا إلى القصرِ تاركةً الدير حيث الفقر والامتثال ، كما أنها حافظتْ على عفّتها لشابٍ أحبَّته كثيرًا .وهكذا ترى يامينا أنَّ الفقر والامتثال والعفَّة شروطٌ مجحفةٌ للإقامة بجوار الرب فى الدير. إن بعضنا منا يقول يا لها من شروطٍ مجحفةٍ للإقامة بجوار الرب فى الدير!والآخر يقول يا لها من أمنيةٍ عزيزةٍ على قلوب الواهبات أنفسهن للخدمة فى محراب السيد!يا لها من مكافأةٍ كبيرةٍ تلك التى سيمنحها الرب لى!جنةٌ عرضُها فراسخ كبيرة ، بها ريش نعامٍ وماء سلسبيل وأطفالٌ تُشبه الملائكة مع يوسف الصديق زوجى .ماذا هناك أيضًا أيها السيد؟!لا.حقا .لا.لا أستطيع العيش فى كل ذلك الجمال . ماذا قلت يا سيدى؟!الجنة مليئة بأسنان الأسماك؟!كمْ أنت جميل ياربِ!ولكننى يارب لا أعرف ما هى أسنان الأسماك تلك !أعتقد أننى لن أستسيغ جنةً مليئةً بأسنان الأسماك التى لا أعرف كنهها!

هل تعلم أن بعض الناس يقولونَ للرب فى عينه : اعطنى الآن سروالاً لائقًا ، وشربة ماءٍ ، وقطعة جبنٍ وأرغفة ، تستطيع أنْ تملأ بطون عيالى ، وبيتًا وقطعة أرضٍ

أقف تحت شمسك الحارقة ، أبذر فيها غلّتك ، وحماراً أحمل عليه زوجتى العليلة لمدينة الطبٍّ ، وقبراً تزورنى فيه عائلتى واستبق لكَ هذه الجنة. استبق لكَ أسنان الأسماك التى تُعجبك كثيراً لا ريب .

ولتعلم يا صديقى إن الراهب صموائيل عند زوجته. وقف وهو يرفع سبابة يده فى وجهى ، ويأمرنى أن أقول الحقيقة . هدأته ، وحكيت له كل شىء عن "صموئيل" و "ماجدة". كان يستمع إلىّ ، وهو بين المتشكك والقانع بتلك الإجابات التى ترد على أسئلته التى تعمل فى رأسه . استكان تماما كالمنوم أو المشوش الذهن. كان الشاى الذى وضعه "إبراهيم" على المكتب قد برد تماما ، فأمسكت بأحد الأكواب ، وأعطيته لـ"مينا" الذى أمسكه من يدى بآلية غير مدركة لفعلها. حين رشف من الكوب بعض الرشفات. وضع الكوب على المكتب ، ثم وقف ، وهجم على وهو يقول :

– كيف فعلت ذلك أيها الأب ، ما الذى تملكه هنا تحت هذا الصدر ، ألك قلب بشر أيها الرجل !

هدأته وقلت له:

– ماذا لو عادت "لينا" إليك !

وقع على الكرسى ، وهو يفتح فمه. كان السؤال صاعقا له . كنت أعلم أننى أستطيع فيه هو الآخر. الذى جعلنى أستطيع مع الأب "بشاى" و"صموئيل"لن يقف أمام ذلك الشاب الهمجى بعض الشىء ، ذى القلب الطيب. انتابت "مينا" رعشة جعلتنى أدور حول نفسى ، ولا أصنع شيئا. أحسست أننى مكبل من رأسى وقدمى. كنت ألف فى الحجرة وأبحث عن شىء لا أعرفه. أخيرا استطعت أن أعرف أن ما أريده هو شىء ألف به ذلك الفتى وأدفنه. أمسكت بالمفرش الموضوع على المكتب ، وشددته دون أن أرفع أكواب الشاى التى تناثر زجاجها على الأرض والكتب التى اختلطت صفحاتها ببقايا الشاى وأوراق النعناع ، جذبته من يده ، لم أكن أعلم أنه ثقيل هكذا . لففت المفرش المصنوع من قماش أخضر عليه ، ثم دفسته فى صدرى ، وجلست أنتحب لحاله. ناديت على أحد الرهبان نستطيع أن نرجعه إلى بيته أو إلى حجرة أبيه على

الأقل. مضت فترة ، وأنا أدقق النظر إليه ، وهو يرتعش بقوة قبل أن يفيق من تلك الحالة . وقف على قدميه ورفع المفرش عنه.

كنت أتصبب عرقا. طلب منى أن أذهب معه إلى خارج الدير. مشيت وأنا أمسك بيده فى الطريق. كان يتنفس بصعوبة ، عند الباب قال لى :

– ربما تكون على حق . ولكن شيئا بشعا أيها الأب ما صنعته بالأب"بشاى" .

لم أكن أدرى ما الذى صنعته . كل ما هنالك أننى أريد أن أكون أنا وليس غيرى. فى المساء وأنا أرتب أفكارى انتابتنى لحظات نوم. رأيت فيها حلما بشعا ، حلمت أننى أقف عاريا فوق ربوة عالية والسماء مليئة بالثعابين ونجومها القليلة لا أشعة لها ولا لمعان .. كانت أشبه ما تكون بجسد رجل ملىء بالقروح ومن الأرض يخرج برق أحمر يزحف ببطء كأفاعى صغيرة. وكانت الثعابين كلما لمست أحد النجوم ينفجر محدثا صوتا يشبه الرعد مخلفا وراءه بقعة سوداء فى جلد ذلك الثعبان. وراحت النجوم تنفجر واحدة . واحدة. وتلك السماء تسقط الثعابين على رأسى ، وفجأة ظهر صموئيل بيده حربة من النار ، ثم أمر السماء أن تعود كما كانت. فعادت صافية تماما خالية من الثعابين. ثم مد تلك الحربة ، ولمس جسدى ، فأحرقتنى. عند ذلك قمت مفزوعًا وكانت روعتى شديدة.

فشربت كوب ماء ثم اعتدلت وجلست أفكر فى ذلك الحلم. وأخيرًا استطعت أن أهدئ نفسى . رحت أعيد ترتيب الحلم مرة أخرى وقمت ، وصليت صلاتى ، ثم استرحت على السرير. كانت الثقوب القليلة المريحة فى سقف القلاية تشكل لوحة أشبه بتلك السماء ، والتى حلمت بها منذ قليل ، أغمضت عينى ، وأنا أحلم بيوم العيد الذى لم يعد أمامه إلا أسبوع ، وكيف سأبدو فى ردائى الجديد ، وأنا أقف فى الإيوان ، وأحرك يدى المضيئة بذلك الخاتم الموقع عليه من نيافة الأب شنودة الأول ، وفجأة جاء الحلم الثانى الذى كنت أبدو فيه كالطاووس بذلك الرداء الأبيض . وقفت على سهل ثلجى منبسط مثل صفحة من الورق خالية من مجرد خط بسيط لقلم رصاص ، وأمامى تقف أشجار كثيرة برءوس آدامية لأناس لا أعرفهم رغم أن ملامحهم تبدو مألوفة والأشجار ذات الرءوس البشرية تتراقص مع كلماتى ، ثم جاء من بعيد جذع

نخلة أصفر يرتدى حذاء من القماش ورغم ذلك يهز الأشجار التى فتحت أفواهها بدبيب قدميه اللتين راحتا تدبدبان ببطء فى حين أن قدمى راحتا تضربان بعضهما وردائى يتساقط عن عورتى . ثم ظهر وجه لذلك الموجود .كان وجه "مينا" ابن "جرجس" الذى أمسك ببقايا الثوب ، ورماها على عورتى ، ولكن الثوب يتساقط بسرعة مخلفا وراءه انتفاخا فى عضوى ، ثم أمسك بيدى ، وخلع الخاتم الموقع عليه من شنودة الأول ، وأمسك به ورماه بعيدا وقال :

– لن تكون طالما أنا موجود . لن تستطيع أيها الخنزير ذو العضو القصير .

كانت المياه تتساقط من كل أنحاء جسدى ، وأنا أنظر إلى عضوى فأراه قصيرا جدا . حين أفقت على ذلك الموقف القذر كانت المياه تنز من كل أنحاء جسدى. ماذا هناك أيها الرب؟ هل هما علامتان جدتان أو ضغاث أحلام؟!

حين خرجت للصلاة ، وجدت جرجس يقف فى صحن الدير ، ويمسك بالحبل المدلى من أعلى السقف ويريح رأسه على صدره دون حركة . دنوت منه قليلا فرفع رأسه وهو يقول :

– هل أضرب الجرس لبداية الصلاة أيها الأب الجديد ؟

كنت أعلم أن الأب بشاى لابد قال له ، وأنه بالتأكيد قد عارض كثيرا فكرة الأب باعتزاله العالم ، ولكن الأب الذى عرفت عنه عدم رجوعه فى كلماته قد أسكته.

– اضرب أيها الشماس الكبير .

بعد إتمام الصلاة، ناديت جرجس الذى كان يحاول المرور بين الرهبان. أتى إلىّ ، فقلت له:

– أين مينا ؟

– مريض منذ الأمس.

كنت أعلم أن قلبه الصغير لن يستوعب الدرس ، وسوف يسقط بسرعة.مشيت معه ، كانت المرة الأولى التى أدخل فيها بيت جرجس البسيط والمنظم تنظيما ينم عن وجود امرأة تعمل بكد من أجل ذلك البيت. على الباب كانت تريزة تقف كدمية صغيرة. كانت علاقتى بها قد انتهت منذ ما يقرب من ثمانى عشرة سنة أو تسع عشرة. حين وقفت أمامى ونظرت فى عيونى وقالت لى إنها حامل. بدت فى ثوبها الأسود ووجهها النحيف كامرأة تنتظر وصول عزرائيل. بل تمنحه كل الفرص الممكنة لكى يصل مبكراً .

ما الذى يحدث حين تجد هذا الملاك الأسود بين يديك !

كانت حجرة "مينا" واسعة ، و مليئة بصور للآباء والرب والحواريين وبعض الجمل المكتوبة بخط قبطى قديم ، وصورة ليسوع فى ردائه الأفريقى وملامحه الإفريقية تقف فى منتصف الحجرة شامخة بأسنانه البيضاء على البشرة السمراء والصليب الأبنوس الجميل النائم فوق صدره.

– نيافة الأب "متى" جاء من أجلك يا "مينا".

خرج صوت جرجس المنكسر والمهزوم من الداخل ، وهو يقول لـ"مينا"الذى كانت عيونه مغمضة رغم أن هناك حبات من الماء تقف على أهدابه ، وأخرى تحاول المرور على تضاريس وجهه الذى تغير كثيرا فى مدة يوم واحد وأصبح وجهه ، وجه رجل هرم هزمته الأيام والخيبات الكثيرة فى حياته .

رفع جرجس"مينا" بهدوء ، وأراح ظهره على السرير بعد أن وضعت تريزة إحدى المخدات وراء ظهره ، ثم خرجت. وقف جرجس جوار الرأس يتحسسها ، ودموعه تتساقط ببطء ، فتصنع بقعا كبيرة على ردائه الأسود . دخلت تريزة ممسكة بصينية عليها كوب من عصير الليمون. وضعته على الكنبة جوارى ، ثم أحضرت ترابيزة صغيرة ووضعتها أمامى ، وجلست على حافة السرير ، وهى ممسكة بقطعة قماش مبللة ، ورفعت يد جرجس عن رأس "مينا" وراحت تمر بيدها على رأسه ووجهه ، مزيحة كل النقاط القليلة العالقة بوجه "مينا" .

طلبت منها ومن جرجس أن يتركونى قليلا مع "مينا". خرجا من الحجرة تاركين ظلهما يتحد ، وهما يمضيان قبل أن يغلقا الباب على رأسيهما اللذين اتحدا ، وكونا ظلا واحدا. رحت أحكى لـ"مينا" عن حلمى الثانى وكيف فعل معى. ابتسم "مينا" ثم قال لى :

– لا تخف أيها الأب ليس بمقدورى أن أنزع منك ذلك الخاتم . كما أنى لن أقدر على زحزحة الكرسى قيد أنملة كما ترى ، ولتعلم أنى راحل هناك حيث لا كرسى ولا أحقاد . راحت الدموع تتساقط من عيونه فلم أجد إلا أن أمسحها بيدى . كانت مسام جلده تبدو ملساء ورقيقة تحت أصابعى . غيّر اتجاه وجهه بعيدا عنى ، فرحت أتلو صلاة المرضى وأرسم بيدى علامة الصليب على رأسه. ثم راح يحكى لى عن حلم الأمس ، قال إنه رأى السيدة العذراء "مريم" وسألته لماذا لم يأت حتى الآن ؟ ، فقال لها أين؟ ، فقالت هنا ، وأشارت على حديقة مليئة بالأشجار والفواكه فدخلت. كانت هناك وجوه بيضاء وفراشات يلتفون حول براميل مليئة بالخمر ، ولكنهم لا يقدرون على رفع ولو قطرة وحيدة منه ، ثم دنت منى "مريم" وقالت لى :

– اخرج ، وأحضر لهم الخمر طالما ابنى يرفض أن يحول الماء إلى خمر. فحاولت التحرك ولكن عيون أبى المسيح ابن "مريم" تحول دون تحرك قدمى وعند ذلك أمسك المسيح بيدى وقال:

– من أجلك أنت سأحوّل الماء إلى خمر. من أجلك أنت أيها الابن الصالح ، ثم أمسك بيدى وغمسها فى الماء فكانت خمرا. فأمسكت بكأس وغمسته فى الماء الذى تحول إلى خمر ، وعندما هممت أن أضعه فى فمى وجدت الأب بشاى فأعطيته إياه ، وأخذت آخر ، فوجدت صموئيل و"لينا" وجرجس وتريزة فأعطيت كلا منهم كأسا ، وعند ذلك وجدت طيورا تخرج من يدى ، وتقف على رءوس كل الواقفين أمامى ، فنظرت فى عين المسيح الذى أشار علىّ ، فظهر لى جناحان . طرت بعيدا جدا ، حتى وجدت أناسا كثيرة ترفع يدها وتدعونى أن أطلب من المسيح أن يغفر لهم ، فأغمضت عينى عنها ؛ فوجدت يدا تمسك بقدمى ، وعندما هممت أن أفك قدمى من يد الماسك بها

انتابنى فضول أن أراها ، ففتحت عينى فكنت أنت أيها الأب " متى ". وكنت تقول لى قل لأبيك أن كل ما فعلته من أجل نصرة دينه هو لا أحد غيره . فحملت جناحى ورحت إلى أبى من أجلك أنت لا هؤلاء الذين يرفعون أيديهم ، وقلت له ما قلته لى. فقال بل من أجله هو فعل ما فعل وعند ذلك انتهى الحلم أيها الأب .

كان شعر رأسى يتطاير من تحت الطاقية التى أرتديها لأول مرة ، وجسدى يتفصد عرقا. كنت أعلم أن رؤية ذلك الولد لا يعكرها أى شيطان . حين دخل جرجس وتريزة انتابتهما حالة فزع . خرجت من الحجرة ، وقدماى لا تستطيعان حملى.

حتى أنت أيها الإله يضحك عليك الشيطان ، ويقول إن ما فعلته كان من أجلى أنا . تأخر الوقت كثيرا لإقامة صلاة المساء. قلت لأحد الرهبان اضرب الجرس ، خرج صوت الجرس رديئا جدا . أتممت الصلاة ، ووقفت أقول العظة ، كانت كلمات "مينا" تقتل كل أحاسيسى ، فنزلت دموع عينى دون إرادتى ، فحملها ذلك الملاك ، وأراها لكل المصلين. فراح كل منهم ينتفض ، فقلت فى نفسى ثمة أوقات طيبة تأتى بغتة ، فاندفعت إلى الصليب الخشبى الكبير الموضوع فوق المسمار وأنزلته. قلت كلاما جميلا قبل أن يرحل ذلك الملاك ، وفى المساء دخلت إلى قلايتى. ابتسمت لأول مرة منذ زمن ، وأنا أقول بصوت عال: لست على الأقل مضطهدا كالمسيح ، ومن أجل ذلك سوف تكون روحى هائمة تماما فى تلك الحياة المستقبلية. وأنا أحب ذلك جدا لأنى لا أستطيع أن أجلس ، وأرى الخمر عند فمى تماما حين أفكر فيها دون أن تنتابنى لحظات الضيق. عند الفجر صحوت على دق سريع على باب قلايتى. كان إبراهيم يرتعش وهو يقول :

– لقد مات "مينا" أيها الأب .

كنت أعرف أنه يموت ، فلم حزنت هكذا؟! ولم خرجت تلك الشهقة الطويلة من فمى وتلك الدموع كيف تساقطت؟! يا الله .. لماذا مت أيها الولد الجميل؟ من قال تلك الجملة التى أحفظها وأراها مناسبة تماما لحالة "مينا" هذا «يا أولاد أردت ابنى عشا فوق العشب. لكن قدما وطئت روحى. فقط قدم أضاعت ذلك العش. فمن أضاعك غيرى أيها الولد الجميل؟! ، كنت أستطيع . لا لم أكن أستطيع على الإطلاق.أقول لكم هناك

أرواح تسمى حملة الخطيئة ,وأشهرها بالطبع هو المسيح عيسى ابن مريم. هؤلاء الحملة عبارة عن أرواح أو طيور أو حيوانات ، وأحيانا مخلوقات آدمية تشبه بشكل ما كبش الفداء ، هؤلاء الذين يتحملون وزر الخطايا وتخلص المجتمع من شروره ، وذلك حتى يتحرر المجتمع من الآثام . يقول الإصحاح الرابع فى أحد الأناجيل المختفية من الوجود أن المسيح ظل شهورا طويلة يقنع يهوذا الإسخريوطى أن يسلمه لرجال المعبد.ظل ساعات يبكى أمامه ويقول له خنى يا صديق. خنى من أجل أن أتمم الخلاص للبشرية . خنى وسوف تعرف أى كائن ستكون. لتعلم يا صديق أنه ما من مرة ذكرت فيها إلا اقترن اسمك باسمى.انظر إلى يوحنا ولوقا ومرقس ومتى ، انظر حتى إلى متى المسكين ، إنهم جد مقتنعين بى ، ولو أردت أن أقول لهم خونونى وأسلمونى ، للبّوا ندائى قبل أن أقول لهم. لكنى اخترتك أنت بالعنيدة فيهم وعنهم جميعا . هل تعلم ماذا قال بطرس الذى لابد له أن ينكرنى يوم صلبى ثلاث مرات قبل صياح الديك فى ذلك اليوم؟ لقد قال لى لماذا تتخذ يهوذا تلميذا وأنيسا لك دوننا أبناء البطة السوداء. إنه قال بالحرف الواحد اطلب منى وأنا آتيك بها قبل أن يرتد رمش عينك إلى عينك ذاتها. لماذا لا تطاوعنى يا أخى. أنت لا تعرف ما هو بناؤك عند أبى. هل تعلم أن منزلك هناك أكبر من منزلى أنا الابن الوحيد؟ ماذا أقول لك لتخنى كما ينبغى؟ أقول لك حكاية يا يهوذا . يقال إن ميخائيل رئيس الملائكة اختصم إبليس. فلما خاصم إبليس مُحاجا عما حدث بينهما ولا تعرفه الحكاية ، لم يخبرنى أبى سبب الخصام والله يايهوذا . ورغم علمنا بإبليس ورئيس الملائكة ، فإن ميخائيل لم يجسر أن يورد حكم افتراء ، بل قال لينتهزك الرب. إبليس هذا صخور فى ولائم عبادك المحببة ، هو غيوم بلا ماء ، تحملها الرياح إلى أشجار خريفية ، بلا ثمر ، ميتة مضاعفة ، يارب إبليس أمواج بحر هائجة ، لاشك إبليس يا يهوذا . ولذلك أقول لك لا تتبعه واتبعنى ، لا تنشف رأسك يا أخى؟ إن كبير الملائكة قال ما يعرفه عن إبليس مع البشر الذين خلقهم الله على أحسن صورة ، ولم يقل شيئا عن سبب الخصام ، لم يسبه فى غير ما هو معروف عنه لنا جميع ، هل تعرف لماذا قلت لك. لك قلته لأن ريقى جف من التحدث معك.أنت كالجلمود.أنت تتبع إبليس ، وترفض أن تسلمنى. فى الحقيقة يا يهوذا أنا لم

أخترك أنت.نعم أقول لك الصدق الآن. ربما كان سيقنعنى أكثر لو ذهب نورك إلى بطرس ، لا أعرف لماذا صمم أبى عليك أنت دون أولاده الطيبين أتباعى. إننى لم أكن لأضيع كل هذا الجهد ابدأ مع يوحنا. يوحنا هذا حبيبى يا يهوذا. لكن ماذا أصنع ، وأبى مصمم على اختيارك للمهمة الصعبة. فى الحقيقية يا يهوذا إن الوقت معك يمر سُدَى كما أن ريحك غير طيبة. أنت فى الحقيقة شخص لا يؤتمن على العمل. أنت أكسل من دابة. وللحقيقة يا أخى أنا زهقت منك وأقول لك ما خفى عنك أمام عينك وقدام أبى.أنت يا يهوذا ذو رائحة نتنة ، وتخرج من فمك رزازا أثناء الحكى.

وظل المسيح أسبوعا لا يكلم يهوذا ، حتى أخبره أبوه أن يكلمه ، فدخل عليه ، وقال بعد أن عرف كل شيء يُصنع فى الخفاء فى جنة أبيه : يا يهوذا إن أبى يُقرئك السلام ، ويخبرك أن جنتك مليئة بأسنان الأسماك التى تحبها أكثر منى. هل ارتحت الآن؟! هل هدأت نفسك ، ونسيت مخاوفك. لقد بنى لك أبى جنة كبيرة مليئة بكل أنواع أسنان الأسماك.هل تحب أن تراها ، حتى تذهب اليوم إلى رؤساء الكهنة ، وقواد الجند وتسلمنى إليهم؟! غدا لا أكثر سوف أمنحه لك. وبالفعل حدث ما خُلق له يهوذا ، حمل خطية التسليم تماما كمل حمل إسماعيل خطية الذبح ، ثم فك منها ، فللناس حظوظ غير بعضها كما يقول فعلا الحكماء. أستطيع إن أقول أن من تلك الأسماء حملة الخطيئة هو مينا .من أدخل تلك الجملة إلى رأسى. ملعون ذلك اليوم الذى رأيتك فيه أيها الراهب الصغير.

خطوت خطوات قليلة فى اتجاه بيت تريزة وجرجس ، ولكن روحى كانت سائبة منى. فجلست أستريح من عناء اثنين وعشرين عاما على الباب جوار عين مارية التى نشفت فى ذلك الصباح .

كان على أن أتعرى أمامه تماما وأقول له :

– لا تترك مؤخرتى للطيور الجارحة. انس ذلك الحب الآتى بعد سنوات كثيرة. لن تزيد المحبين كثيرا حين تنضم إليهم ، ولن تخسر حبيبتك قلبك كله.. فقط ستمنح « متى » كل أحلامه. ابق معنا ، حتى نستطيع أن نرفع الصليب عاليا فى وجه الأعداء ،

فكل الذين تراهم ليسوا مسيحيين تماما ، أقسم لك أن الواحد منهم لا يتورع عن ضرب ملاك من السماء رغم خلوه من الذنب. انظر يا "صموئيل" لـ"متى" هذا ، لا يصلح منظما لنا كيف تتركنا وتعود. ابق معنا ، حتى نستطيع في المسيح كل شيء. كان على أن أقول له ذلك . وكان عليه ألا يمضي مسرعا هكذا دون حتى وداع يليق بثماني عشرة سنة . آه يا" مينا" ما الذى يبقيك لماذا لا تعود إلى أبيك الذى ينتظر هناك . لا تنظر إلى دموع أمك أو عيون أبيك الضريرة ألم تقل لك العذراء أن يد المسيح عاطلة عن الجمال الآن. ثماني عشرة سنة تكفي بل تفيض . اذهب إليه هكذا أفضل . ذلك لازم يا " مينا" . لا تجلس مع هؤلاء الذين يقولون للرب في عيونه أعطني الآن سروالا لائقا واستبق لك كل الأشياء التى زعمت أنك معطيها لنا في الحياة الأخرى . هؤلاء دمى تحب الحياة الأولى ولا تنظر تحت أقدامها حيث الطريق الملىء بعظام الغائبين . لا تقل إن هناك الأب بشاى و تريزة و جرجس و صموئيل . أين صموئيل هذا! تركك . تركك ومضى مع أحبته كما قال لك " متى" منذ قليل ! تركك تماما ، وأنت الملىء بالخيبات ابتداءً من " لينا " تلك البنت التى تركتك . هل تذكر ما حدث لها لقد اشتعلت النار بها دون أن ينزل أحد الملائكة الكثيرين الذين كانوا هناك ، ليكون بردا وسلاما ، وانتهاء بـ "صموئيل" الذى أتى له " متى" بحبيبته وضحك عليه . كل هذه الخيبات وتريد أن تبقى؟!. لم أيها الحمل الضال ؟ ، ألم يدعك إلهك الذى تحبه كما تزعم أكثر من صدر تريزة وعيون جرجس الملىء بالرموش وقلب صموئيل ويد بشاى وعقل" متى" ذاته؟! فلم تجلس هكذا ترتعش ، وقلبك خائف تماما من لقاء الرب إلهك الذى قال سيرعى ، وهو صادق. عيون جرجس و صدر تريزة وقلب صموئيل ويد بشاى. لم لا تنادى على السيدة العذراء ، وتقول لها خذيني ، يداى جاهزتان تماما لصنع الخمر ، واصطياد الفراشات البيضاء ، وقلبي مملوء بالحب . هيا الآن لا تدع كلام "متى" يعيدك إلى تلك الحياة القذرة. اختر صندوقا جميلا من هؤلاء أيها الولد. المخربون مستعدون. انظر إلى هؤلاء الذين يحملون الصليب إنهم كما ترى أطفال مدللون ، وسوف يتركونه ، عما قريب يقع ، لأنهم يعملون بأيديهم فقط كأنهم فى مصنع صغير يصنع *اللعب البلاستيكية* . *فإن فشل عمل أيديهم سيعيدون اللعبة* مرة

أخرى إلى مادتها الخام. إنهم جميعا هاربون من حياتهم السابقة ليمسكوا بلحظة مجازية أنت تعلم ذلك يا " مينا" إننى أقول لك إن هذا الدير جيد أيها الأبله ، لسوف يسقط منك فى الوحل سيقول لك عند ذلك . ليحمك الرب من عثرات لسانك دون أن ينتبه إلى أنه فى تلك اللحظة التى يدعو فيها الرب أن ينجيك من عثراتك يكون عاجزا حتى عن رفع ذلك الصليب . لأنه لا قوة هناك فى قلبه. فى ذراعه بعض القوة ولكنه ليس لديه أى فكرة عما تكون الحياة الحقيقية لأنه ببساطة هارب إلى لحظة المجاز داخل الدير ، وكثير منهم يمارسون العادة السرية ، ثم يروحون يعترفون ولكن دون أن يقولوا إنهم مارسوا العادة السرية ، ولكنهم يقولون فقط تبولنا على أنفسنا وعندما تنتابهم لحظة حقيقية ، يتمنون كثيرا الهروب من تلك اللحظة اللامجازية والتعامل مع الميتافزيقى ، ويروحون يفعلون أشياء قذرة فى عين الله وفى فمه. بل إن بعضهم فى لحظات التحقق ينكرون ما فعله المسيح بنفسه ويقولون لابد أنه مخبول أو عاجز عن ممارسة الحياة.

ممارسة الحياة

يجب علينا أن نعرف ما هى ممارسة الحياة ، سوف أمنحكم مثالا بسيطا عن ذلك الفعل الذى ينام تحت ذلك المسمى . لو افترضنا أن هناك راهبة فى الدير ظلت ثلاثة عشر عاما داخل ذلك الدير تتعبد ، وفى لحظة وحيدة انتابتها قشعريرة من أثر ملامسة يديها وهى تتغوط لمنطقة الشهوة. فى تلك اللحظة سوف تعمل شهوتها العاطلة . تلك اللحظة هى ممارسة الحياة داخل جسدها. هذه اللحظة الجسدية سوف تعزز بلحظة أخرى للممارسة.

كيف ! سوف أمنحكم مثالا آخر بعد أن تعمل شهوة تلك الراهبة التى ظلت ثلاثة عشر عاما فى الدير دون أن ترفع شعر قدميها. أتدرون ماذا تفعل؟ إنها سوف تقوم بنزع ذلك الشعر بيديها ، رغم ذلك الألم الكبير الذى سوف تحسه ، وتلك اللحظة

تسمى فعل الشهوة على الجسد ، وهو فعل تحقق آخر للحياة داخل إطار تلك الراهبة ولن يمضى أكثر من أيام قليلة ، ويتم إزاحة فعل الحياة على جسدها ، ليمارس على شيء أخر . وهنا لابد من طرح ذلك التساؤل ، كيف يتم فعل الإزاحة بعد أيام قليلة وهى التى استمرت على اعتقادها فى مدة الثلاث عشرة سنة الماضية إنها متحققة؟ أو لنقل منسجمة مع حياتها داخل الدير؟ . وللإجابة على ذلك السؤال سوف أمنحكم مثلا آخر. انظروا إن تلك الراهبة التى ظلت ثلاث عشرة سنة متوافقة مع ذاتها ، وفى لحظة انتابها ذلك الإحساس الذى سميناه بلحظة ممارسة الحياة ، وعندما تنتهى من تلك اللحظة ، سوف تجرى ، لتسقط بين يد العذراء الواقفة فى الركن جوار الحائط رافعة يديها تستقبل كل هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم الخاطئين التوابين ، ثم تبكى بين تلك اليدين ، وتظل ذلك اليوم تلوم نفسها ، وتبكى ، ولكنها فى المساء حين تنام تحلم بأشياء خارجة عن ذلك الإطار الذى يغلف حياتها ، وتلك الآلية التى ظلت على مدار ثلاثة عشر عاما . هذه الأحلام التى لا داعى لأن تخوض فيها ، حتى لا يضيع ذلك الخيط الرفيع للحديث تجعلها تقوم مفزوعة من النوم ، وعلى وجهها ماء سائب كأنها خارجة من الحمام ، ولم تعمل الفوطة على وجهها بعد. وتحاول أن تتذكر تلك الأحلام مرة أخرى وتعيش معها لحظة بلحظة ، وعندما تفيق من استرجاع تلك الأحلام تكون قدمها اليمنى خالية من الشعر تماما وألم يشبه التنميل ، ولكنه مصحوب بلذة مثل تلك اللذة التى جاءتها فى تلك اللحظة التى سميناها لحظة التحقق حين لامست يديها مكان الشهوة عندها ، قبل أن تداهمها تلك الأحلام التى أعادتها إلى اللحظة المجازية مرة أخرى ، وتحاول النوم ، ولكنها لا تستطيع ، فتجرى مرة أخرى إلى العذراء التى تكون قد ضمت يديها إلى خصرها ولم تعد على استعداد لأن تتلقى منها اعترافا آخر ، فتجرى خارج الدير ، وتروح ، تعذب نفسها بأشياء ليس لنا صلة بها ، ومكتوبة فى الكتاب المقدس ، لكى تكفر كل أخطائها . وفى اليوم السابع حين تكون نائمة فى جلبابها الذى كان أبيض ملتفة بملاءة قديمة أيقظها ذلك الرجل المتسحب بقبلة طويلة. حاولت أن ترفضها فى البداية ولكنها ، لم تشأ أن تضيع تلك اللذة التى أحست بها بتلك الحركات التى خرجت فى البداية من يديها وقدميها ، فأثارت الغبار ، ثم أخذت

ذلك المتسحب ، والذى لا أعرف له هوية ، ولا أعرف لماذا دخل حياة تلك الراهبة بعد إزاحتها عن الذات ودخولها عالم الآخر . على العموم لم يكن يعنينا منه أى شيء غير ذلك الفعل ولن نتعرض لإحساسه هو بتلك اللحظة ولكننا بمشاعرنا منغمسون تماما فى لحظة تلك الراهبة الافتراضية أيضا .

أخذته بين ذراعيها بقوة . كانت ضمة لم تعهد مثلها من قبل نظرا لأنها كانت قد دخلت الدير قبل ثلاثة عشر عاما ، وهى طفلة لم تتجاوز السابعة ولم تكن مهيأة لأي شيء غير اطاعة ذلك الرجل الذى كانت تدعوه أباها رغم أنه فى الحقيقة ليس أباها ومن أجل ذلك تركها فى الدير ومضى دون أن يؤنب نفسه لحظة لتركه لتلك البنت الشقية والجميلة . تلك الضمة كانت ضمة صادقة ويمكننا بشيء من التحليل أن نعرف متى تكون الضمة صادقة أو غير صادقة ، ونبرهن على ذلك بالقطع البسيط من فيلم الرهينة ، فحين ضم بطل الفيلم الطفل الصغير فى منتصف الفيلم ، لم تكن تلك الضمة حقيقية ، ولكنه كان خائفا أن ينادى الطفل على الجيران ، فينفضح أمره بينهم ، ولذلك كانت جبهته مليئة بالعرق وعيونه متلهفة ، إلا أن هذا المشهد عكس ذلك المشهد الأخير لذلك البطل حين يطلب من الطفل أن يذهب إلى أمه الواقفة جوار الشريف ، ومعه جمع كبير من العساكر ، يجرى إليه ، فيضمه البطل إليه ، وحين ذلك يرمى المخرج بذكاء الكاميرا ، لينهى فيلمه ، وجبين بطله الذى أصيب بأكثر من خمسين طلقة . تلك الضمة كانت ضمة صادقة مثل الضمة الصادقة التى ضمتها تلك الراهبة لذلك المتسحب . كانت الضمة صادقة وقوية وحارة وأمومية وأخوية ومشبوبة بالعاطفة ، ثم راحت تعدل وضع ذلك المتسحب على وضعية حسنة ، لتتقبل الحب ، وعندما تأكدت أن تلك الوضعية واثقة للغاية وراسخة ومستديمة لتلك اللذة التى تعمل فى كل جزء من جسدها . لن تذهب إلى إحساس ذلك المتسحب الذى راح يغمس لسانه فى فمها ، وراحت هى تبتلعه بهدوء جعل جسده كله مشتعلا ، وجعله يؤمن أن فهم الآخر لوضعية الجماع يعنى الاحتراق للاثنين ، وكان هناك سؤال يعتمل داخله ولكنه لم يرد أن يقطع ذلك الوضع ، كان يريد أن يسألها إن كانت بهذا الشوق للجماع ، فلماذا قاومت فى البداية؟ ! بعد أن تأكدت تلك الراهبة من اللذة والوضعية باتت أشياء الحب فى تلك

اللحظة تطلب أسماءها الرخيصة أو على شكل بسيط أرادت أن تعرف اسم العضو الذى أشعلها ، ولكنها لم تجرؤ على التحدث إلا بلغة كانت مشتركة بين المتحققين من قديم الأزل هى لغة اللهاث واللمس ، وعندما ينتهيان معا من ممارسة الحب تتمنى أن تفتح عيونها ، لترى ذلك المتسحب ، فى تلك اللحظة تظهر ثلاثة عشر عاما بما تحمله من كذب معايشة ، وتطبق على العيون تلك اللحظة ، وتسمى تلك اللحظة هى لحظة الاختراق أو لنقل بصورة بسيطة الحظة الندم على فشل ممارسة الحياة طيلة ثلاثة عشر عاما ومن أجل ذلك هرب صموئيل بمجرد أن رأى وجه حبيبته رغم أنه ظل اثنين وعشرين عاما من التحقق كما كان يزعم فلم تستمر فى تلك الحياة المجازية أيها الولد ؟ !

إن كنت تخاف على عيون جرجس المرتعشة فلا تخف إنه لابد يفهمك وسوف يموت معك ، أو على الأكثر بعدك بقليل ، فلا تنظر إلى تريزة التى سوف يتأزم الموقف معها ، فبموتك سيموت جرجس كما قلت وستخسر تريزة موقعين ، موقع الصدر والدفء الأمومى ، وموقع التحقق وممارسة الحياة مع جرجس ولا تبك لضربات القدر فى اللحظة التى تفقد فيها تريزة ممارسة الحياة. يمتلك صموئيل حياته ويبعد عن ذلك الزيف ، وينزل بحياته إلى المتحقق أو الأرضى ثمانية عشر عاما يا " مينا" . وأنت تنظر فقط فى الاتجاه المحدد لك سلفا من قبل هؤلاء الذين يهربون . كثيرا ما تمنيت أن تقول لهم أفيقوا من تلك الغفلة ليس هكذا يعبد الإله. ماذا تقول للرب الإله حين يلقاك هناك ؟ كنت أصلى وأتعبد . ما الذى أبقيته للدنيا؟ ما الشجرة التى زرعتها فى رحم الأرض . يجب أن تعرف أن الأب سوف يسألك تلك الأسئلة . أنت عائد إليه الآن دون خوف.إننى كنت أريد أن أصنع شيئا لهؤلاء ، ولكنهم صموا آذانهم عنى ؟! فأطلق يدك فى جسدى الآن أيها الرجل الذى لم يحمل أى خطيئة ويحملك أبناؤك كل الخطايا .

القسم الأخير

دخل جرجس على الأب بشاى في حجرته فوجده جالسا على الكرسى الهزاز الذى أهداه له أبو كنيسة القلب المقدس الموجودة فى الهند ، ومن يومها والأب يجلس على هذا الكرسى أكثر من خمس ساعات فى اليوم الواحد . وفى أيام كثيرة جعل بعض الرهبان يحملونه إلى صحن الدير ، ويضعونه تحت تكعيبة العنب وفى أيام أخرى أدخله إلى قلايته رغم أن الباب صغير فإن محاولات الرهبان أفلحت فى إدخاله ، ولكنها لم تفلح فى إخراجه إلا بعد خلع باب القلاية ، كان الأب بشاى فى الأيام الماضية قد أوكل إقامة الصلاة إلى صموئيل الذى يعده كأب للدير ، وكان هو يكتفى بالنظر إليه وهو داخل حجرة الهيكل .

قال له جرجس :

– أين الأب "متى" أيها السيد الكبير ؟

فتح بشاى عيونه المتعبة وقال له :

– ذهب إلى بلدته من أجل أشياء حكى لى عنها ، ولكن قلبى يحدثنى أنه ذهب إلى نيافة الأنبا شنودة الكبير من أجل ترشيحى لصموئيل بدلا منه .

– متى ذهب ؟

– منذ الصباح الباكر ، وأدعو الله أن يكون قلبى وإحساسى خاطئين.

– هل أصنع لك شايا بالنعناع ؟

– اصنع ما يحلو لك . فيبدو أننى سوف أفقد أشياء كثيرة أحبها فى الأيام القادمة. قلبى يحدثنى بذلك منذ أسبوع على الأقل أيها الشماس.

خرج جرجس لا يدرى ما الذى جعل قلبه يحدثه دون أن يدرى أن إبراهيم مساعده يتبعه كظله ، كان إبراهيم الذى رسم كمساعد للشماس منذ خمس سنوات

يحلم هو الآخر بذلك الصليب الذى يضعه الشماس العجوز فوق صدره ، وكثيرا ما مضت الأيام ، وهو يمسك به فى يده. ولكنه حين يفيق إلى نفسه يكون الصليب ما زال معلقا على صدر جرجس ، وهو يُمسك بالحلم الذى بدا فى عيونه حلما لن يتحقق أبدا .

– يا إبراهيم اصنع شايا للأب ولا تتلصص علىّ كعادتك دائما ، ولا تنس النعناع أيها الشماس ، ولا تترك للشيطان رأسك ، فأنت ولد صالح ، وسوف تنال كل ما فى نفسك عما قريب . قريبا جدا أيها الشماس. أقرب مما تتصور ، ثم راح يفكر فى الجملة التى قالها . كيف سينال إبراهيم أحلامه قريبا ؟ ! ، ما الذى دس تلك الجملة فى فمك يا جرجس ؟ ، ما الذى فعله كلام الأب بشاى فيك ؟ ، هل ستعود للأيام الماضية. تلك الأيام التى ظللت فيها بعيدا عن ابنك مينا وذلك لمجرد بعض الكلمات التى خرجت من فم ذلك الأب . يبدو أنك مرتبط بفم ذلك الأب بشىء لن تراه أبدا.

خرج من باب الدير ، وذهب إلى بيته. كانت تريزة تنام فوق السرير ، فسألها عن حالها وكان قد تركها فى الصباح مريضة ، فقالت له :

– بخير أيها الشماس لا تخف لن أموت قبل أربعة أعوام على الأقل . .

ما الذى أدخل فكرة الموت إلى رأس جرجس وبشاى وتريزة فى هذا اليوم ؟ ! ، ما الذى يحدث لتلك الحلقة الثلاثية ؟ ما الذى يحدث لهم عن قريب؟. أغمض جرجس أذنيه عن سماع صوت مينا الذى كان يقرأ فى كتاب فى الحجرة الأخرى ، وراح يفكر فى كلام الأب وكلام تريزة وكلامه هو وإبراهيم ولم يدر بنفسه إلا حين أيقظته تريزة وقالت له :

– لقد نمت كثيرا أيها الشماس ، وصلاة الصبح على الأبواب .

كيف نام جرجس كل هذا الوقت ؟ ظل ذلك السؤال يتردد فى أذنيه حتى وقف أمامه إبراهيم ومعه سيدة ما إن وقفت أمامه بالتمام حتى ضاع ذلك السؤال من رأسه ، وأحس بتلك الحالة التى جعلته يجرى سريعا من أمام الأب بشاى حين وافق على تقبل اعتراف تلك السيدة.

– ماذا وراءك أيها الشماس الصغير ؟

– لا شيء يا سيدى . السيدة تريد نيافة الأب .

– لماذا يا سيدتى ؟

– أريد الاعتراف .

حين سمع صوتها تأكد له حدسه .

– أنت من أبنائه أيتها السيدة ؟ !

– لا ولكنى اعترفت منذ أربعة عشر عاما أمام قس لا أحب أن أراه. كما أننى أريد الاعتراف.

– تقصدين القس " متى" .

– لا أعرف اسمه يا أبت ، ولكنى لا أعتقد أنه يصلح لتلقى الاعترافات .

– هذه أنت لا شك الآن . أنت السيدة التى أتت منذ خمس عشرة سنة أتذكرها يا إبراهيم تلك السيدة التى قلت عنها إنها أشبه ما تكون بالسيدة العذراء بتلك العيون؟ . أليس كذلك يا إبراهيم. تذكر إبراهيم تلك السيدة التى أرقت عيونها مضجعه كثيرا ، وراح يؤنب نفسه على إغفال عينه لتلك العيون التى يحفظها ذلك الشماس العجوز من مجرد الوصف ، ولم يحفظها هو رغم أنها شاركته أياما كثيرة . ما أسوأك يا إبراهيم ألازلت لا تتذكرها . ألا تذكرك ضحكتها هذه بها. كانت ماجدة تضحك فى تلك اللحظة وهى تنظر إلى إبراهيم ، نظر إبراهيم إلى وجهها ، فوجد الابتسامة القديمة فتذكر تلك اللحظة التى التقت عيونه بعيون بنت لم تتجاوز السادسة عشرة وتشبه تلك العيون إلى حد بعيد. وكان ذلك فى عرس أحد أبناء الكنيسة ، وعندما هم أن يحدثها لكزه ذلك الأعمى فى جانبه وقال له بعد إقامة الإكليل .

– أيها الشماس الصغير أفعل ما تشاء ، ولكن حين يكون عليك عمل ما تصنعه أمام الناس وفى عين الله فأفعله بضمير. بضميرأيها الجرو الصغير ، ولا تشغل عيونك

عن ذلك العمل بأى شيء . يومها عاد إلى بيته فى المساء ، وقال لأمه التى كانت ساهرة ، وهى تبكى لضياع الكتاكيت التى ظلت ساهرة على حياتها شهرا من أجل أن يصبحوا فراخا سليمة تماما وتندب حظها الأغبر أمام خيبات تلك الكتاكيت التى لا تستطيع أن تحرس حياتها أمام هؤلاء القطيطات الشرسة التى تبعثهم " سلفتها" تلك السيدة البغيضة زوجة عم إبراهيم . فقال لها إبراهيم وهو يقسم على الصليب النحاسى الكبير الذى أعطاه له ذلك الشماس العجوز ذو العاهة.

- إن ذلك الأعمى مبصر تماما ، وعيونه خالية من الخيبات .

فوضعت رأسه فى حضنها ، وقالت له ، ودموعها كعادتها تسح من عيونها :

- غدا أيها الابن تكون شماسا جميلا ، وتجد بنتا أجمل من تلك التى نهرك عليها ذلك الأعمى تماما ذو الأنف السليمة فقط ..

وحين ذلك نط قط من قطط امرأة عمه ، وخطف ذلك الكتكوت الأخير من بين عيون أمه التى كانت مشغولة عنه بمداعبة رأس ابنها ، فلم يجد أمامه إلا أن يشارك أمه فى بكائها .

- انتبه يا إبراهيم فعين تلك البنت لم تكن تشبه تماما عيون تلك السيدة .

ارتعش إبراهيم وهو يحدق فى وجه الشماس .

- لا تخف كثيرا هكذا ، واذهب إلى حجرة الأب صموئيل وقل له إن فى الحجرة الغربية سيدة تريد الاعتراف أمامه ريثما أدخل السيدة إلى تلك الحجرة . على أن تعود من عنده وتصنع كوبا من عصير المانجو الطازج للسيدة.

انسحب إبراهيم من أمامه ، وهو يفكر فى ذلك الأعمى ، وكيف عرف أفكاره. فتح جرجس الحجرة الغربية أما السيدة ، فلم تنتظر حتى يدعوها للدخول ، جلست على الكرسى ، أمسك جرجس الستارة السوداء ، وأراد أن يزيحها بعيدا فقالت له :

- دعها يا أبت . أريد الاعتراف من خلفها حتى لا تعوقنى نظرة الأب صموئيل أليس اسمه صموئيل ؟

– نعم الأب صموئيل أيتها السيدة .

– كيف حال مينا ابنك ؟

– نسيت أنني حكيت لك عنه . إنه بخير يا سيدتى ، وهو الآن فى الطريق إلى الجامعة ، فلقد منحه الله نجاحا جميلا ، وسوف يكون فى العام القادم إن شاء الله فى الجامعة ، وهو الآن فى قلالى الرهبان. هل آتى به لترينه ؟

– لا داعى ، ولكنى فقط أردت أن أخبرك أننى ما زلت أتذكر اسمه واسمك منذ خمسة عشر عاما.

– لك قلب عامر بالخير يا سيدتى .

– شكرا على ذلك الكلام الجميل يا أبت .

دخل إبراهيم حاملا كوب العصير فوق الصينية ، فأخذه من يديه بضربة واحدة أذهلت تلك السيدة التى كانت تعلم إنه ضرير ، وعاطل عن النظر إلى الشمس كما حكى لها فى تلك الدقائق القليلة التى جلست خلالها معه منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما. أمسكت من يديه الكوب ، ورشفت منه رشفة ، ووضعته على الدكة الطويلة التى جوار الشباك.

دخل صموئيل وهو لا يعرف من الأمر شيئا ، وإن كان قلبه لا يستقر على شيء منذ الصباح الباكر. حتى أنه دخل على الأب بشاى ليعتذر له عن عدم قبوله كرسى الدير الذى ظل يمسك النوم عن عينيه أسبوعا كاملا ، وحين وجد تلك الهزات الخفيفة فى قلبه صباح اليوم. تأكد له أنها علامات جديدة من تلك التى تنير له الطريق. نظر صموئيل إلى جرجس وقال له :

– ماذا هناك أيها الأخ الصالح ؟

– هناك سيدة تريد الاعتراف أمام أب صالح .

– هناك آباء صالحون تماما تحت عامود ذلك الدير أيها الصديق . فلم دعوتنى أنا ، وأنت تعلم أننى لم أسترح منذ أسبوع على الأقل ؟

- إن السيدة تريد الاعتراف ، ولها عندنا حق قديم. فلقد اعترفت أمام الأب «متى» وهى تريد أن تعترف أمام واحد لا يشبهه تماما .. فلم أجد خيرا منك .

- دائما أنت تضع أمامى أشياء لا أستحقها ، وتظلم ذلك الأخ الصالح "متى" والذى يجب أن نعرفه جيدا حتى نستطيع أن نتعايش معه ومع ذلك لا أستطيع أن أرد لك مطلبا يا أبا مينا ولكن هل يكون ملاكنا جاهز الآن لتلقى ذلك الاعتراف ؟

- أعتقد أنه جاهز يا سيدى وإلا لما بعثك إلينا الرب الآن.

ضحك صموئيل وجلس على الكرسى ، انسحب جرجس ، وهو يدعو للسيدة بالخير والبعد عن كل خطاياها. مرت فترة من الوقت دون أن يتكلم أحد منهم. ثم قال صموئيل :

- من أين تبدأ السيدة ؟

جاءها صوته لأول مرة ، فأحست بنغزة فوق القلب تماما أصابت مكمنه . راحت ماجدة تحكى عن أشياء بسيطة مرت بحياتها منذ تركها حبيبها الغائب عنها منذ اثنين وعشرين عاما. وقف صموئيل وناد على إبراهيم الذى دخل مسرعا ، فأمره بإحضار كوبين من أى عصير طازج ، ثم عاد ، وجلس على المقعد .

- أى الأخطاء التى يجب أن أعترف بها أيها الأب ؟ !

- ألم تعترفى من قبل؟!

- اعترفت كثيرا ، ولكن لا أعرف لماذا أحس أننى فى امتحان قاس .

- أنت فعلا أمام امتحان قاس من الشيطان أيتها الأخت ولكن لا داعى للخوف.

حينذاك دخل إبراهيم يحمل صينية عليها كأسين من عصير الليمون المخلوط بالنعناع ووضع كأسا أمام صموئيل ثم وارب الستارة قليلا ، وترك الكأس أمام الأخت ماجدة التى ابتسمت له. رغم أنها كانت تهتز كأنها محمومة ، حين أزيحت الستارة قليلا. شم صموئيل رائحة كادت تجعله يطير. لولا أنه خارج من زمن مضى. أحس صموئيل بالارتباك ، فراح يقف ، ويجلس والكأس بين يديه تتساقط من حوافها بعض

القطرات دون أن يدرى ثم قال لها :

– هل انتهيت من عصير المانجو ؟

ابتسمت ماجدة ظنا منها أن صموئيل يضحك معها . كانت ماجدة تكاد تموت والوقت يمر . كانت تريد أن تشد تلك الستارة اللعينة التى تخفى وجه حبيبها عنها ، ولكن كلمات القس"متّى" كانت تتردد فى أذنيها . " ضعى على قلبك لتر ماء مثلج عندما تسمعين صوت صموئيل ، تمهلى حتى تستطيعى أن تفوزى به " وضع صموئيل كأس العصير على الترابيزة الموضوعة أمامه ثم قال:

– هل نبدأ أيتها السيدة ؟

يبدو أن الشيطان قد ملك قلبى تماما أيها الأب. تركنى حبيبى ومضى منذ سنوات بعيدة . ظنا منه أن الولد الذى كان يحملنى بين ذراعيه حين إلتوت قدمى عشيقى وليس أخى. هكذا يا أبى ضاع منى حبيبى. ومضت الحياة على وتيرة واحدة ، يوم يمضى ليأتى يوم جديد . مات أخى بعد رحيل حبيبى بست سنوات ، واستطاع ذلك القس الذى سوف أظل أكرهه أن يستغل ذلك الفقد الروحى الذى أحسست به ، وأدخلنى إحدى الجمعيات الخيرية ، وهى تجربة كبيرة ومليئة بالألم ، كما تعرف ، والرب يأمرنا ألا ندخل فى تجربة ، واستمرت حياتى تمر حتى مات أبى . ولم يبق لى غير أختى . فوجدت نفسى مسئولة عنها ، ومرت السنوات رغم ذلك. حتى تزوجت أختى منذ أربع سنوات ، ولك أن تتخيل مدى العذاب الذى عانيته حين يدخل رجل غريب فى بيتك. مرت أيام كنت أسمع صوتها ، ولكنى لا أعرف كيف استمالنى الشيطان تماما هكذا وأنا الذى أملك صورة الحبيب ، أنظر إليها كل أسبوع مرة فتكفينى أكثر من شهر ، تملؤنى . فكيف استمال هذا الشيطان قلبى ، وأنا الذى أغافل ذلك الحبيب وأخرج صورته وأنظر إليها وسط الأسبوع . أنا أفعل ذلك لا أعرف ما الذى حدث لى ، ثم بدأت البكاء . وقف صموئيل الذى كان يرتفع عن الأرض مع كل جملة تقولها تلك السيدة بذلك الصوت الذى كان يعرف صاحبته ، ولكنه يرفض أن يصدق تلك النبرة البعيدة والمالكة مكانا فى القلب لم تخطئه قط.

مسحت دموعها ، ثم راحت تحكى عن ذلك الحبيب الذى يفيض على العالم كله ثم

قالت :

– تصور أيها الأب أنا الذى أمتلك عيون ذلك الحبيب أفعل ذلك ، أنا يا أبت أفعل ذلك؟! أضع لتر ماء مثلج على رأس كلب أختى ، وهو عائد من الخارج فى ذلك الجو البارد. وأنا لا أعرف ما حدث لى. أنا التى أحمل الصليب على صدرى. أنا أفعل ذلك. لابد أن الله سوف يحرقنى. أنا التى أخرج صورة ذلك الحبيب كل يوم جمعة ، أسرق ملابس زوج أختى الداخلية وأقطعهم ، أنا أفعل ذلك؟! أنا التى أريح العجوز فى الباص ، وأخفف الألم عن العجائز ، أنا التى تبرعت بأكثر من عشرة لترات من دمائى على مدار عامين فقط. رغم أن القس الذى وضع الصليب هذا على صدرى ، ويبلغ من الوزن مائة كيلو لم يتبرع بربع لتر. تخيل أيها الأب ما حدث منى بالأمس القريب فى بيتى المكون من طابقين. الطابق الأول المخصص لتربية الفراخ والأرانب والبط.

– وقف صموئيل دون أن يدرى لذلك سببا . سكتت ماجدة عن الكلام لتلك الحركة التى أحدثها الكرسى الذى كان يجلس عليه صموئيل الذى وقف حين رأى الفراشات البيضاء التى كثيرا ما ظهرت حين يفكر فى حبيبته السابقة ، كاد أن يمسك بواحدة ولكنه فشل . فجلس على الكرسى مرة أخرى ثم قال لـ ماجدة :

– آسف أيتها السيدة ، ولكن يبدو أن الشيطان الخبيث قد غافل الملاك الجالس عند باب الدير ، ودخل حينما نظر الملاك إلى عينيك ولم ينتبه أن الشيطان كان بالقرب من الأرض حين ذلك .

ضحكت ماجدة لتلك المداعبة الجميلة ثم قالت :

– كيف لامرأة تبلغ السابعة والثلاثين ..

حين ذلك سمعت وقع خبطة لم تعرف أنها من جناح الملاك الذى أراد أن يصحح عمرها جيدا ، فانتبهت لتلك العلامة وقالت :

– كيف لامرأة تبلغ الثامنة والثلاثين ..

وقبل أن تسمع وقع الضربة الثانية التى جاءت أشد قوة من الأولى أكملت:

– التاسعة والثلاثين على أكثر تقدير أيها الملاك. وتعرف تعاليم يسوع جيدا . ابتداء من افقأ عينك إن نظرت إلى عورة أخيك ، ومرورا بإذا صفعك أحد على خدك الأيمن فاعطه الأيسر ، ذلك لازم أو ينبغى ذلك . كما يقول ذلك القس ، كما أنها تعرف وصايا موسى أو على وجه الدقة تحفظها كاملة . كيف لامرأة مثل تلك تحس بالغيرة من أختها الوحيدة التى تزوجت من أربع سنوات ، وقلبها يكاد يشتعل منذ اليوم الأول الذى أغلق الباب عليها ، ولا تنام الليل ، وهى التى عندها حبيب كما قلت لك. تفعل ذلك ؟!.

نعم حبيبها تركها ، ومضى منذ اثنين وعشرين عاما ، ولكن عندها صورته يا سيدى. والنظرة الصغيرة إلى صورة ذلك الحبيب تكفيها سعادة أربعين يوما أو ثلاثة آلاف كيلو على حصان عاطل عن الشباب ، ثم إنها كما قلت لك تنظر إلى تلك الصورة مرتين فى الأسبوع ، فيسيب أشجانها لستة آلاف كيلو فى الأسبوع. ولتلك السيدة كلب وولف ، كلب جميل خالص . ينبغى لكل الكلاب ان تنام على قدميه كما قال لها ذلك القس الذى لا تحبه حين رآه.فكيف لامرأة مثل تلك أن تمسك بسراويل زوج أختها وتمزقها تماما. لتر ماء مثلج على رأس كلب أختها الهزيل ، وهى تدعى أنها لا تعرف الشر البتة.هل هذه السيدة يجب أن تعيش ؟

بالأمس القريب حين رأيت بطة أختى تخرج ثلاث أوزات جميلة . انتظرت حتى أغلق زوج أختى الباب ، ولما سمعت أصواتهم المتداخلة كالعادة فتحت بابى ولم ألبس فى قدمىّ خفا ، ونزلت الدور الأول ، وأمسكت الأوزات الصغيرة ، ونظرت فى عيونهم طويلا ثم أدرت رقبة الأوزات بيسر وسهولة دون أن تهتز شعرة واحدة أو يختلج قلبى. هل تصدق أيها الأب أننى أحسست بسعادة غامرة ونمت للمرة الأولى منذ زواج أختى مستريحة وهادئة. ماذا تقول لتلك المرأة الخبيثة . إيه أيها السيد الجليل ، ولا تسألنى لماذا لم أعترف لأبى فى الكنيسة منذ اليوم الأول لزواج أختى . إننى يا سيدى لا أحب قسيس كنيستى ، فهو رجل همه الأكل ولبس الصليب فقط ويكاد المرء يتقيأ ، وهو يسمع عظة الأحد. فكيف أعترف له! ولا تؤاخذنى أيها الأب المحترم إن قلت لك إن

الكنيسة الأرثوذكسية أصبحت ملجأ لذوى الكروش العفنة والرءوس المحشوة بتعاليم الكاثوليك .

ثم أجهشت بالبكاء . ، حين ذلك قال صموئيل :

– أيها الملاك الطيب أحص عدد الدمعات ولا تسقط منك أيما دمعة صغيرة . ينبغى ذلك أيها الملاك ثم اطرحهم من عدد الذنوب وأحسبها وأعتقد أنه لن تكون هناك سيئة ، سوف تخرج بها هذه السيدة . وعليك أنت أيتها الأخت بالبكاء فالإنسان لا يستطيع أن يهرب من نفسه كما أنه لا يمكن أن يظل وحيدا لمدة تسعة وثلاثين عاما . منهم اثنان وعشرون عاما بتلك الصورة فقط .. ثم بدأ يتلو صلاة الغفران بعد مدة قال :

– أين حبيب تلك السيدة الآن ؟

– غاب عنى إثر سوء فهم منه حين فكر ذلك الحبيب أن الذى يحملنى بين يديه أثر التواء قدمى عشيقى مع أنه أخى فقط ولكن عادل وذلك اسمه يا سيدى لم يفكر لحظة وحيدة. فهل يسامحنى من أحبه قلبى ؟ ، وهل ستشقى أختى إذا علمت شيئا عن سراويل زوجها ؟

فقال صموئيل وهو مشتت الذهن لوقع صوتها الذى أصبح لا يخطئ أبدا . ذلك الجرح الذى فى القلب:

– لن تشقى أختك بما فعلت يداك . فما أكثر سراويل الأزواج ، ولكن اعلمى أنه بالفضيلة تحمل الروح التى فى الجسد ، لا بالرزيلة ولا بالنار المقدسة أو الغيرة ، وعليك أن تذهبى الآن ، لتغسلى عيونك جيدا ، وتعصرى أصابع يديك من الماء العالق بها ، وتعودى لى سريعا ريثما أصلى صلاة الغفران ، ونادى على إبراهيم . دخل الشماس الكبير جرجس فسأله عن إبراهيم ، فقال له إنه فى أحد قلالى الرهبان يصنع شيئا فقال له :

– لو سمحت أيها الأخ العزيز أر ضيفتنا طريق الحمام بعد أذنك.

وبدأ الصلاة ، ولكن الفراشات البيضاء التى ظهرت بمجرد مرور السيدة من أمامه ، وهو مغمض العينين ، فلم يستطع إكمال صلاته ، وراح يتردد فى صفحة القلب أكثر من سؤال ينام منذ اثنين وعشرين عاما . حينما عادت ، حاول أن يبدو متماسكا ، ولكنه أغمض عينيه على فراشات جديدة ، واستراح قليلا ثم قال لها :

– من أى محافظة سيدتى ؟

– من القاهرة .

حين ذلك تأكد لـ صموئيل أن الفراشات والصوت القديم الذى لم يخطىء موقعه فى القلب ما هى إلا علامات صادقة ، فنط فوق الكرسى ، وجذب الستارة بخبطة واحدة من يديه تفوق أقرانه من حاملى الخمسة والأربعين خريفا فوق أكتافهم . فوجد ماجدة أمامه ، فأخذها فى حضنه ، ثم أزاحت رأسها ، ونظرت إلى لحيته الكثيفة ، ثم قالت بصوت عال :

– خذنى .. اعتصر أصابعى بين يديك أو بلحمك وضع صدرى على صدرك ، وقبلنى قبلة طويلة ، حتى تخمد أنفاسنا . افعل ما شئت لأكون جوارك إننى أتألم فهل تشعر بألمى ؟

فقبلها قبلة أضاعت عذابات اثنين وعشرين عاما أو يزيد . عند ذلك قط الشيطان من تحت تنورتها السوداء وأمسك بالقرطاس من يد الملاك الذى كان فاغرا فاه ورماه على ثوب الملاك الآخر الذى كان ممسكا بتلك الابتسامة ليريها لصديقه الذى انسحب فى اتجاه الباب وهو ممسك بتلك الابتسامة ويغنى . خرج صموئيل وماجدة من باب الحجرة وعند الباب طلب من إبراهيم ورقة وقلما وترك رسالة صغيرة للأب بشاى وأخرى لـ مينا ابن الشماس ، ولكنه لم يعلم أبدا حين عاد إلى ذلك الدير بعد ثلاثة أسابيع لما علم بموت مينا ، وجاء فى اليوم الذى مات فيه جرجس ذاته أن تلك الرسائل لم تصل إليهما ، وحتى الآن لم يعلم الملاك الحارس للدير أين ذهبت تلك الرسائل التى أعطاها صموئيل لإبراهيم حين كان يودع صديقه الملاك الآخر الذى اتسخ. رغم أنه أجرى تحقيقا دقيقا ! !

حلوان . ديسمبر ١٩٩٤

التصحيح اللغوى: محمد السيد عمر



صدر للكاتب:

- أوراق العربة الجنوبية – ١٩٨٨.
- كلما رأيت بنت حلوة أقول يا سعاد– الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٤.
- دائمًا ما أدعو الموتى – مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.
- تمثال صغير لشكوكو – ميريت، ٢٠٠٤.
- ٦١ شارع زين الدين – روايات الهلال، ٢٠٠٧.
- ملاك الفرصة الأخيرة – دار فكرة، ٢٠٠٨.





أستطيع كل شيء

في

المسيح

فأحس بالأجساد المرسومة تحت يديه كأن أعضاءها سكنتها

الروح وأنارها الوحي

المجلس الأعلى للثقافة